طبعة جديدة

محمد بن عبد الله ابن بطوطة

رحلة إبن بطوطة



الجزء الأول



01 10 51/07
الايداع القانوني : 2007 - 1479
ردمك : 3 - 561 - 62 - 9961 - 978

رحلة ابن بطوطة

تحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

الجزء الأول

الأنيس
سلسلة العلوم الانسانية
تحت اشراف علي الكنز

محمد بن عبد الله بن بطوطة

رحلة ابن بطوطة

تحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

الجزء الأول

تقديم محمد السويدي

تقديـــم

التعريف بابن بطوطة وبرحلته :

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ، ولد بمدينة طنجة (المغرب الأقصى) يوم 17 رجب سنة 703 هجرية ، الموافق ليوم 24 فبراير سنة 1304 ميلادية ، ويعرف بابن بطوطة ، وتوفي سنة 1377 م .

نشأ ابن بطوطة في أسرة تنتسب الى قبيلة لواتة ، معروفة بالعلم والدين والافتاء ، ومن ثم تلقى تعليمه في علوم الدين والفقه واللغة وحفظ القرآن ، الى أن بلغ سن العشرين ، ثم قرر أداء فريضة الحج ، فخرج من مدينة طنجة يوم الخميس 2 رجب 725 هجرية ، الموافق لسنة 1322 ميلادية .

اتجهالى مدينة تلمسان (الجزائر) التي بقي بها ثلاثة أيام فقط ، ثم واصل رحلته في رفقة رسولين من تونس الى ابن تاشفين عبد الرحمن ابن موسى ، وهكذا بدأت رحلة ابن بطوطة من أقصى الشمال الغربي (من طنجة) مخترقا الساحل الشمالي للمغرب العربي (المغرب ، الجزائر ، تونس ، ليبيا) الى أن وصل الاسكندرية (مصر) التي انطلقت منها رحلته الفعلية التي سجل أحداثها ، إذ زار بقية القرى والمدن المصرية ، وهو ما لم يفعله عندما مر بالجزائر وتونس وليبيا ، ثم رحل الى بلاد الشام ، فالحجاز ،

واليمن ، والصومال ، والبحرين ، والعراق ، وتركيا ، والقسطنطينية (قبل فتح الأتراك لها) ، وبلاد البلغار ، ثم بلاد القرم ، والهند ، فالصين ، كما زار جزر المالديف ، وسيلان ، وبلاد البنغال ، وأندنوسيا (جاوة وسومطرة) ، ثم عاد الى الصين مارا بسومطرة ومليبار ، ثم عمان ، وبلاد الفرس ، فالعراق (بغداد) ، وتدمر ، ثم بلاد الشام مرة أخرى ، الى أن وصل المغرب ، منهيا رحلته الأولى . وبعد أن مكث فترة من الزمن ، عاد مرة ثانية ليستأنف رحلته نحو الأندلس ، وكانت آنذاك تشهد نهاية أيام الاسلام فيها . ثم عاد الى المغرب، ليخرج منها في رحلته الثالثة ، متجها هذه المرة نحو الصحراء الكبرى ، مارا ببلاد الهجار الى مالي والنيجر وغانا . ومنها صعد الى مدينة أسوان بجنوب صعيد مصر .

قضى ابن بطوطة في رحلاته الثلاث حوالي ثلاثين سنة ، قطع خلالها ما يقدر بـ 175 ألف ميل ، وانتهت به الى الجلوس بمسجد بمدينة فاس يحدث الناس بما شاهد من العجائب والغرائب في القارات الثلاث (أوروبا ، آسيا ، إفريقيا) . وعندما سمع بذلك السلطان أبو عنان أمر كاتبه ابن جزى أن يسجل أحداث رحلة ابن بطوطة . وقد انتهى من تدوينها سنة 756 هجرية ،(1356 ميلادية) ، وأطلق عليها : «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» .

وقد ظلت رحلة ابن بطوطة موضع اهتمام عدد كبير من المستشرقين ، انتقدها بعضهم ، وأطراها البعض الآخر ، كما عمل عدد منهم على طبعها أو ترجمتها الى اللغات الأوروبية ، ومن هؤلاء (لي) الذي نقلها الى اللغة الانجليزية ، وطبعت في لندن سنة 1829 . ونقلها (ويفرليمر) و(سنكونيتي) الى الفرنسية ، وطبعت في باريس سنة 1853 وسنة 1859 في خمسة مجلدات ، وترجم (دي سلان) الجزء الخاص بالسودان الى اللغة الفرنسية ، وترجمها (مزيك) الى اللغة الألمانية سنة 1912 . وطبعت في

مصر طبعتين : الأولى سنة 1871 والثانية سنة 1904 .

ما أن بدأ ابن بطوطة يروي أخبار رحلته في مسجد فاس سنة 854 هجرية ، 1353 ميلادية عن تلك العجائب التي شهدها أو سمعها حتى بدأت شكوك كثير من الناس تحوم حول بعض ما قال ، وبخاصة حول أخباره العجيبة عن بلاد الهند وشرق أوروبا .

وكان أول من شك في أقوال ابن بطوطة العلامة عبد الرحمن ابن خلدون الذي عاصره ، وسمع عنه وعن بعض ما رواه من أنباء رحلاته ، كما كتب في مقدمته قائلا : «... ورد بالمغرب ، لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين ، رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة ، رحل من عشرين سنة قبلها الى المشرق ، وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل مدينة (دلهي) حاضرة ملك الهند» «... وكان يحدث عن دولة صاحب الهند ، ويأتي من أحواله بما يستغرب به السامعون ..» ويضيف «فتناجى الناس بتكذيبه» .

يرى بعض الباحثين المهتمين برحلة ابن بطوطة ، أن هضيه وكارهيه والحاقدين عليه ، قد ازداد كرههم له وحقدهم ، وتأججت الغيرة في نفوسهم من تلك المكانة التي نالها عند السلطان أبي عنان ، حتى جعلته يطلب اليه قطع رحلته ، والعودة الى تونس حيث أكرمه ، وخصص له راتبا ، بل وأمره بالجلوس في المسجد ليحدث الناس بأخباره ورحلته ، وكلف كاتبه ابن جزى ليقوم بتسجيل رحلة ابن بطوطة ، ولهذا كذبه عدد من الناس ، إلا أن ابن خلدون ينسب التكذيب الى الناس ولم ينسبه لنفسه .

ونجد من المشككين القدامى فيما جاء في رحلة ابن بطوطة ، مسجل الرحلة نفسه (ابن جزى) ، والبيلوني ، ملخص الرحلة ، وابن الخطيب ، ومن المحدثين نجد حسين فوزه ، وشوقي ضيف ، وعبد الله كنون وغيرهم .

وهناك عدد من الباحثين الذين أنصفوا ابن بطوطة ، منهم الروسي (كراتشوفسكي) الذي يرى - في ابن بطوطة - أنه لا يستغني عن الرجوع إليه أي باحث يود الخوض في تاريخ الأوردو - أي الهند - الذهبي وآسيا الوسطى ، ويصفه بأنه كان آخر جغرافي عالمي من الناحية العلمية ، فقد قطع في رحلاته 175 ألف ميل ، فهو بهذا يعد منافسا خطيرا لمعاصره الرحالة (ماركو بولو) البندقي ، بل ويرى (كراتشوفسكي) أن وصف ابن بطوطة لخط سير رحلته ، أدعى الى الثقة من (ماركو بولو) وأن ابن بطوطة كان لديه إحساس ذاتي بظروف حضارة العالم الذي يصفه أكثر مما كان لدى زميله المذكور .

ويرى الرحالة الألماني (سيتزن) أن أي سائح أوروبي يمكنه أن يفخر بأنه قضى من الزمان ما قضاه ابن بطوطة في البحث لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة ، وتحمل من مشاق الأسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة ...، إن ما جاء به من المعلومات الصحيحة عن جهات إفريقيا المجهولة لا يقل في فائدته عن معلومات (ليون الافريقي) ، بل إن ما كتبه عن الهند وجزيرة سرنديب من المعلومات المفيدة ما يدعو انجليز الهند الى قراءته ، فإن فيه ما يفيدهم في سياستهم .

ويقول الأستاذ محمود الشرقاوي في دراسته التحليلية عن رحلة ابن بطوطة : إن الشقات من العلماء ومن المؤرخين يشهدون لابن بطوطة بالصدق والأمانة والتوثيق .

ويرى الأستاذ أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى أنه من الصعب ، على الناقد العدل ، أن يقول عن ابن بطوطة أنه كذب متعمدا فيما رواه ، فإن أقواله تنم عن سذاجة في الطبع ، والمتصف بهذا يبعد عليه أن يعتمد الكذب ، أو يحاول الغش فيما يقول ...، إن رحالتنا كان يجتهد في تحري

الحقيقة ، ويشعر بأنه مأخوذ بما يقول ، وحسبه أن العلامة (دوزى) سماه «الرحالة الأمين» .

إن عذر ابن بطوطة ، في نسيانه ، أو في تضارب رواياته ، أو في مبالغته ، يعود الى الفترة الطويلة التي فصلت بين بدأ الرحلة والشروع في تسجيلها ، وهي فترة امتدت الى ما يقرب من ثلاثين سنة ، اعتمد في تسجيلها على الذاكرة ، بعد أن فقد أوراقه وأمواله في بلاد الهند .

عندما دخل ابن بطوطة مدينة القاهرة نجده يطلق عليها أوصافها رائعة منتقاة من جمل مسجوعة ، فهي كما يرى أم البلاد ، وقرارة فرعون ، ذي الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة ، وهي كثيرة العمارة ، متباهية بالحسن والنضارة ، وهو يرى أن «الضعيف» و«القادر» يستطيع أن يعيش فيها ، وأنها تجمع «الوارد والصادر» من الناس ، مصريين وعربا ، وغيرهم أيضا ، وأن تجد فيها العلماء الكبار ، والجهلة الكبار ، والجد والهزل ، والحليم والسفيه ، والشريف والمشروف ، والنبيه والوضيع ، تموج كالبحر لساكنيها ، وتكاد أن تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها ، فهي متجددة الشباب ، قاهرة الدول والممالك ، تملك سلاطينها نواص العرب والعجم .

ويذكر أن في القاهرة اثني عشر ألف سقاء ، يحملون الماء الى بيوت أهلها على الجمال ، وأن فيها ثلاثين ألف «مكاري» يحملون الناس والأثقال على الحمير ، وأن السفن التي تسير على نيلها بين الصعيد والاسكندرية ودمياط ست وثلاثون ألف . وأما المدارس فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها .

ويصف أهل القاهرة بأنهم أصحاب طرب ولهو وسرور ، يخرجون كثيرا الى منازهها وبساتينها .

وعندما وصف مدينة دمشق نجده يذكر حوانيتها الكثيرة التي تتوزع

بين الجوهريين وصانعي الزجاج والثياب والبزازين ، وهي تعكس مظاهر الثراء الكبير ، وارتفاع مستوى معيشة سكانها ، كما ذكر ابن بطوطة حوانيف الوراقين الذين يبيعون الأقلام والمداد والورق ، وينسخون الكتب ، وهي أيضا تعكس المستوى الرفيع من الحياة الفكرية والنشاط العلمي لسكان دمشق .

أما الأوقاف المحبوسة على دمشق فكثيرة ومتنوعة ، منها أوقاف على العاجزين عن الحج . ليحج منها عنهم آخرون ، ومنها أوقاف على تجهيز الفقيرات من البنات ، ومنها أوقاف لفك الأسرى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تمهيد الطرق ورصفها .

ويسجل ابن بطوطة كثيرا من عادات الناس في دمشق ، فهم محبون للخير ويجتهدون فيه ، وهم يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمزارات ، ويحسنون الظن بالغرباء ، وخاصة المغاربة ، ويعينونهم بالأموال والوظائف ، ومن أراد منهم طلب العلم أو التفرغ للعبادة أعانوه على ذلك ويسروه له .

وعندما دخل مدينة بغداد ، نجده قد لاحظ تخريب التتار لها وقد مضى عليه حوالي سبعين سنة ، فالخراب والتدمير ظاهر في كل مكان ، فابن بطوطة يصفها ويتحسر على ما أصابها وأصاب الاسلام والمسلمين والخلافة والخلفاء فيها على يد التتار، معتمدا على وصف ابن جبير لها قبله .

وصف ابن بطوطة مساجد بغداد ومدارسها وأسواقها وحماماتها ، فعلى الجانب الشرقي من بغداد تقع الأسواق الحافلة ، كل صناعة فيها تقع الى جانب ، والمدرسة النظامية المشهورة في تاريخ بغداد وتاريخ الفكر العربي ، والمدرسة المستنصرية العريقة ، وفي داخلها حمامات الطلبة . وفي

الرصافة قبور الخلفاء من الخليفة الهادي الى المستنصر الذي دخل التتار في عهده ، ثم قتلوه ، وبقتله انقطع اسم الخلافة العباسية .

زار ابن بطوطة ريف العراق ومدنه ، شمالا وجنوبا ، فلم يجد ما يزعجه ولا يرضاه ، ولم يشعر بأنه في بلاد غريبة عليه ، فمدنه وقراه كثيرة الزوايا والأربطة ، يقيم فيها طلبة العلم وينزل المسافر والمغترب والصنيف ، فيجد راحته وزاده وكساءه ، يقيم فيها المدة التي يرغبها ، فإذا تركها ، قدم إليه من المال ما يعينه على نفقات رحلته .

وتحدث ابن بطوطة عن المذاهب والفرق الدينية في العراق ، فالرافضة يقيمون على شاطىء الفرات ، غرب البصرة ، فرحين أهل البصرة من السنة ، ويختلط السنيون والرافضة في مدينة أصفهان ، وكانت تقوم بينهم الفتن والحروب . أما أهل الحلة فكلهم من الامامية الأثنى عشرية ، وكان أكثر أهل مشهد ، وقم ، والبحرين ، وقاشان ، وساوة ، وطوس ، من الروافض ، أما أهل بغداد فكان أكثرهم على مذهب أحمد بن حنبل ، وقبره في بغداد معظم ومبجل .

ويروي لنا ابن بطوطة أن بغداد ، رغم ما أصابها من تخريب التتار ، زهرة عامرة ، عليها طابع المدن الكبيرة العريقة ، يقوم على نهر الفرات جسران كبيران يصلان طرفيها ، ويعبرها الناس نهارا وليلا ، رجالا ونساء في نزهة متصلة .

ثم غادر ابن بطوطة العراق الى بلاد اليمن والبحرين ، ثم صعد نحو الشمال متجها الى بلاد الترك والقرم وبلغاريا وخوارزم ، وهو في كل ذلك يسجل مشاهداته من عادات وملابس ومأكل وحفلات زواج ، واحتفالات دينية وغيرها .

وعندما وصل الهند ، نجده يصفها وصفا دقيقا ، وكأننا فعلا في بلاد العجائب ، حتى أنه أفرد لها ربع مادة رحلته المسجلة ، ثم يتجه منها الى

بلاد الصين كسفير من قبل ملك الهند محمد شاه الى ملك الصين ، محملا بالهدايا الثمينة ، وقد ركب البحر خلال سفره مارا بجزر (ماليديف ، أو ذيبة المهل) التي يصفها بأنها إحدى عجائب الدنيا ، فهي تضم حوالي ألفي جزيرة ، تزوج فيها ابن بطوطة أربع نساء ، ومكث بها سنة ونصف السنة ، تولى خلالها وظيفة القضاء في عاصمتها (المهل) .

وصف أهلها بالحرص على النظافة حتى أنهم يغتسلون في اليوم مرتين ، لشدة الحر وكثرة العرق ، ويكثرون من التطيب بالعطر والصندل وغيرهما ، «... ومن عادتهم أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة الى زوجها أو إبنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية ، فيكحل عينيه ويدهن بماء الورد ودهن الغالية ، فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه ، ولباسهم فوط ، يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل ، ويضعون على ظهورهم ثيابا تشبه ثياب الاحرام ، وبعضهم يضع على رأسه عمامة ، وبعضهم منديلا صغيرا..» «... إن الطرق كلها تظللها الأشجار حتى كأنهم يسيرون في بستان متصل ومع ذلك لا بد لكل من يدخل الدار أن يغسل رجليه من الماء الذي في الزير - على باب الدار - ويمسحها بحصير غليظ من الليف يوضع هناك ، وكذلك يفعل كل من يدخل المسجد» .

ويصف ابن بطوطة أخلاق سكان جزر الماليديف بالدماثة والكرم ، ويسود بينهم الأمن ، حتى أنه ليس عندهم سجون .

ويواصل ابن بطوطة رحلته الى بلاد الصين ، ثم العودة الى المشرق العربي فتونس ، ثم يعود الى الرحلة مرة أخرى نحو الأندلس ، التي وجدها تشهد آخر أيام العرب والاسلام بها ، وينهي رحلته الثالثة والأخيرة الى بلاد السودان مارا بالصحراء الكبرى ، وببلاد الطوارق ، الذين قسا عليهم عندما وصفهم بالبخل وحدة الطباع ، ويبدو أنهم

عارضوا زواجه منهم ، كما كانت عادته في كل البلاد التي أقام فيها بعض الوقت .

وهكذا، تمتاز رحلة ابن بطوطة بالتنوع والاثارة والامتاع ، فهي ليست قصة طويلة مملة ، وليس مجرد وصف جغرافي للبلدان والطبيعة ، وليست تاريخا جافا يعتمد على سرد الحوادث ..، وإنما هي ثروة «اثنوجرافية» تضع أمام المهتم بثقافة وعادات شعوب ذلك العصر ، مادة اثنوجرافية هائلة ، استمر جمعها ابن بطوطة حوالي ثلاثين سنة ، يشاهد ، ويلاحظ ، ويعايش ، ويسمع .

يتفق أغلب الجغرافيين أن ابن بطوطة أفاد علم الجغرافيا في وصفه للبلدان والمسافات والمناخ والتضاريس والنباتات وغيرها ، كما أفاد المهتمين بالدارسات الاجتماعية والأنثروبولوجية فيما يتعلق بعادات وتقاليد وثقافات الشعوب التي عايشها ، خصوصا ونحن نعلم أنه أقام في بعض البلدان فترات طويلة ، وتقلد فيها وظائف سامية ، بل وتزوج فيها أكثر من امرأة .

وأخيرا ، لا بد أن نسجل هنا ، أن ابن بطوطة ، لم يكن رحالة بالمعنى الحديث للرحلة ، التي يقوم بها العلماء للدراسة العلمية لعادات وثقافات الشعوب ، وإنما هو (جوال) اكتفى بوصف ما شاهد ، وبالتالي كان يسجل كل شيء ، سواء سره ذلك الشيء ، أو أحزنه ، استفاد منه أم لم يستفد .

محمود السويدي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة ابن جزى كاتب السلطان

قال الشيخ الفقيه ، العالم الثقة النبيه ، الناسك الأبرُّ ، وفد الله المعتمر ، شرف الدين ، المعتمد في سياحته على رب العالمين ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجي ، والمعروف بابن بطوطة ، رحمه الله ورضي عنه بمنه وكرمه آمين .

الحمد لله الذي ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا ، وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاث نباتا واعادة واخراجا .

دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد ، وأرساها بالأعلام الراسيات والأطواد ، ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد ، وأطلع الكواكب هداية في ظلمات البر والبحر ، وجعل القمر نورا والشمس سراجا .

ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد الممات ، وأنبت فيها من كل الثمرات ، وفطر أقطارها بصنوف النبات ، وفجر البحرين عذبا فراتا وملحا أجاجا .

وأكمل على خلقه الانعام ، بتذليل مطايا الأنعام ، وتسخير المنشآت كالأعلام ، ليمتطوا من صهوة الفقر ومتن البحر أثباجا .

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أوضح للخلق منهاجا ، وطلع نور هدايته وهاجا .

بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، واختاره خاتما للنبيين ، وأمكن

صوارمه من رقاب المشركين ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا .

وأيده بالمعجزات الباهرات ، وأنطق بتصديقه الجمادات ، وأحيا بدعوته الرمم الباليات ، وفجر من بين أنامله ماء ثجاجا .

ورضي الله تعالى عن المتشرفين بالانتماء اليه أصحابا وآلا وأزواجا ، المقيمين قناة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا ، فهم الذين آزروه على جهاد الأعداء ، وظاهروه على اظهار الملة البيضاء ، وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصر والايواء ، واقتحموا دونه نار البأس حامية ، وخاضوا بحر الموت عجاجا .

ونستوهب الله تعالى لمولانا الامام الخليفة أمير المؤمنين ، المتوكل على رب العالمين ، المجاهد في سبيل الله ، المؤيد بنصر الله ، أبي عنان فارس ، ابن موالينا الأئمة المهتدين ، الخلفاء الراشدين ، نصرا يوسع الدنيا وأهلها ابتهاجا ، وسعدا يكون لزمانة الزمان علاجا ، كما وهبه الله بأسا وجودا لم يدع طاغيا ولا محتاجا ، وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجا .

وبعد فقد قضت العقول ، وحكم المعقول والمنقول، بأن هذه الخلافة العلية ، المجاهدة المتوكلية الفارسية ، هي ظل الله الممدود على الأنام ، وحبله الذي به الاعتصام ، وفي سلك طاعته يجب الانتظام ، فهي التي أبرأت الدين عند اعتلاله ، وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله ، وأصلحت الأيام بعد فسادها ، ونفقت سوق العلم بعد كسادها ، وأوضحت طرق البر عند انهاجها ،وسكنت أقطار الأرض عند ارتجاجها ، وأحيت سنن المكارم بعد مماتها ، وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها ، وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها ، ونقضت أحكام البغي عند استقلالها ، وشادت مباني الحق على عماد التقوى ، واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الأقوى ، فلها العز الذي عقد تاجه على مفرق الجوزاء ، والمجد الذي جر أذياله على مجرة السماء ، والسعد الذي رد على الزمان غض

شبابه ، والعدل الذي مد على أهل الايمان مديد أطنابه ، والجود الذي قطر سحابه اللجين والنضار ، والبأس الذي فيض غمامه الدم الموار ، والنصر الذي تفض كتائبه الأجل ، والتأييد الذي بعض غنائمه الدول ، والبطش الذي سبق سيفه العذل ، والأناة التي لا يَملُّ عندها الأمل ، والحزم الذي يسد على الأعداء وجوه المسارب ، والعزم الذي يفل جموعها قبل قراع الكتائب ، والحلم الذي يجني العفو من ثمر الذنوب ، والرفق الذي جمع على محبته بنات القلوب ، والعلم الذي يجلو نوره دياجي المشكلات ، والعمل المقيد بالاخلاص والأعمال بالنيات .

ولما كانت حضرته العلية مطمح الآمال ، ومسرح همم الرجال ، ومحط رحال الفضائل ، ومثابة أمن الخائف ومنية السائل ، توخى الزمان خدمتها ببدائع تحفه ، وروائع طرفه ، فانثال عليها العلماء انثيال جودها على الصفاة ، وتسابق اليها الأدباء تسابق عزماتها الى العداة ، وحج العارفون حرمها الشريف ، وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف ، ولجأ الخائفون الى الامتناع بعز جنابها ، واستجارت الملوك بخدمة أبوابها ، فهي القطب الذي عليه مدار العالم ، وفي القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم ، وعن مآثرها الفائقة يسند صحاح الآثار كل مسلم ، وباكمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم .

وفود ابن بطوطة على الخليفة

وكان ممن وفد على بابها السامي ، وتعدى أوشال البلاد الى بحرها الطامي ، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق ، جوال الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة ، المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين ، وهو الذي طاف الأرض معتبرا ، وطوى الأمصار مختبرا ،

وباحث فرق الأمم ، وسبر سير العرب والعجم ، ثم ألقى عصا التيسار بهذه الحضرة العليا ، لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثنيا ، وطوى المشارق الى مطلع بدرها بالغرب ، وآثرها على الأقطار ايثار التبر على الترب ، اختيارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ، ورغبة في اللحاق بالطائفة التي لا تزال على الحق ، فغمره من احسانه الجزيل ، وامتنانه الحفي الحفيل ، ما أنساه الماضي بالحال ، وأغناه عن طول الترحال ، وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه ، وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه ، فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد ، وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد ، ونفذت الاشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكرمن لقيه من ملوك الأقطار ، وعلمائها الأخيار ، وأوليائها الأبرار ، فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر ، من كل غريبة أفاد باجتلائها ، وعجيبة أطرف بانتحائها .

أمر ابن جزى بكتابة الرحلة

وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم ، المنقطع الى بابهم ، المتشرف بخدمة جنابهم ، محمد بن محمد بن جزى الكلبي ـ أعانه الله على خدمتهم ، وأوزعه شكر نعمتهم ـ أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك ، في تصنيف يكون على فوائده مشتملا ، ولنيل مقاصده مكملا ، متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه ، معتمدا ايضاحه وتقريبه ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ، ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف ، فامتثل ما أمر به مبادرا ، وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا .

ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله ، بألفاظ موفية للمقاصد التي

قصدها ، موضحة للمناحي التي اعتمدها . وربما أوردت لفظه على وضعه ، فلم أخل بأصله ولافرعه ، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار ، على أنه سلك في اسناد صحاحها أقوم المسالك ، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك ، وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون أنفع في التصحيح والضبط . وشرحت ما أمكنني شرحه من الأسماء العجمية . لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ، ويخطىء في فك مَعمّاها معهود القياس .

وأنا أرجو أن يقع ما قصدته من المقام العلي ـ أيده الله ـ بمحل القبول ، وأبلغ من الاغضاء عن تقصيري المأمول ، فعوائدهم في السماح جميلة ، ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة .

والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ، ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين .

ابتداء الرحلة من بلاد المغرب

قال الشيخ أبو عبد الله : كان خروجي من طنجة مسقط رأسي ، في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد ، عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، معتمدا حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفردا عن رفيق آنس بصحبته ، وركب أكون في جملته ، لباعث على النفس شديد العزائم ، وشوق الى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم . فجزمت أمري على هجر الأحباب من الاناث والذكور ، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور . وكان والداي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا ، وسني يومئذ اثنتان وعشرون سنة .

قال ابن جزى : أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجة ، في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد ، سنة ثلاث وسبعمائة .

وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين ، وناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الذي رويت أخبار جوده موصولة الأسناد بالاسناد ، وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الأشهاد ، وتحلت الأيام بحلى فضله ، ورتع الأنام في ظل رفقه وعدله : الامام المقدس أبو سعيد ، ابن مولانا أمير المؤمنين ، وناصر الدين ، الذي فل حد الشرك صدق عزائمه ،

وأطفأت نار الكفر جداول صوارمه : الامام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق ، جدد الله عليهم رضوانه ، وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحيا طلّه وتهتانه ، وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين ،وأبقى الملك في عقبهم الي يوم الدين . فوصلت مدينة تلمسان ، وسلطانها يومئذ أبو تاشفين ، عبدالرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان . ووافقت بها رسولي ملك افريقية ، السلطان أبي يحي رحمه الله ، وهما : قاضي الزواج بمدينة تونس ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن ابراهيم النفزاوي ، والشيخ الصالح ، أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي (بضم الزاي ، نسبة الى قرية بساحل المهدية) . وهو أحد الفضلاء ، وفاته عام أربعين .

وفي يوم وصولي الى تلمسان ، خرج عنها الرسولان المذكوران ، فأشار على بعض الاخوان بمرافقتها ، فاستخرت الله عز وجل في ذلك ، وأقمت بتلمسان ثلاثا في قضاء مآربي ، وخرجت أجد السير في آثارهما ، فوصلت مدينة مليانة وأدركتها بها ، وذلك في ابان القيظ ، فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرا ، ثم أوتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منهما ، فأقمنا ببعض المياه على مسافة أربعة أميال من مليانة ثلاثا ، وقضى القاضي نحبه ضحا اليوم الرابع ، فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدي الى مليانة فقبروه بها ، وتركتهم هنالك ، وارتحلت مع رفقة من تجار تونس، منهم الحاج مسعود بن المنتصر، والحاج العدولي ومحمد بن الحجر.

وصوله مدينة الجزائر

فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياما ، الى أن قدم الشيخ بو عبد الله وابن القاضي ، فتوجهنا جميعا على منبجه الى جبل الزان ، ثم وصلنا الى مدينة بجاية ، فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها : أبي عبد

الله الزواوي ، ونزل أبو الطيب ابن القاضي بدار الفقيه أبي عبد الله المفسر ، وكان أمير بجاية آنى ذاك أبا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب . وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة : محمد بن الحجر (الذي تقدم ذكره) وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب ، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر ، يعرف بابن حديدة ، ليوصلها الى ورثته بتونس ، فانتهى خبره لابن سيد الناس ، فانتزعها من يده ، وهذا أول ما شهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم . ولما وصلنا الى بجاية (كما ذكرته) أصابتني الحمى ، فأشار علي أبو عبد الله الزبيدي بالاقامة فيها حتى يتمكن البرء مني ، فأبيت وقلت : ان قضى الله عز وجل بالموت ، تكن وفاتي بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز . فقال لي : أما ان عزمت ، فبع دابتك وثقل المتاع ، وأنا أعيرك دابة وخباء ، وتصحبنا خفيفا ، فاننا نجد السير خوف غارة العرب في الطريق ، ففعلت هذا ، وأعارني ما وعد به جزاه الله خيرا . وكان ذلك أول ما ظهر لي من الألطاف الالهية ، في تلك الوجهة الحجازية .

وسرنا الى أن وصلنا الى مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها ، وأصابنا مطر جود ، اضطرنا الى الخروج عن الأخبية ليلا الى دور هنالك . فلما كان من الغد ، تلقانا حاكم المدينة (وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبي الحسن) ، فنظر الى ثيابي وقد لوثها المطر فأمر بغسلها في داره ، وكان الاحرام منها خلقا فبعث مكانه احراما بعلبكيا ، وصر في أحد طرفيه دينارين من الذهب ، فكان ذلك أول ما فتح به علي في وجهتي .

ورحلنا الى أن وصلنا مدينة بونة ، ونزلنا بداخلها ، وأقمنا بها أياما ، ثم تركنا بها من كان في صحبتنا من التجار ، لأجل الخوف في الطريق ، وتجردنا للسير ، وواصلنا الجد ، وأصابتني الحمى ، فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج ، خوف السقوط بسبب الضعف ، ولا يمكنني

النزول من الخوف ، الى أن وصلنا مدينةتونس ، فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي ، ولقاء أبي الطيب ابن القاضي أبي عبد الله النفزاوي ، فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم علي أحد لعدم معرفتي بهم ، فوجدت من ذلك في النفس ما لم املك معه سوابق العبرة ، واشتد بكائي ، فشعر بحالي بعض الحجاج ، فأقبل علي بالسلام والايناس ، وما زال يؤنسني بحديثه ، حتى دخلت المدينة ، ودخلت منها بمدرسة الكتبيين .

قال ابن جزى : أخبرني شيخي قاضي الجماعة ، أخطب الخطباء ، أبو البركات محمد ابن محمد بن ابراهيم السلمى ، هو ابن الحاج البلفيقى ، أنه جرى له مثل هذه الحكاية .. قال : قصدت مدينة بلش من بلاد الأندلس في ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبد الله ابن الكماد ،.وحضرت المصلى مع الناس ، فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام وأنا في ناحية لا يسلم علي أحد ، فقصد الي شيخ من أهل المدينة المذكورة وأقبل علي بالسلام والايناس ، وقال : نظرت اليك فرأيتك منتبذا عن الناس لا يسلم عليك أحد فعرفت أنك غريب فأحببت ايناسك ... جزاه الله خيرا .

ذكر سلطان تونس

وكان سلطان تونس ـ عند دخولي اليها ـ السلطان أبا يحي . ابن السلطان أبي زكريا يحي ، ابن السلطان أبي اسحق ابراهيم ، ابن السلطان أبي زكريا يحي ، بن عبد الواحد ، ابن أبي حفص رحمه الله . وكان بتونس جماعة من أعلام العلماء ، منهم قاضي الجماعة بها أبو عبد الله محمد ، ابن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الأنصاري الخزرجي البلنسي الأصل ، ثم التونسي ، هو ابن الغماز . ومنهم الخطيب

أبو اسحاق ابراهيم بن حسين بن علي بن عبد الرفيع الربعي ، وولى أيضا قضاء الجماعة في خمس دول . ومنهم الفقيه أبو علي عمر بن علي بن قداح الهواري ، وولى أيضا قضاءها ، وكان من أعلام العلماء . ومن عادته أنه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها الى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ، ويستفتيه الناس في المسائل ، فاذا أفتى في أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك .

وأظلني بتنوس عيد الفطر ، فحضرت المصلى ، وقد احتفل الناس لشهود عيدهم ، وبرزوا في أجمل هيئة وأكمل شارة ، ووافى السلطان أبو يحي راكبا ، وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم في ترتيب عجيب .

وصليت الصلاة ، وانقضت الخطبة ، وانصرف الناس الى منازلهم . وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخ يعرف بأبي يعقوب السوسي ، من أهل أقلى من بلاد افريقية ، وأكثره المصامدة ، فقدموني قاضيا بينهم .

وخرجنا من تونس في أواخر شهر ذي القعدة ، سالكين طريق الساحل ، فوصلنا الى بلدة سوسة ، وهي صغيرة حسنة ، مبنية على شاطىء البحر ، بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلا .

ثم وصلنا الى مدينة صفاقس (وبخارج هذه البلدة قبر الامام أبي الحسن اللخمي المالكي ، مؤلف كتاب التبصرة في الفقه) .

قال ابن جزى : في بلدة صفاقس يقول على ابن حبيب التنوخي :

سقيا لأرض صفاقس
ذات المصانع والمصلى
بلد يكاد يقول حيـ
ـن تزوره أهلا وسهلا

وكأنـــــــــــــه ـ والبحر يحسر
تـــــارة عنـــــه ويمـــــلا ـ
صب يريـــــــد زيـــــــارة
فـــــــاذا رأى الرقـــــــاء ولى

وفي عكس ذلك بقول الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبي تميم (وكان من المجيدين المكثرين) :

صفاقس لا صفا عيش لساكنها
ولا سقى أرضها غيث اذا انسكبا !
ناهيك من بلدة من حل ساحتها
عانى بها العادين : الروم والعربا
كم ضل في البر مسلوبا بضاعته
وبات في البحر يشكو الأسر والعطبا
قد عاين البحر من لؤم لقاطنها ،
فكلما هم أن يدنو لها هربا

وصف مدينة قابس

ثم وصلنا الى مدينة قابس ونزلنا بداخلها ، وأقمنا بها عشرا ، لتوالي نزول الأمطار .

قال ابن جزى : في ذكر قابس يقول بعضهم :

لهفي على طيب ليـــــــال خلت
بجـــــانب البطحـــــاء من قـــــابس
كأن قلبي عنـــــد تـــــذكارهـــــا
جـــــذوة نـــــار بيـــــد القـــــابس

ثم خرجنا من مدينة قابس ، قاصدين طرابلس ، وصحبنا في بعض

المراحل اليها نحو مائة فارس أو يزيدون ، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب ، وتحامت مكانهم ، وعصمنا الله منهم . وأظلنا عيد الأضحى في بعض تلك المراحل . .

وفي الرابع بعده وصلنا الى مدينة طرابلس ، فأقمنا بها مدة ، وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس ، فبنيت عليها بطرابلس . ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم ، من عام ستة وعشرين ، ومعي أهلي ، وفي صحبتي جماعة من المصامدة ، وقد رفعت العلم وتقدمت عليهم . وأقام الركب في طرابلس خوفا من البرد والمطر .

وتجاوزنا مسلاته ومسراته وقصور سرت ، وهنالك أرادت طوائف العرب الايقاع بنا ، ثم صرفتهم القدرة ، وحالت دون ما راموه من أذيتنا .

ثم توسطنا الغابة ، وتجاوزناها الى قصر برصيص العابد ، الى قبة سلام ، وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس . ووقع بيني وبين صهري مشاجرة أوجبت فراق بنته ، وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس ، وبنيت بها بقصر الزعافية ، وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم .

وصف مدينة الاسكندرية

ثم وصلنا في أول جمادي الأولى الى مدينة الاسكندرية حرسها الله . وهي الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان . بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين . كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها . فهي الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى في حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب . فكل

بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فإليها إنتهاؤها . وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا في عجائبها فأغربوا . وحسب المشرف الى ذلك ، ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك .

ذكر أبوابها ومرساها

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب : باب السدرة واليه يشرع طريق المغرب ، وباب رشيد ، وباب البحر ، والباب الأخضر (وليس يفتح الا يوم الجمعة فيخرج الناس منه الى زيارة القبور) . ولها المرسى العظيم الشأن ، ولم أر في مراسي الدنيا مثله ، الا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند ، ومرسى الكفار بسوداق ببلاد الأتراك ، ومرسى الزيتون ببلاد الصين ، وسيقع ذكرها .

ذكر المنار

قصدت المنار من هذه الوجهة ، فرأيت أحد جوانبه متهدما . وصفته أنه بناء مربع ذاهب في الهواء ، وبابه مرتفع على الأرض ، وازاء بابه بناء بقدر ارتفاعه ، وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها الى بابه ، فاذا أزيلت لم يكن له سبيل . وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار ، وداخل المنار بيوت كثيرة ، وعرض المر بداخله تسعة أشبار ، وعرض الحائط عشرةأشبار ، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرا . وهو على تل مرتفع ، ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد ، في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات الى أن يتصل البحر بسور البلد ، فلا يمكن التوصل الى المنار في البر الا من المدينة . وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الاسكندرية . وقصدت المنار عند عودتي الى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة ، فوجدته قد استولى عليه الخراب ،

بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود الى بابه . وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت عن اتمامه .

ذكر عمود السواري

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمى عندهم بعمود السواري . وهو متوسط في غابة نخل ، وقد امتاز عن شجاراتها سموا وارتفاعا . وهو قطعة واحدة محكمة النحت ، وقد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ، ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ، ولا يتحقق من وضعه .

قال ابن جزي : أخبرني بعض أشياخي الراحلين أن أحد الرماة بالاسكندرية صعد الى أعلى ذلك العمود ، ومعه قوسه وكنانته ، واستقر هنالك ، وشاع خبره ، فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته ، وطال العجب منه ، وخفي على الناس وجه احتياله ، وأظنه كان خائفا أو طالب حاجة ، فأنتج له فعله الوصول الى قصده ، لغرابة ما أتى به . وكيفية احتياله في صعوده ، أنه رمى بنشابة قد عقد بفوقها خيطا طويلا ، وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا ، فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ، ووقعت من الجهة الموازية للرامي ، فصار الخيط معترضا على أعلى العمود ، فجذبه حتى توسط الحبل أعلىالعمود مكان الخيط ، فأوثقه من احدى الجهتين في الأرض ، وتعلق به صاعدا من الجهة الأخرى ، واستقر بأعلاه وجذب الحبل ، واستصحب من اختمله ، فلم يهتد الناس لحيلته ، وعجبوا من شأنه .

وكان أمير الاسكندرية في عهد وصولي اليها ، يسمى بصلاح الدين ، وكان فيها أيضا في ذلك العهد سلطان افريقية المخلوع ، وهو زكريا أبو يحيي بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني، وأمر الملك الناصر

بانزاله بدار السلطنة من اسكندرية ، وأجرى له مائة درهم في كل يوم . وكان معه أولاده عبد الواحد ومصري واسكندري وحاجبه أبو زكريا بن يعقوب ، ووزيره أبو عبد الله ابن ياسين . وبالاسكندرية توفى اللحياني المذكور وولده الاسكندري ، وبقي المصري بها الى اليوم .

والمصري ، فمات الاسكندري بها ، وعاش المصري دهرا طويلا بها ، وهي من بلاد مصر .

وتحول عبد الواحد لبلاد الأندلس والمغرب وافريقية وتوفى هنالك بجزيرة جربة .

ذكر بعض علماء الاسكندرية

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندي امام من أئمة علم اللسان ، وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ، لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها . رأيته يوما قاعدا في صدر محراب ، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب ! ومنهم فخر الدين بن الريغي ، وهو أيضا من القضاة بالاسكندرية ، فاضل من أهل العلم .

حكاية الفأل الحسن

يذكر أن جد القاضي فخر الدين الريغي كان من أهل ريغة ، واشتغل بطلب العلم ، ثم رحل الى الحجاز ، فوصل الى الاسكندرية بالعشي ، وهو قليل ذات اليد ، فأحب ألا يدخلها حتى يسمع فألا حسنا ، فقعد قريبا من بابها ، الى أن دخل جميع الناس ، وجاء وقت سد الباب ، ولم يبق هنالك سواه ، فاغتاظ الموكل بالباب من ابطائه ، وقال متهكما : ادخل يا قاضي !

فقال : قاض ان شاء الله .

ودخل الى بعض المدارس ، ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء ، فعظم صيته وشهر اسمه ، وعرف بالزهد والورع ، واتصلت أخباره بملك مصر .

واتفق أن توفي قاضي الاسكندرية ، وبها أنى ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء ، وكلهم متشوف للولاية ، وهو من بينهم لا يتشوف لذلك ، فبعث اليه السلطان بالتقليد ، وأتاه البريد بذلك ، فأمر خادمه أن ينادي في الناس : من كانت له خصومة فليحضر لها .

وقعد للفصل بين الناس ، فاجتمع الفقهاء وسواهم الى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه ، وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره ، ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه . وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين ، فقال لهم : لا تفعلوا ذلك ، فاني عدلت طالع ولايته وحققته ، فظهر لي أنه يحكم أربعين سنة فأضربوا عما هموا به من المراجعة في شأنه ، وكان أمره على ما ظهر للمنجم ، وعرف في ولايته بالعدل والنزاهة . ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها ، مشتهر بالعلم والفضل . ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسي ، فاضل شهير الذكر . ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد اللهالفاسي ، من كبار أولياء الله تعالى ، يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه اذا سلم من صلاته . ومنهم الامام العالم الزاهد الخاشع الورع«خليفة» صاحب المكاشفات .

كرامة له

أخبرني بعض الثقات من أصحابه قال : رأى الشيخ خليفة رسول الله ﷺ في النوم ، فقال : يا خليفة زرنا . فرحل الى المدينة الشريفة ، وأتى المسجد الكريم ، فدخل من باب السلام ، وحيا المسجد وسلم على رسول الله ﷺ ، وقعد مستندا الى بعض سواري المسجد ، ووضع رأسه

على ركبتيه (وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق) . فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة ، وآنية فيها لبن ، وطبقا فيه تمر ، فأكل هو وأصحابه ، وانصرف عائدا الى الاسكندرية ، ولم يحج تلك السنة .

ومنهم الامام الزاهد الورع الخاشع ، برهان الدين الأعرج من كبار الزهاد ، وأفراد العباد ، لقيته أيام مقامي بالاسكندرية ، وأقمت في ضيافته ثلاثا .

ذكر كرامة له

دخلت عليه يوما ، فقال لي : أراكِ تحب السياحة والجولان في البلاد ، فقلت له : نعم اني أحب ذلك . ولم يكن حينئذ خطر بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال : لا بد لك ـ ان شاء الله ـ من زيارة أخي فريد الدين بالهند ، وأخي ركن الدين زكرياء بالسند ، وأخي برهان الدين بالصين . فاذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام .

فعجبت من قوله ، وألقى في روعي التوجه الى تلك البلاد . ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه . ولما ودعته زودني دراهم لم تزل عندي محوطة ، ولم أحتج بعد الى انفاقها ، الى أن سلبها مني كفارالهنود فيما سلبوه لي في البحر .

ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي من أفراد الرجال ، وهو تلميذ أبيالعباس المرسي ، وأبو العباس المرسي تلميذ ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي الشهير ، ذي الكرامات الجليلة والمقامات العالية .

كرامة لأبي الحسن الشاذلي

أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسي : أن أبا الحسن كان يحج في كل سنة ، ويجعل طريقه على صعيد مصر ، ويجاور بمكة

شهر رجب وما بعده الى انقضاء الحج ، ويزور القبر الشريف ، ويعود على الدرب الكبير الى بلده . فلما كان في بعض السنين - وهي آخر سنة خرج فيها - قال لخادمه : استصحب فأسا وقفة وحنوطا وما يجهز به الميت .

فقال له الخادم : ولماذا يا سيدي ؟

فقال له : في حميثرا سوف ترى .

وحميثرا في صعيد مصر في صحراء عيذاب ، وبها عين ماء زعاق وهي كثيرة الضباع . فلما بلغا حميثرا ، اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين ، وقبضه الله عز وجل في آخر سجدة من صلاته ، ودفن هناك . وقد زرت قبره رضي الله عنه .

ذكر حزب البحر المنسوب الى الشاذلي

كان يسافر في كل سنة - كما ذكرنا - على صعيد مصر وبحر جدة ، فكان اذا ركب السفينة يقرؤه في كل يوم ، وتلامذته الى الآن يقرؤونه في كل يوم . وهو هذا :

يا ألله يا علي يا عظيم ، يا حليم يا عليم ... أنت ربي ، وعلمك حسبي . فنعم الرب ربي ، ونعم الحسب حسبي . تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم .

نسألك العصمة في الحركات والسكنات ، والكلمات والارادات ، والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعا الغيوب ، فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، ليقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ...

فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى عليه السلام ، وسخرت النار لابراهيم عليه السلام ، وسخرت الجبال والحديد

لداود عليه السلام ، وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان عليه السلام ...

وسخر لنا كل بحر هو لك في الأرض والسماء ، والملك والملكوت ، وبحر الدنيا وبحر الآخرة ، وسخر لنا ملكوت كل شيء يا من بيده ملكوت كل شيء .

كهيعص ، حم عسق ، انصرنا فانك خير الناصرين ، وافتح لنا فانك خير الفاتحين ، واغفر لنا فانك خير الغافرين ، وارحمنا فانك خير الراحمين ، وارزقنا فانك خير الرازقين ، واهدنا ونجنا من القوم الظالمين ، وهب لنا ريحا طيبة كما هي في علمك ، وانشرها علينا من خزائن رحمتك ، واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة ، والعافية في الدين والدنيا والآخرة ، انك على كل شيء قدير .

اللهم يسر لنا أمورنا ، مع الراحة لقلوبنا وأبداننا ، والسلامة والعافية في ديننا ودنيانا ، وكن لنا صاحبا في سفرنا ، وخليفة في أهلنا ، واطمس على وجوه أعدائنا ، وامسخهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضي ولا المجيء الينا . ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون . ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون ...

يس . والقرآن الحكيم . انك لمن المرسلين على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثر فهم لا يؤمنون . انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون .

شاهت الوجوه .

وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما ...

طس ، طسم ، حم عسق ، مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ...

حم ، حم ، حم ، حم ، حم ، حم ، حم ...

حمّ الأمر وجاء النصر ، فعلينا لا ينصرون ...

حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير .

«بسم الله» بابنا ، «تبارك» حيطاننا، «يس» سقفنا ، «كهيعص» كفايتنا ، «حم عسق» حمايتنا ...

فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم .

ستر العرش مسبول علينا ، وعين الله ناظرة الينا ، بحول الله لا يقدر علينا . والله من ورائهم محيط ...

بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ...

فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ...

ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

فان تولوا فقل حسبي الله ، لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم .

ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حكاية مشاجرة بين التجار

ومما جرى بمدينة الاسكندرية سنة سبع وعشرين ، وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله : أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة ، وكان

والي الاسكندرية رجلا يعرف بالكركي ، فذهب الى حماية الروم ، وأمر بالمسلمين فحضروا بين فصيلى باب المدينة ، وأغلق دونهم الأبواب نكالا لهم ، فأنكر الناس ذلك وأعظموه ، وكسروا الباب ، وثاروا الى منزل الوالي ، فتحصن منهم ، وقاتلهم من أعلاه ، وطير الحمام بالخبر الى الملك الناصر ، فبعث أميرا يعرف بالجمالي ، ثم أتبعه أميرا يعرف بطوغان ، جبار قاسي القلب متهم في دينه ، يقال أنه كان يعبد الشمس ، فدخلا اسكندرية ، وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها ، كأولاد الكويك وسواهم ، وأخذا منهم الأموال الطائلة ، وجعلت في عنق عماد الدين القاضي جامعة حديد .

ثم ان الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا ، وجعلوا كل رجل قطعتين ، وصلبوهم صفين ، وذلك في يوم جمعة . وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور ، وشاهدوا مصارع القوم ، فعظمت حسرتهم ، وتضاعفت أحزانهم . وكان في جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر ، يعرف بابن رواحة ، وكان له قاعد معدة للسلاح ، فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة ، وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها . فزل لسانه وقال للأميرين : أنا أضمن هذه المدينة ، وكل ما يحدث فيها أطالب به ، وأكفي السلطان مرتبات العساكر والرجال . فأنكر الأميران قوله ، وقالا : انما تريد الثورة على السلطان ، وقتلاه . وانما كان قصده رحمه الله اظهار النصح ، والخدمة للسلطان ، فكان فيه حتفه .

وكنت سمعت أيام اقامتي بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع ، أبي عبد الله المرشدي ، وهو من كبار الأولياء : أنه منقطع بمنية بني مرشد ، له هنالك زاوية هو منفرد فيها ، لا خادم له ولا صاحب ، ويقصده الأمراء والوزراء ، وتأتيه الوفود من طوائف الناس في كل

يوم ، فيطعمهم الطعام . وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوى ، فيأتي لكل واحد بما نواه ، وربما كان ذلك في غير ابانه . ويأتيه الفقهاء لطلب الخطبة فيولى ويعزل ، وذلك كله من أمره مستفيض متواتر ، وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه . فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصدا هذا الشيخ نفعنا الله به .

وصوله الى تروجة

ووصلت قرية تروجة ، وهي على مسيرة نصف يوم من مدينة الاسكندرية ، قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ، ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة ، صحبت قاضيها صفي الدين وخطيبها فخرالدين ، وفاضلا من أهلها يسمى بمبارك وينعت بزين الدين . ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر ، يسمى عبدالوهاب ، وأضافني ناظرها زين الدين بن الواعظ ، وسألني عن بلدي وعن مجباه ، فأخبرته أن مجباه نحو اثني عشر ألفا من دينار الذهب ، فعجب وقال لي : رأيت هذه القرية ؟ فان مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهبا . وانما عظمت مجابي ديار مصر ، لأن جميع أملاكها لبيت المال .

وصف مدينة دمنهور

ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور ، وهي مدينة كبيرة ، جبايتها كثيرة ، ومحاسنها أثيرة ، أم مدن البحيرة بأسرها ، وقطبها الذي عليه مدار أمرها . وكان قاضيها في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية ، وتولى قضاء الاسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندي ، بسبب الواقعة التي قصصناها . وأخبرني الثقة أن ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم ـ وصرفها

من دنانير الذهب ألف دينار ـ على ولاية القضاء بالاسكندرية .

وصوله الى مدينة فوة

ثم رحلنا الى مدينة فوا . وهذه المدينة عجيبة المنظر ، حسنة المخبر ، بها البساتين الكثيرة ، والفوائد الخطيرة الأثيرة ، وبها قبر الشيخ الولي أبي النجاة الشهير الاسم ، خبير تلك البلاد .وزاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي ، الذي قصدته بقربة من المدينة يفصل بينها خليج هنالك . فلما وصلت المدينة ، تعديتها ووصلت الى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاةالعصر ، وسلمت عليه ، ووجدت عنده الأمير سيف الدين يلملك وهو من الخاصكية ، ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية . ولما دخلت على الشيخ (رحمه الله) قام الي وعانقني ، وأحضر طعاما فواكلني ، وكانت عليه جبة صوف سوداء ، فلما حضرت صلاة العصر قدمني للصلاة اماما ، وكذلك لكل ما حضرني عنده ـ حين اقامتي معه ـ من الصلاة . ولما أردت النوم قال لي : اصعد الى سطح الزاوية فنم هنالك (وذلك أوان القيظ) فقلت للأمير : باسم الله . فقال لي : «وما منا الا له مقام معلوم» . فصعدت السطح فوجدت به حصيرا ونطعا وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب ، فنمت هنالك .

كرامة لهذا الشيخ

رأيت ليلتي تلك ، وأنا نائم بسطح الزاوية ، كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة ، يتيامن ، ثم يشرق ، ثم يذهب في ناحية الجنوب ، ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق ، وينزل في أرض مظلمة خضراء ، ويتركني بها . فعجبت من هذه الرؤيا ، وقلت في نفسي : ان كاشفني الشيخ برؤياي ، فهو كما يحكى عنه .

فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني اماما لها ، ثم أتاه الأمير يلملك فودعه وانصرف ، وودعه من كان هناك من الزوار ، وانصرفوا أجمعين بعد أن زودهم كعيكات صغارا . ثم سبحت سبحة الضحا ، ودعاني وكاشفني برؤياي ، فقصصتها عليه ، فقال : سوف تحج وتزور النبي ﷺ ، وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند ، وتبقى بها مدة طويلة ، وستلقى بها أخي دلشاد الهندي ، ويخلصك من شدة تقع فيها . ثم زودني كعيكات ودراهم ، وودعته وانصرفت . ومنذ فارقته لم ألق في أسفاري الا خيرا ، وظهرت على بركاته ، ثم لم ألق فيمن لقيته مثله الا الولي سيدي محمدا الموله ، بأرض الهند .

وصوله الى مدينة النحرارية

ثم رحلنا الى مدينة النحرارية ، وهي رحبة الفناء حديثة البناء ، أسواقها حسنة الرواء . وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدي ، وولده في خدمة ملك الهند (وسنذكره) . وقاضيها صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية سفر عن الملك الناصر الى العراق وولي قضاء البلاد الغربية ، وله هيئة جميلة وصورة حسنة . وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصالحين .

وصوله الى مدينة ابيار

ورحلت منها الى مدينة ابيار ، وهي قديمة البناء ، أرجة الأرجاء ، كثيرة المساجد ، ذات حسن زائد . وهي بمقربة من النحرارية ، ويفصل بينهما النيل . وتصنع بأبيار ثياب حسان ، تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها . ومن الغريب قرب النحرارية منها ، والثياب التي تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها .

ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليحي الشافعي ، وهو كريم الشمائل كبير القدر. حضرت عنده مرة يوم الركبة (وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان) . وعادتهم فيه : أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي ، ويقف على الباب نقيب المتعممين ، وهو ذو شارة وهيئة حسنة ، فاذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك النقيب ، ومشى بين يديه قائلا : باسم الله ، سيدنا فلان الدين ! فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ، ويجلسه النقيب في موضع يليق به . فاذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعون ، وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان ، وينتهون الى موضع مرتفع خارج المدينة ، وهو مرتقب الهلال عندهم ، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش ، فينزل فيه القاضي ومن معه ، فيرتقبون الهلال ، ثم يعودون الى المدينة بعد صلاة المغرب ، وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس . ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ، ويصل الناس مع القاضي الى داره ، ثم ينصرفون . هكذا فعلهم في كل سنة .

وصف مدينة المحلة الكبيرة

ثم توجهت الى مدينة المحلة الكبيرة ، وهي جليلة المقدار ، حسنة الآثار ، كثير أهلها ، جامع بالمحاسن شملها . ولهذه المدينة قاضي القضاة ووالي الولاة . وكان قاضي قضاتها أيام وصولي اليها في فراش المرض ، ببستان له على مسافة فرسخين من البلد ، وهو عز الدين بن الأشمرين ، فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم بن بنون المالكي التونسي ، وشرف الدين الدميري قاضي محلة منوف . وأقمنا عنده يوما ، وسمعت منه ـ وقد جرى ذكر الصالحين ـ أن على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد

البرلس ونسترو ، وهي بلاد الصالحين ، وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات ، فقصدت تلك البلاد ، ونزلت بزاوية الشيخ المذكور .

وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار ، والطير البحري ، والحوت المعروف بالبوري . ومدينتهم تسمى ملطين ، وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر ، المعروفة ببحيرة تنيس ، ونسترو بمقربة منها . نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوي من الصالحين . وكانت تنيس بلدا عظيما شهيرا ، وهي الآن خراب .

قال ابن جزى : (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهمل)، واليه ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع ، وهو القائل في خليجها :

قم فاسقني والخليج مضطرب
والريح تثني ذوائب القصب
والجو في حلة ممسكة
طرزتها البروق بالذهب

ونسترو بفتح النون وإسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن .

والبرلس بباء موحدة وراء وآخره سين مهملة . وقيده بعضهم بضم حروفه الأول الثلاث وتشديد اللام ، وقيده أبو بكر بن نقطة بفتح الأولين . وهو على البحر .

ومن غريب ما اتفق ما حكاه أبو عبد الله الرازي ، عن أبيه ، أن قاضي البرلس - وكان رجلا صالحا - خرج ليلة الى النيل ، فبينما أسبغ الوضوء وصلى ما شاء أن يصلي اذ سمع قائلا يقول :

لولا رجال لهم سرد يصومونا
وآخرون لهم ورد يقومونا
لزلزت أرضكم من تحتكم سحرا
لأنكم قوم سوء لا تبالونا

قال : فتجوزت في صلاتي وأدرت طرفي فما وجدت أحدا ولا سمعت حسا ، فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى .

وصف مدينة دمياط

ثم سافرت في أرض رملة الى مدينة دمياط ، وهي مدينة فسيحة الأقطار ، متنوعة الثمار ، عجيبة الترتيب ، آخذة من كل حسن بنصيب .

ومدينة دمياط على شاطىء النيل ، وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء ، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها الى النيل . وشجر الموز بها كثير ، يحمل ثمره الى مصر في المراكب ، وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار ، ولهذا يقال في دمياط : سورها حلوى وكلابها غنم .

واذا دخلها أحد لم يكن له سبيل الى الخروج عنها الا بطابع الوالي : فمن كان من الناس معتبرا طبع له في قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به .

والطير البحري بهذه المدينة كثير متناهي السمن . وبها الألبان الجاموسية التي لا مثيل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق . وبها الحوت البوري يحمل منها الى الشام وبلاد الروم ومصر . وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ ، بها مسجد وزاوية ، لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل ، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الأخيار قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرا .

ودمياط هذه حديثة البناء ، والمدينة القديمة هي التي خربها الافرنج على عهد الملك الصالح ، وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوي ، قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية ، وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم . ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التكروري .

حكاية لحية الشيخ جمال الدين

يذكر أن السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوي الى حلق لحيته وحاجبيه أنه كان جميل الصورة حسن الوجه ، فعلقت به امرأة من أهل ساوة ، وكانت تراسله وتعارضه في الطرق ، وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون . فلما أعياها أمره دست له عجوزا تصدت له ازاء دار على طريقه الى المسجد وبيدها كتاب مختوم . فلما مر بها قالت له : يا سيدي ، أتحسن القراءة ؟

قال : نعم .

قالت له : هذا الكتاب وجهه الي ولدي وأحب أن تقرأه علي .

فقال لها : نعم .

فلما فتح الكتاب قالت له : يا سيدي ، أن لولدي زوجة ، وهي بأسطوان الدار ، فلو تفضلت بقراءته بين بابي الدار بحيث تسمعها ! فأجابها لذلك .

فلما توسط بين البابين أغلقت العجوز البابْ وخرجت المرأة وجواريها فتعلقن به وأدخلنه الى داخل الدار ، وراودته المرأة عن نفسه . فلما رأى أن لا خلاص له قال لها : اني حيث تريدين . فأريني بيت الخلاء ، فأرته أياه ، فأدخل معه الماء ، وكانت عنده موسى حديدة ، فحلق لحيته وحاجبيه ، وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت باخراجه ، وعصمه الله بذلك ، فبقى على هيئته فيما بعد ، وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه .

كرامة هذا الشيخ

يذكر أنه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها ، وكان بها قاض يعرف بابن العميد ، فخرج يوما الى جنازة بعض الأعيان ، فرأى الشيخ جمال

الـدين بالمقبـرة ، فقال له : أنت الشيـخ المبتـدع !

فقال له : وأنت القاضي الجاهل ! تمر بـدابتـك بين القبور ، وتعلم أن حرمة الانسان ميتا كحرمته حيا .

فقال له القاضي : وأعظم من ذلك حلقك للحيتك !

فقال له : اياي تعني ؟

وزعق الشيخ ثم رفع رأسه ، فاذا هو ذو لحيـة سوداء عظيمـة . فعجب القاضي ومن معه ، ونزل اليه عن بغلته . ثم زعق ثانية فـاذا هو ذو لحيـة بيضاء حسنة ، ثم زعق ثالثة ورفع رأسه فاذا هو بلا لحية كهيئته الأولى . فقبل القاضي يده ، وتتلمذ لـه ، وبنى لـه زاويـة حسنـة ، وصحبـه أيـام حياته ، ثم مات الشيخ فدفن بزاويته .

ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية ، حتى يكون كل داخل الى زيارة الشيخ يطأ قبره .

وبخارج دمياط المزار المعروف بشطـا ، وهو ظـاهر البركـة ، يقصـده أهل الديار المصرية ، وله أيام في السنة معلومة لذلك .

وبخارجها أيضـا بين بسـاتينهـا موضع يعرف بـالمنيـة ، فيـه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان ، قصدت زاويته وبت عنده .

وكان بـدميـاط ، أيـام اقـامتي بهـا ، وال يعرف بـالحسني ، من ذوي الاحسـان والفضل ، بنى مـدرسـة على شـاطىء النيل ، بهـا كان نزولي في تلك الأيام ، وتأكدت بيني وبينه مودة .

فارسكور وأشمون وممنود

ثم سافرت الى مدينـة فـارسكور ، وهي مـدينـة على سـاحل النيل ، ونزلت بخارجهـا ، ولحقني هنـاك فـارس وجهـه الي الأمير الحسني ، فقـال لي : أن الأمير سأل عنـك وعرف بسيرتـك ، فبعث اليـك بهـذه النفقـة .

ودفع الـي جملـة دراهـم ، جـزاه الله خيـرا .

ثم سافرت الى مدينة أشمون الرمان ، ونسبت الى الرمان لكثرته بها ، ومنها يحمل الى مصر . وهي مـدينـة عتيقـة كبيرة ، على خليج من خلج النيل ، ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها ، فـاذا كان العصر رفعت تلك الخشب ، وجازت المراكب صاعدة ومنحـدرة . وبهـذه البلـدة قـاضي القضاة ووالي الولاة .

ثم سافرت عنها الى مدينـة سمنود ، وهي على شـاطىء النيل ، كثيرة المراكب ، حسنة الأسواق ، وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ . ومن هـذه المـدينـة ركبت النيـل مصعـدا الى مصر ، مـا بين مـدائن وقرى منتظمة ، متصل بعضها ببعض .

ولا يفتقر راكب النيل الى استصحـاب الـزاد ، لأنـه مهما أراد النزول للشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلـك . والأسواق متصلـة من مـدينـة الاسكنـدريـة الى مصر ، ومن مصر الى مـدينـة أسـوان من الصعيد .

وصـف مصـر

ثم وصلت الى مـدينـة مصر . وهي أم البـلاد ، وقرارة فرعـون ذي الأوتاد ، ذات الأقـاليم العريضـة ، والبلاد الأريضـة ، المتنـاهيـة في كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضـارة ، مجمع الوارد والصـادر ، ومحـط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهـازل ، وحليم وسفيـه ، ووضيـع ونبيـه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها . شبابهـا يجـد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قـاهرتهـا الأمم ، وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم . ولها خصوصيـة النيل التي

جل خطرها ، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها . وأرضها مسيرة شهر لمجد السير ، كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة .

قال ابن جزى : وفيها يقول الشاعر :

لعمرك مـــــا مصر بمصر وإنمـــــا
هي الجنـــة الـــدنيـــا لمن يتبصر
فـأولادهـا الـولـدان والحـور عينهـا
وروضتهـــا الفردوس والنيـل كـــوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شـــــاطىء مصر جنـــــة مـــا مثلهـــا من بلـــد
لا سيما مـــــذ زخرفت بنيلهـــــا المطرد
وللريـــاح فـــوقـــه ســـوابـــغ من زرد
مسرودة مـــا مسهـــا داودهـــا بمبرد
والفلـــك كالأفلاك بين حـــادر ومصعـــد

ويقـال أن بمصر من السقـائين على الجمـال اثنى عشر ألف سقـاء ، وأن بهـا ثـلاثين ألف مكار ، وأن بنيلهـا من المراكب ستـة وثـلاثين ألفـا للسلطـان والرعيـة ، تمر صـاعـدة الى الصعيـد ومنحـدرة الى الاسكنـدريـة ودميـاط بـأنـواع الخيرات والمرافق .

وعلى ضفة النيـل مما يـواجـه مصر الموضـع المعروف بـالروضـة ، وهـو مكان النزهـة والتفرج ، وبـه البسـاتين الكثيرة الحسنة .

بها مزة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يـده ، فزين كل أهل سوق سوقهم ، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثيـاب الحرير ، وبقوا على ذلك أياما .

ذكر مسجد عمرو بن العاص
والمدارس والمارستانات والزوايا

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر، شهير الذكر، تقام فيه الجمعة، والطريق يعترضه من شرق الى غرب. وبشرقه الزاوية، حيث كان يدرس الامام أبو عبد اللهالشافعي.

وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها.

وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم.

وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة. والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف. ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب. ومن عاداتهم في الطعام أنه يأتي خادم الزاوية الى الفقراء صباحا، فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام ،فاذا اجتمعوا للأكل، جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه في اناء على حدة لا يشاركه فيه أحد. وطعامهم مرتان في اليوم، ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف، ومرتب شهري من ثلاثين درهما للواحد في الشهر الى عشرين ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمام، والزيت للاستصباح. وهم أعزاب، وللمتزوجين زوايا على حدة. ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية. واجتماعهم بقبة داخل الزاوية. ومن عاداتهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به. واذا صلوا صلاة الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة، فيأخذ كل فقير جزءا ويختمون القرآن ويذكرون.

ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر .

ومن عاداتهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية ، فيقف به مشدود الوسط ، وعلى كاهله سجادة ، وبيمناه العكاز ، وبيسراه الابريق ، فيعلم البواب خادم الزاوية بمكانه ، فيخرج اليه ويسأله من أي البلاد أتى ؟ وبأي الزوايا نزل في طريقه ؟ ومن شيخه ؟ فاذا عرف صحة قوله ، أدخله الزاوية وفرش له سجادته في موضع يليق به ، وأراه موضع الطهارة ، فيجدد الوضوء ، ويأتي الى سجادته فيحل وسطه ويصلي ركعتين ، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم .

ومن عاداتهم أنه اذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم ، فيذهب بها الى المسجد ، ويفرشها لهم هنالك ، ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم ، فيأتون المسجد ، ويصلي كل واحد على سجادته . فاذا فرغوا من الصلاة قرءوا القرآن على عادتهم ، ثم ينصرفون مجتمعين الى الزاوية ومعهم شيخهم .

ذكر قرافة مصر ومزاراتها

ولمصر القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها ، وقد جاء في فضلها أثر أخرجه القرطبي وغيره ، لأنها من جملة الجبل المقطم الذي وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة . وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة . ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ، ويبنون بها البيوت ، ويرتبون القراء يقرءون ليلا ونهارا بالأصوات الحسان . ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة الى جانب التربة ، ويخرجون في كل ليلة جمعة الى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ، ويطوفون على المزارات الشهيرة ، ويخرجون أيضا للمبيت بها ليلة النصف من شعبان ،

ويخـرج أهـل الأسـواق بصنـوف المآكـل .

ومن المزارات الشريفـة ، المشهـد المقـدس العظيم الشـأن ، حيث رأس الحسين بن علي عليهما السلام ، وعليـه ربـاط ضخم عجيب البنـاء ، على أبوابه حلق الفضة وصفائحها ، وهو موفى الحق من الاجلال والتعظيم .

ومنهـا تربـة السيـدة نفيسـة بنت الحسن الأنـور بن زيـد بن علي بن الحسين بن علي ، عليهم السـلام . وكانت مجـابـة الـدعـوة ، مجتهـدة في العبـادة . وهـذه التربـة أنيقـة البنـاء ، مشرقـة الضيـاء ، عليهـا رباط مقصود .

ومنها تربـة الامـام أبي عبـد الله محمـد بن ادريس الشـافعي رضي الله عنـه ، وعليهـا ربـاط كبير ، ولهـا جرايـة ضخمـة . وبهـا القبـة الشهيرة البديعة الاتقان ، العجيبة البنيان ، المتنـاهيـة الاحكام ، المفرطـة السمو ، وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا .

وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين مـا لايضبطـه الحصر ، وبهـا عـدد جم من الصحـابـة وصـدور السلف والخلف رضي الله تعـالى عنهم ، مثـل : عبـد الرحمن بن القـاسم ، وأشهب بن عبـد العـزيـز ، وأصبغ بن الفرج ، وابنى عبـد الحكم ، وأبي القـاسم بن شعبـان ، وأبي محمـد عبـد الوهاب . لكن ليس لهم بها اشتهـار ، ولايعرفهم الا من لـه بهم عنـايـة . والشافعي رضي الله عنه ساعده الجد في نفسه وأتباعه وأصحابه في حيـاتـه ومماته ، فظهر من أمره مصداق قوله :

الجـد يـدني كل أمر شـاسـع
والجـد يفتـح كل بـاب مغلـق

ذكـر نيـل مصـر

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مـذاق ، واتسـاع قطر ، وعظم

منفعة . والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ، ليس في المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدرع على النيل ، وليس في الأرض نهر يسمى بحرا غيره .

قال الله تعالى : «فاذا خفت عليه فألقيه في اليم» . فسماه يما وهو البحر .

ومجرى النيل من الجنوب الى الشمال ، خلافا لجميع الأنهار . ومن عجائبه أن ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها ، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها . ونهر السند مثله في ذلك (وسيأتي ذكره) . وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه ، فاذا بلغت زيادته ست عشر ذراعا تم خراج السلطان ، فان زاد ذراعا كان الخصب في العام ، والصلاح التام ، فان بلغ ثماني عشرة ذراعا أضر بالضياع ، وأعقب الوباء ، وإن نقص ذراعا عن ست عشرة نقص خراج السلطان ، وان نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد .

والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار ، وهي : النيل ، والفرات ، والدجلة ، وسيحون ، وجيحون . وتماثلها أنهار خمسة أيضا : نهر السند ويسمى بنج آب ، ونهر الهند ويسمى الكنك ، واليه تحج الهنود ، واذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه ، ويقولون : هو من الجنة . ونهر الجون بالهند أيضا ، ونهر اتل بصحراء قفجق ، وعلى ساحله مدينة السرا ، ونهر السرو بأرض الخطا ، وعلى ضفته مدينة خان بالق ، ومنها ينحدر الى مدينة الخنساء ، ثم الى مدينة الزيتون بأرض الصين . (وسيذكر ذلك كله في مواضعه ان شاء الله) . والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها الا في السفن شتاء وصيفا ، وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل ، فاذا أمد ترعها فاضت على المزارع .

ذكر الأهرام والبرابي

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور ، وللناس فيها كلام كثير ، وخوض في شأنها وأولية بنائها . ويزعمون أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ، ويسمى أخنوخ ، وهو ادريس عليه السلام ، وأنه أول من تكلم في الحركات الفلكية ، والجواهر العلوية ، وأول من بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها ، وأنه أنذر الناس بالطوفان ، وخاف ذهاب العلم ودروس الصناعات ، فبنى الأهرام والبرابي ، وصور فيها جميع الصناعات والآلات ، ورسم العلوم فيها ، لتبقى مخلدة .

ويقال أن دار العلم والملك بمصر مدينة منف ، وهي على بريد من الفسطاط . فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس اليها ، وصارت دار العلم والملك ، الى أن أتى الاسلام ، فاختط عمرو بن العاص رضي الله عنه مدينة الفسطاط ، فهي قاعدة مصر الى هذا العهد .

وصف الأهرام

والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت ، متناهي السمو ، مستدير ، متسع الأسفل ، ضيق الأعلى كالشكل المخروط ، ولا أبواب لها ، ولا تعلم كيفية بنائها . ومما يذكر في شأنها أن ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان ، رأى رؤيا هالته ، وأوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربي من النيل ، لتكون مستودعا للعلوم ولجثث الملوك ، وأنه سأل المنجمين : هل يفتح منها موضع ؟ فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالي، وعينوا له الموضع الذي تفتح منه، ومبلغ الانفاق في فتحه، فأمر أن يجعل ذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه أنه ينفق في فتحه . واشتد في البناء فأتمه في ستين سنة ، وكتب عليها : بنينا هذه الأهرام في

ستين سنة ، فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة ، فان الهدم أيسر من البناء .

فلما أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها ، فأشار عليه بعض مشايخ مصر ألا يفعل ، فلج في ذلك ، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي ، فكانوا يوقدون عليها النار ، ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق ، حتى فتحت الثلمة التي بها الى اليوم . ووجدوا بازاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه ، فحصر ما أنفق في النقب فوجدهما سواء فطال عجبه من ذلك ، ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا .

ذكر سلطان مصر

وكان سلطان مصر على عهد دخولي اليها الملك الناصر أبو الفتح محمد ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي . وكان قلاوون يعرف بالألفي لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهبا ، وأصله من قفجق .

وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة ، والفضائل العظيمة . وكفاه شرفا إنتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين ، وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج ، من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء ، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين : المصري والشامي . وبنى زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة . لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، وكهف الفقراء والمساكين ، خليفة الله في أرضه ، القائم من الجهاد بنفله وفرضه ، أبو عنان (أيد الله أمره وأظهره ، وسنى له الفتح المبين ويسره) بخارج حضرته العلية ، المدينة البيضاء حرسها الله ، لا نظير لها في المعمور ، في اتقان الوضع ، وحسن البناء والنقش في الجص ، بحيث لا يقدرأهل المشرق على مثله . وسيأتي ذكر ما عمره ـ أيده الله ـ من المدارس

والمارستانات والزوايا ببلاده ، حرسها الله وحفظها بدوام ملكه .

ذكر بعض أمراء مصر

منهم ساقي الملك الناصر ، وهو الأمير بكتمور ، وهو الذي قتله الملك الناصر بالسم (وسيذكر ذلك) .

ومنهم نائب الملك الناصر أرغون الدوادار ، وهوالذي يلي بكتمور في المنزلة .

ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر ، وكان من خيار الأمراء ، وله الصدقات الكثيرة على الأيتام ، من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن . وله الاحسان العظيم للحرافيش ، وهم طائفة كبيرة ، أهل صلابة وجوه ودعارة . وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ، ووقفوا بأسفل القلعة ، ونادوا بلسان واحد : يا أعرج النحس ! (يعنون الملك الناصر) أخرجه . فأخرجه من محبسه ، وسجنه مرة أخرى ، ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه .

ومنهم وزير الملك الناصر ، يعرف بالجمالي . ومنهم بدر الدين بن البابه . ومنهم جمال الدين نائب الكرك . ومنهم تقزدمور . ومنهم بهادر الحجازي . ومنهم قوصون . ومنهم بشتك . وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات ، وبناء المساجد والزوايا .

ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه ، القاضي فخر الدين القبطي ، وكان نصرانيا من القبط ، فأسلم وحسن اسلامه . وله المكارم العظيمة ، والفضائل التامة ، ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر ، وله الصدقات الكثيرة والاحسان الجزيل .

ومن عادته أن يجلس عشى النهار في مجلس له بأسطوان داره على النيل ، ويليه المسجد ، فاذا حضر المغرب صلى في المسجد ، وعاد الى

مجلسه ، وأتى بالطعام ، ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان ، فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ، ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين ، واسمه لؤلؤ ، بأن يصحبه الى خارج الدار ، وهنالك خازنه ومعه صرر الدراهم ، فيعطيه ما قدر له . ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ، ويقرأ بين يديه كتاب البخاري ، فاذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه .

ذكر القضاة بمصر في عهد دخولي اليها

فنهم قاضي القضاة الشافعية ، وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا ، واليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم ، وهو القاضي الامام العالم بدر الدين ابن جماعة . وابنه عز الدين هو الآن متولي ذلك .

ومنهم قاضي القضاة المالكية الامام الصالح تقى الدين الأخنائي .

ومنهم قاضي القضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريري ، وكان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكانت الأمراء تخافه . ولقد ذكر لي أن الملك الناصر قال يوما لجلسائه : اني لا أخاف أحدا الا شمس الدين الحريري .

ومنهم قاضي القضاة الحنبلية ، ولا أعرفه الآن ، الا أنه كان يدعى بعز الدين .

حكايـة الملك الناصر يقعد للمظالم

كان الملك الناصر ، رحمه الله ، يقعد للنظر في المظالم ، ورفع قصص المتشكين ، كل يوم اثنين وخميس ، ويقعد القضاة الأربعة عن يساره ، وتقرأ القصص بين يديه ، ويعين من يسأل صاحب القصة عنها . وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة في الجلوس قاضي

الشافعية ، ثم قاضي الحنفية ، ثم قاضي المالكية ، ثم قاضي الحنبلية . فلما توفي شمس الدين الحريري وولي مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفي ، أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكي فوقه ، وذكروا أن العادة جرت بذلك قديما ، اذ كان قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف يلي قاضي الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد . فأمر الملك الناصر بذلك . فلما علم به قاضي الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك . فأنكر الملك الناصر مغيبه ، وعلم ما قصده ، فأمر باحضاره ، فلما مثل بين يديه ، أخذ الحاجب بيده وأقعده ، حيث نفذ أمر السلطان ، مما يلي قاضي المالكية ، واستمر حاله على ذلك .

ذكر بعض علماء مصر وأعيانها

فمنهم شمس الدين الأصبهاني ، امام الدنيا في المعقولات . ومنهم شرف الدين الزواوي المالكي . ومنهم برهان الدين ابن بنت الشاذلي ، نائب قاضي القضاة بجامع الصالح . ومنهم ركن الدين بن القويع التونسي ، من الأئمة في المعقولات . ومنهم شمس الدين بن عدلان ، كبير الشافعية . ومنهم بهاء الدين بن عقيل ، فقيه كبير . ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد ابن يوسف بن حيان الغرناطي ، وهو أعلمهم بالنحو . ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفي . ومنهم برهان الدين الصفاقسي . ومنهم قوام الدين الكرماني ، وكان سكناه بأعلى سطح الجامع الأزهر ، وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ، ويدرس فنون العلم ، ويفتي في المذاهب ، ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ، ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر الى مواضع الفرج والنزهات منفردا عن أصحابه . ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء . ومنهم شيخ شيوخ القراء بديار مصر ، مجد الدين

الأقصرائي (نسبة الى أقصرا من بلاد الروم) ومسكنه سرياقص . ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائي (والحويزة على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة) . ومنهم نقيب الأشراف بديار مصر ، السيد الشريف المعظم ، بدر الدين الحسيني ، من كبار الصالحين . ومنهم وكيل بيت المال ، المدرس بقبة الامام الشافعي ، مجد الدين بن حرمي . ومنهم المحتسب بمصر ، نجم الدين السهرتي ، من كبار الفقهاء ، وله بمصر رياسة عظيمة وجاه .

ذكر يوم المحمل بمصر

وهو يوم دوران الجمل ، يوم مشهود . وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة ، ووكيل بيت المال ، والمحتسب ، وقد ذكرنا جميعهم ، ويركب معهم أعلام الفقهاء ، وأمناء الرؤساء ، وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر ، فيخرج اليهم المحمل على جمل ، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاءون على جمالهم . ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل (وجميع من ذكرنا معه) بمدينتي القاهرة ومصر ، والحداة يحدون أمامهم . ويكون ذلك في رجب . فعند ذلك تهيج العزمات ، وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث ، ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده ، فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد .

سفره الى الصعيد

ثم كان سفري من مصر على طريق الصعيد ، برسم الحجاز الشريف ، فبت ليلة خروجي بالرباط الذي بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير

الطين . وهو رباط عظيم ، بناه على مفاخر عظيمة ، وآثار كريمة أودعها اياه ، وهي قطعة من قصعة رسول الله ﷺ ، والميل الذي كان يكتحل به ، والاشفي الذي كان يخصف به نعله ، ومصحف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي بخط يده رضي الله عنه . ويقال ان الصاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية ، بمائة ألف درهم .

وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر ، والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة (نفعه الله تعالى بقصده المبارك) .

ثم خرجت من الرباط المذكور ، ومررت بمنية القائد ، وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل ، ثم سرت منها الى مدينة بوش . وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا ، ومنها يجلب الى سائر الديار المصرية والى افريقية .

ثم سافرت منها فوصلت الى مدينة دلاص ، وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا ، كمثل التي ذكرنا قبلها ، ويحمل أيضا منها الى ديار مصر وإفريقية .

ثم سافرت منها الى مدينة ببا .

ثم سافرت منها الى مدينة البهنسا ، وهي مدينة كبيرة ، وبساتينها كثيرة ، وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة . وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين ، وهو كريم النفس فاضل . ولقيت بهاالشيخ الصالح أبا بكر العجمي ، ونزلت عنده وأضافني .

ثم سافرت منها الى مدينة منية ابن خصيب ، وهي مدينة كبيرة الساحة ، متسعة المساحة ، مبنية على شاطىء النيل ، وحق لها على بلاد الصعيد التفضيل . بها المدارس والمشاهد ، والزوايا والمساجد ، وكانت في القديم منية عامل مصر الخصيب .

حكايـة خصيـب

يذكر أن أحد الخلفاء من بني العبـاس رضي الله عنهم غضب على أهل مصر ، فآلى أن يولي عليهم أحقر عبيـده وأصغرهم شـأنـا ، قصـدا لاذلالهم والتنكيل بهم . وكان خصيب أحقرهم اذ كان يتولى تسخين الحمام ، فخلع عليه وأمره على مصر ، وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ، ويقصدهم بالأذية لما هو المعهود ممن ولي عن غير عهد بالعز . فلما استقر خصيب بمصر ، سار في أهلهـا أحسن سيرة ، وشهر بـالكرم والايثـار ، فكان أقـارب الخلفـاء وسواهم يقصدونـه فيجزل العطـاء لهم ، ويعودون الى بغـداد شـاكرين لما أولاهم . وان الخليفة افتقد أحد العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه ، فسألـه عن مغيبه ، فأخبره أنه قصد خصيبا ، وذكر له ما أعطـاه خصيب (وكان عطاء جزيلا) فغضب الخليفة وأمر بسمل عيني خصيب واخراجه من مصر الى بغداد ، وأن يطرح في أسواقها . فلما ورد الأمر بالقبض عليـه ، حيل بينه وبين دخول منزله ، وكانت بيـده يـاقوتـة عظيـمة الشـأن ، فخبـأهـا عنده ، وخاطها في ثوب له ليلا . وسملت عيناه وطرح في أسواق بغداد ، فمر به بعض الشعراء ، فقال له : يا خصيب اني كنت قصدتك من بغـداد إلى مصر مـادحـا لـك بقصيـدة ، فـوافقت انصرافـك عنهـا ، وأحب أن تسمعها .

فقال : كيف بسماعها وأنا على ما تراه ؟

فقال : انمـا قصـدي سماعـك لهـا ، وأمـا العطـاء فقـد أعطيت النـاس وأجزلت ، جزاك الله خيرا .

قال : فافعل .

فأنشده :

أنت الخصيب وهـــــــــــذه مصر
فتـــــــدفقـــــــا فكـــــــلاكما بحر

فلما أتى على آخرها قال له : افتق هذه الخياطة !

ففعل ذلك ، فقال له : خذ الياقوتة !

فأبى ، فأقسم عليه أن يأخذها ، فأخذها وذهب بها الى سوق الجوهريين ، فلما عرضها عليهم قالوا له : ان هذه لا تصلح الا للخليفة . فرفعوا أمرها الى الخليفة ، فأمر الخليفة باحضار الشاعر ، واستفهمه عن شأن الياقوتة ، فأخبره بخبرها ، فتأسف على ما فعله بخصيب ، وأمر بمثوله بين يديه ، وأجزل له العطاء ، وحكمه فيما يريد ، فرغب أن يعطيه هذه المنية ، ففعل ذلك ، وسكنها خصيب الى أن توفي وأورثها عقبه الى أن انقرضوا .

وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي اليها فخر الدين النويري المالكي ، وواليها شمس الدين ، أمير خير كريم .

دخلت يوما الحمام بهذه البلدة ، فرأيت الناس لا يستترون ، فعظم ذلك علي ، وأتيته فأعلمته بذلك ، فأمرني ألا أبرح ، وأمر باحضار المكترين للحمامات ، وكتبت عليهم العقود : أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر ، فانهم يؤاخذون على ذلك ، واشتد عليهم أعظم الاشتداد .

منلوى ومنفلوط

ثم انصرفت عنه وسافرت من منية بن خصيب الى مدينة منلوى ، وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل ، وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميري الشافعي . وكبارها قوم يعرفون ببني فضيل ، بنى أحدهم جامعا أنفق فيه صميم ماله . وبهذه المدينة احدى عشرة معصرة للسكر ، ومن عاداتهم أنهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها ، فيأتي الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها ، ثم يخرجها وقد امتلأت سكرا ، فينصرف بها .

وسافرت من منلوى الى مدينة منفلوط ، وهي مدينة حسن رواؤها ، مونق بناؤها على ضفة النيل ، شهيرة البركة .

حكاية منبر الملك الناصر

أخبرني أهل هذه المدينة : أن الملك الناصر ، رحمه الله ، أمر بعمل منبر عظيم ، محكم الصنعة ، بديع الانشاء ، برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما . فلما تم عمله ، أمر أن يصعد به في النيل ، ليجاز الى بحر جدة ، ثم الى مكة شرفها الله . فلما وصل المركب الذي احتمله الى منفلوط ، وحاذى مسجدها الجامع ، وقف وامتنع من الجري ، مع مساعدة الريح ، فعجب الناس من شأنه أشد العجب ، وأقاموا أياما لا ينهض بهم المركب ، فكتبوا بخبره الى الملك الناصر رحمه الله ، فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ، ففعل ذلك ، وقد عاينته بها .

ويصنع بهذه المدينة شبه العسل ، يستخرجونه من القمح ، ويسمونه النيدا ، يباع بأسواق مصر .

مدينة أسيوط

وسافرت من هذه المدينة الى مدينة أسيوط ، وهي مدينة رفيعة ، أسواقها بديعة .

وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب «بحاصل ما ثم» (لقب شهر به) . وأصله أن القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل ، فاذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضي بها فيعطيه ما قدر له ، فكان هذا القاضي اذا أتاه الفقير يقول له : حاصل ما ثم ! (أي لم يبق من المال الحاصل شيء) ، فلقب بذلك ولزمه .

وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين بن الصباغ ، أضافني بزاويته .

مدينة اخميم

وسافرت منها الى مدينة اخميم ، وهي مدينة عظيمة أصيلة البنيان ، عجيبة الشأن ، بها «البربي» المعروف باسمها . وهو مبني بالحجارة ، في داخله نقوش وكتابة للأوائل ، لا تفهم في هذا العهد ، وصور الأفلاك والكواكب ، ويزعمون أنها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب . وبها صور الحيوانات وسواها ، وعند الناس في هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها .

وكان باخميم رجل يعرف بالخطيب ، أمر بهدم هذه البرابي ، وابتنى بحجارتها مدرسة ، وهو رجل موسر معروف باليسار ، ويزعم حساده أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابي .

ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر ، وبها تربة جده عبد الظاهر . وله من الاخوة ناصر الدين ، ومجد الدين ، وواحد الدين . ومن عاداتهم أن يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ، ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده ، وقاضي المدينة الفقيه مخلص ، وسائر وجوه أهلها فيجتمعون للقرآن ، ويذكرون الله ، الى صلاة العصر ، فاذا صلوها قرءوا سورة الكهف ثم انصرفوا .

وسافرت من اخميم الى مدينة «هو» مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) . نزلت منها بمدرسة تقي الدين بن السراج ، ورأيتهم يقرءون بها في كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ، ثم يقرءون أوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، وحزب البحر .

وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسني ، من كبار الصالحين .

ذكر كرامـة له

دخلت الى هـذا الشريف متبركا برؤيتـه والسلام عليه ، فسألني عن قصدي ، فأخبرتـه أني أريـد حج البيت الحرام على طريق جـدة ، فقـال لي : لا يحصل لك هنا في هذا الوقت فأرجع ، وانما تحج أول حجـة على الدرب الشامي . فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه ، ومضيت في طريقي حتى وصلت عيـذاب ، فلم يمكن السفر ، فعـدت راجعـا الى مصر ، ثم الى الشام ، وكان طريقي في أولْ حجـاتي على الـدرب الشـامي ، على مـا أخبرني الشريف نفع الله به .

مديـنة قنـا

ثم سافرت الى مـدينـة قنـا ، وهي صغيرة حسنـة الأسواق ، وبهـا قبر الشريف الصالح الولي ، صـاحب البراهين العجيبـة ، والكرامـات الشهيرة عبد الرحيم القناوي رحمة الله عليه . ورأيت بالمدرسة السيفية منها حفيده شهاب الدين أحمد .

وسافرت من هذا البلد الى مدينة قوص ، مدينة عظيمة ، لهـا خيرات عميـة ، بسـاتينهـا مورقـة ، وأسـواقهـا مـونقـة ، ولهـا المسـاجـد الكثيرة ، والمـدارس الأثيرة . وهي منزل ولاة الصعيـد ، وبخـارجهـا زاويـة الشيخ شهـاب الـدين ابن عبـد الغفـار ، وزاويـة الأفرم ، وبهـا اجتماع الفقراء المتجردين في شهر رمضان من كل سنة .

ومن علمائها القـاضي جمـال الـدين بن السـديـد ، والخطيب بهـا فتح الدين بن دقيق العيد ، أحد الفصحاء البلغـاء الـذين حصل لهم السبق في ذلك ، لم أر من يماثلـه الا خطيب المسجـد الحرام بهـاء الـدين الطبري ، وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطبي (وسيقع ذكرهما) .

ومنهم الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز ، المدرس بمدرسة المالكية .

ومنهم الفقيه برهان الدين ابراهيم الأندلسي ، له زاوية عالية .

ثم سافرت الى مدينة الأقصر . وهي صغيرة حسنة ، وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الأقصري ، وعليه زاوية .

وسافرت منها الى مدينة أرمنت . وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل ، أضافني قاضيها (وأنسيت اسمه) .

ثم سافرت منها الى مدينة أسنا . مدينة عظيمة ، متسعة الشوارع ، ضخمة المنافع ، كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع ، لها أسواق حسان ، وبساتين ذات أفنان . قاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن مسكين ، أضافني وأكرمني وكتب الى نوابه باكرامي .

وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور الدين علي ، والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسي ، وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص .

ثم سافرت منها الى مدينة أدفو ، وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة في الصحراء .

ثم جزنا النيل من مدينة أدفو الى مدينة العطواني ، ومنها الى اكترينا الجمال ، وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم ، في صحراء لا عمارة بها ، الا أنها آمنة السبل .

وفي بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر ولي الله أبي الحسن الشاذلي ، وقد ذكرنا كرامته في أخباره أنه يموت بها . وأرضها كثيرة الضباع . ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ، ولقد قصدت رحلي ضبع منها فمزقت عدلا كان به ، واجترت منه جراب تمر ، وذهبت به ، فوجدناه لما أصبحنا ممزقا ، مأكولا معظم ما كان فيه .

ثم لما سرنا خمسة عشر يوما ، وصلنا الى مدينة عيذاب ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ، ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر . وأهلها البجاة ، وهم سود الألوان يلتحفون ملاحف صفرا ، ويشدون على

رؤوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها اصبعا . وهم لا يورثون البنات ،و طعامهم ألبان الابل ، ويركبون المهاري ويسمونها الصهب :

وثلث المدينة للملك الناصر ، وثلثها للملك البجاة وهو يعرف بالحدربي .

وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني ، شهير البركة ، رأيته وتبركت به . وبها الشيخ الصالح موسى ، والشيخ المسن محمد المراكشي ، زعم أنه ابن المرتضي ملك مراكش ، وأن سنه خمس وتسعون سنة .

ولما وصلنا الى عيذاب ، وجدنا الحدربي سلطان البجاة يحارب الأتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه ، فتعذر سفرنا في البحر . فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد ، وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم الى صعيد مصر ، فوصلنا الى مدينة قوص التي تقدم ذكرها .

عودته الى شمال مصر

وانحدرنا منها في النيل ، وكان أوان مده ، فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص الى مصر . فبت بمصر ليلة واحدة ، وقصدت بلاد الشام ، وذلك في منتصف شعبان سنة ست وعشرين ، فوصلت الى مدينة بلبيس وهي مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ، ولم ألق بها من يجب ذكره .

ثم وصلت الى الصالحية ، ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها ـ مثل السوادة والورادة والمطيلب والعريش والخروبة ـ وبكل منزل منها فندق ، وهم يسمونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابهم . وبخارج كل خان ساقية للسبيل ، وحانوت يشتري منه المسافر ما يحتاج اليه لنفسه ودابته .

ومن منازلها قطيا المشهورة ، والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث . وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ، ويبحث عما لديهم أشد البحث . وفيها الدواوين والعمال ، والكتاب والشهود ، ومجباها في كل

يوم ألف دينار من الذهب . ولا يجوز عليها أحد من الشام الا ببراءة من مصر ، ولا الى مصر الا ببراءة من الشام ، احتياطا على أموال الناس ، وتوقيا من الجواسيس العراقيين .

وطريقها في ضمان العرب ، وقد وكلوا بحفظه ، فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ، ثم يأتي الأمير صباحا فينظر الى الرمل ، فان وجد به أثرا طالب العرب باحضاره مؤثره ، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء .

وكان بها في عهد وصولي اليها عز الدين أستاذ الدار اقماري ، من خيار الأمراء ، أضافني وأكرمني ، وأباح الجواز لمن كان معي . وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف . وهو يعرف المغاربة وبلادهم ، فيسأل من ورد منهم من أي البلاد هو لئلا يلبس عليهم ، فان المغاربة لا يعترضون في جوازهم على قطيا .

دخول الشام ووصف مدنه

ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة غزة ، وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر ، متسعة الأقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، بها المساجد الكثيرة ، والأسوار عليها ، وكان بها مسجد جامع حسن . والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها ، بناه الأمير المعظم الجاولي ، وهو أنيق البناء ، محكم الصنعة ، ومنبره من الرخام الأبيض .

وقاضي غزة بدر الدين السلختي الحوراني ، ومدرسها علم الدين بن سالم . وبنو سالم كبراء هذه المدينة . ومنهم شمس الدين قاضي القدس .

ثم سافرت من غزة الى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم . وهي مدينة صغيرة الساحة ، كبيرة المقدار ، مشرقة الأنوار ، حسنة المنظر ، عجيبة الخبر ، في بطن واد . ومسجدها أنيق الصنعة ، محكم

العمل ، بديع الحسن ، سامي الارتفاع ، مبني بالصخر المنحوت ، في أحد أركانه صخرة ، أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرا . ويقال : أن سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه .

وفي داخل المسجد الغاز المكرم المقدس ، فيه قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب صلوات الله على نبينا وعليهم . ويقابلها قبور ثلاثة ، هي قبور أزواجهم .

وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل ، الى مسلك ضيق ، يفضي الى ساحة مفروشة بالرخام ، فيها صور القبور الثلاثة ، ويقال انها محاذية لها .

وكان هنالك مسالك الى الغار المبارك وهو الآن مسدود . وقد نزلت بهذا الموضع مرات . ومما ذكره أهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ، ما نقلته من كتاب علي بن جعفر الرازي ، الذي سماه «المسفر للقلوب ، عن صحة قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب» ، أسند فيه الى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لما أسرى بي الى بيت المقدس ، مر بي جبريل على قبر ابراهيم ، فقال : انزل فصل ركعتين ، فان هنا قبر أبيك ابراهيم . ثم مر بي على بيت لحم وقال : انزل فصل ركعتين ، فان هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام ، ثم أتى بي الى الصخرة (وذكر بقية الحديث) .

ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الامام الخطيب برهان الدين الجعبري ، أحد الصلحاء المرضيين ، والأئمة المشهورين ، سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك ، فقال لي : كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور ابراهيم واسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام ، وقبور زوجاتهم . ولا يطعن في ذلك الا أهل البدع ، وهو نقل الخلف عن السلف ، لا يشك فيه .

ويذكر أن بعض الأئمة دخل الى هذا الغار ووقف عند قبر سارة ، فدخل شيخ فقال له : أي هذه القبور هو قبر ابراهيم ؟ فأشار له الى قبره المعروف ، ثم دخل شاب فسأله كذلك ، فأشار له اليه ، ثم دخل صبي فسأله أيضا ، فأشار له اليه ، فقال الفقيه : أشهد أن هذا قبر ابراهيم عليه السلام لا شك ، ثم دخل الى المسجد فصلى به ، وارتحل منَ الغد .

وبداخل هذا المسجد أيضا قبر يوسف عليه السلام ، وبشرقي حرم الخليل تربة لوط عليه السلام ، وهي على تل مرتفع يشرف منه على غور الشام ، وعلى قبره أبنية حسنة ، وهو في بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه .

وهنالك بحيرة لوط ، وهي أجاج ، يقال انها موضع ديار قوم لوط .

وبقربة من تربة لوط مسجد اليقين ، وهو على تل مرتفع ، له نور واشراق ليس لسواه ، ولا يجاوره الا دار واحدة ، يسكنها قيّمه .

وفي المسجد بقربة من بابه ، موضع منخفض ، في حجر صلد ، قد هيىء فيه صورة محراب ، لا يسع الا مصليا واحدا . ويقال أن ابراهيم سجد في ذلك الموضع شكرا لله تعالى عند هلاك قوم لوط فتحرك موضع سجوده وساخ في الأرض قليلا .

وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي عليها السلام . وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام ، في أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع .

«بسم الله الرحمن الرحيم ، لله العزة والبقاء ، وله ما ذرأ وبرأ ، وعلى خلقه كتب الفناء ، وفي رسول الله أسوة» .

«هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضي الله عنه» .

وفي اللوح الآخر منقوش :

«صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر» .

وتحت ذلك هذه الأبيات :

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه
بالرغم مني بين الترب والحجر
ياقبر فاطمة، بنت ابن فاطمة
بنت الأئمة ، بنت الأنجم الزهر
ياقبر، مافيك من دين ومن ورع
ومن عفاف ومن صون ومن خفر ؟

ثم سافرت من هذه المدينة الى القدس ، فزرت في طريقي اليه تربة يونس عليه السلام ، وعليها بنية كبيرة ومسجد .

وزرت أيضا بيت لحم ، موضع ميلاد عيسى عليه السلام ، وبه أثر جذع النخلة ، وعليه عمارة كثيرة ، والنصارى يعظمونه أشد التعظيم ، ويضيفون من نزل به .

ثم وصلنا الى بيت المقدس شرفه الله ، ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل ، ومصعد رسول الله ﷺ تسليما ومعرجه الى السماء . والبلدة كبيرة منيفة ، مبنية بالصخر المنحوت . وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب ـ جزاه الله عن الاسلام خيرا ـ لما فتح هذه المدينة ، هدم بعض سورها ، ثم أتم الملك الظاهر هدمه ، خوفا أن يقصدها الروم فيمتنعوا بها . ولم يكن في هذه المدينة نهر فيما تقدم . وجلب لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين تنكيز أمير دمشق .

ذكر المسجد المقدس

وهو من المساجد العجيبة الرائقة ، الفائقة الحسن ، يقال : أنه ليس له على وجه الأرض مسجد أكبر منه ، وان طوله من الشرق الى الغرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية ، وعرضه من القبلة الى

الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا ، وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث ، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها الا بابا واحدا ، وهو الذي يدخل منه الامام . والمسجد كله فضاء غير مسقوف إلاّ المسجد الأقصى فهو مسقوف ، في النهاية من احكام العمل واتقان الصنعة ، مموه بالذهب والأصبغة الرائقة ، وفي المسجد مواضع سواه مسقوفة .

ذكر قبة الصخرة

وهي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلا ، قد توافر حظها من المحاسن ، وأخذت من كل بديعة بطرف . وهي قائمة على نشز في وسط المسجد يصعد اليها في درج رخام ، ولها أربعة أبواب ، والدائر بها مفروش بالرخام أيضا ، محكم الصنعة ، وكذلك داخلها . وفي ظاهرها وباطنها من أنواع التزويق ، ورائق الصنعة ما يعجز الواصف ، وأكثر ذلك مغشى بالذهب . فهي تتلألأ نورا ، وتلمع لمعان البرق ، يحار بصر متأملها في محاسنها ، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها .

وفي وسط القبة الصخرة الكريمة ، التي جاء ذكرها في الآثار ، فان النبي ﷺ عرج منها الى السماء . وهي صخرة صماء ، ارتفاعها نحو قامة ، وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير ، ارتفاعها نحو قامة أيضا ، ينزل اليها على درج . وهنالك شكل محراب . وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل ، يغلقان عليها ، أحدهما ـ وهو الذي يلي الصخرة ـ من حديد بديع الصنعة، والثاني من خشب، وفي القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك، والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف

فمنها بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم ، في شرقي البلد ، على تل

مرتفع هنالك ، بنية يقال أنها مصعد عيسى عليه السلام الى السماء . ومنها أيضا قبر رابعة البدوية (منسوبة الى البادية) ، وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة .

وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى ، ويقولون ان قبر مريم عليها السلام بها . وهناك أيضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى ، ويعتقدون أن قبر عيسى عليه السلام بها . وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين . وهناك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به .

ذكر بعض فضلاء القدس

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزيّ ، وهو من أهل غزة وكبرائها .

ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسي .

ومنهم المحدث المفتي شهاب الدين الطبري .

ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة ، أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي ، نزيل القدس .

ومنهم الشيخ الزاهد أبو علي حسن المعروف بالمحجوب ، من كبار الصالحين .

ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغي .

ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى ، من أهل أرز الروم ، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي ، صحبته ولبست منه خرقة التصوف .

ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان . وهو خراب قد عاد رسوما طامسة ، وأطلالا دارسة . وقل بلد جمع من المحاسن

ما جمعته عسقلان : اتقانا وحسن وضع وأصالة مكان ، وجمعا بين مرافق البر والبحر . وبها المشهد الشهير ، حيث كان رأس الحسين بن علي عليه السلام قبل أن ينقل الى القاهرة . وهو مسجد عظيم سامي العلو ، فيه جب للماء ، أمر ببنائه بعض العبيديين (وكتب ذلك على بابه) .

وفي قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر ، لم يبق منه الا حيطانه ، وفيه أساطين رخام لا مثل لها في الحسن ، وهي ما بين قائم وحصيد . ومن جملتها اسطوانة حمراء عجيبة ، يزعم الناس أن النصارى احتملوها الى بلادهم ثم فقدوها ، فوجدت في موضعها بعسقلان . وفي القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر ابراهيم عليه السلام ينزل اليها في درج متسعة ، ويدخل منها الى بيوت ، وفي كل جهة من جهاتها الأربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة ، وماؤها عذب وليس بالغزير ، ويذكر الناس من فضائلها كثيرا .

وبظاهر عسقلان وادي النمل ، ويقال : أنه المذكور في الكتاب العزيز .

وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء ما لا يحصر لكثرته ، أوقفنا عليهم قيّم المزار المذكور . وله جراية يجريها له ملك مصر ، مع ما يصل اليه من صدقات الزوار .

مدينة الرملة

ثم سافرت منها الى مدينة الرملة (وهي فلسطين) . مدينة كبيرة ، كثيرة الخيرات ، حسنة الأسواق ، وبها الجامع الأبيض ، ويقال ان في قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين ، عليهم السلام .

وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسي .

مدينة نابلس وعجلون

ثم خرجت منها الى مدينة نابلس ، وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار ، مطردة الأنهار ، من أكثر بلاد الشام زيتونا ، ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق . وبها تصنع حلواء الخروب ، وتجلب الى دمشق وغيرها .

وكيفية عملها أن يطبخ الخروب ، ثم يعصر ، ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء . ويجلب ذلك الرب أيضا الى مصر والشام . وبها البطيخ المنسوب اليها ، وهو طيب عجيب .

والمسجد الجامع في نهاية من الاتقان والحسن ، وفي وسطه بركة ماء عذب .

ثم سافرت منها الى مدينة عجلون ، وهي مدينة حسنة ، لها أسواق كثيرة ، وقلعة خطيرة ، ويشقها نهر ماؤه عذب .

اللاذقية والقصير وعكة

ثم سافرت منها بقصد اللاذقية ، فمررت بالغور ، وهو واد بين تلال ، به قبر أبي عبيدة ابن الجراح ، أمين هذه الأمة ، رضي الله عنه . زرناه ، وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل . وبتنا هنالك ليلة .

ثم وصلنا الى القصير ، وبه قبر معاذ بن جبل رضي الله عنه ، تبركت أيضا بزيارته .

ثم سافرت على الساحل ، فوصلت الى مدينة عكة وهي خراب . وكانت عكة قاعدة بلاد الافرنج بالشام ، ومرسى سفنهم . وتشبه قسطنطينية العظمى . وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر ، يقال أن الله تعالى أخرج منها البقر لآدم عليه السلام ، وينزل اليها في درج ،وكان عليها مسجد بقي منه محرابه . وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام .

وصف مدينة صور

ثم سافرت منها الى مدينة صور. وهي خراب، وبخارجها قرية معمورة. وأكثر أهلها أرفاض. ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء، فأتى بعض أهل القرية ليتوضأ، فبدأ بغسل رجليه، ثم غسل وجهه، ولم يتمضمض، ولا يستنشق، ثم مسح رأسه. فأخذت عليه في فعله. فقال لي: ان البناء انما يكون ابتداؤه من الأساس!

ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها. ولها بابان: أحدهما للبر، والثاني للبحر. ولبابها الذي يشرع للبر أربع فصلات، كلها في ستائر محيطة بالباب. وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين.

وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأناً منه، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، وعلى الجهة الرابعة سور، تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك. وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة، لا سبيل الى الداخل هنالك ولا الى الخارج، الا بعد حطها. وكان عليها الحراس والأمناء، فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج الا على علم منهم. وكان لعكة أيضاً ميناء مثله، ولكنه لم يكن يحمل الا السفن الصغار.

مدينة صيداء وطبرية

ثم سافرت منها الى مدينة صيداء. وهي على ساحل البحر، حسنة كثيرة الفواكه، يحمل منها التين والزبيب والزيت الى بلاد مصر. نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصري، وهو حسن الأخلاق كريم النفس.

ثم سافرت منها الى مدينة طبرية. وكانت فيما مضى مدينة كبيرة

ضخمة ، ولم يبق منها الا رسوم تنبىء عن ضخامتها وعظم شأنها ، وبها الحمامات العجيبة : لها بيتان أحدهما للرجال والثاني للنساء ، ومُاؤها شديد الحرارة .

ولها البحيرة الشهيرة ، وطولها نحو ستة فراسخ ، وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ .

وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء ، فيه قبر شعيب عليه السلام وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام ، وقبر سليمان عليه السلام ، وقبر يهوذا ، وقبر روبيل ، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم ، وقصدنا منها زيارة الجب الذي ألقي فيه يوسف عليه السلام ، وهو في صحن مسجد صغير ، وعليه زاوية . والجب كبير عميق ، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر ، وأخبرنا قيّمه أن الماء ينبع منه أيضا .

مدينة بيروت

ثم سرنا الى مدينة بيروت . وهي صغيرة حسنة الأسواق ، وجامعها بديع الحسن ، وتجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد ، وقصدنا منها زيارة أبي يعقوب يوسف ، الذي يزعمون أنه من ملوك المغرب . وهو بموضع يعرف بكرك نوح ، من بقاع العزيز . وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر ، ويقال أن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف ، وقيل السلطان نور الدين . وكان من الصالحين ، ويذكر أنه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها .

حكاية أبي يعقوب يوسف المذكور

يحكى أنه دخل مدينة دمشق ، فمرض بها مرضا شديدا ، وأقام مطروحا بالأسواق . فلما برىء من مرضه خرج الى ظاهر دمشق ليلتمس

بستانا يكون حارسا لـه ، فـاستؤجر لحراسـة بستـان للملـك نور الـدين . وأقام في حراسته ستة أشهر . فلما كان في أوان الفـاكهـة أتى السلطـان الى ذلك البستان . وأمر وكيل البستان أبا يعقوب أن يأتي برمان يأكل منـه السلطان ، فأتاه برمان فوجده حامضا . فأمر أن يأتى بغيره ، ففعل ذلك فوجده أيضا حامضا ...

فقال له الوكيل : أتكون في حراسة هذا البستان منـذ ستـة أشهر ولا تعرف الحلو من الحامض ؟

فقال : انما استأجرني على الحراسة لا على الأكل !

فأتى الوكيل الى الملك فأعلمه بذلك ، فبعث اليه الملك (وكان قد رأى في المنام أنـه يجتمع مع أبي يعقوب وتحصل لـه منـه فـائـدة) ، فتفرس أنـه هو ، فقال له :

أنت أبو يعقوب ؟

قال : نعم .

فقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبـه ، ثم احتملـه الى مجلسـه فـأضـافـه بضيافة من الحلال المكتسب بكد يمينه .

وأقـام عنـده أيـامـا ثم خرج من دمشـق فـارا بنفسـه في أوان البرد الشديد ، فأتى قرية من قراها ، وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليـه النزول عنـده ففعل . وصنع لـه مرقـة وذبح دجـاجـة فـأتـاه بهـا ، وبخبز شعير ، فأكل من ذلك ودعا للرجل . وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بنـاء زوجهـا عليهـا . ومن عـاداتهم في تلـك البلاد أن البنت يجهزهـا أبـوهـا ويكـون معظم الجهـاز أواني النحـاس ، وبـه يتفـاخرون وبه يتبايعون .

فقال أبو يعقوب للرجل : هل عندك شيء من النحاس ؟

قال : نعم . قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت .

قـال : ائتنـي بـه .

فأتاه به فقال له : استعر من جيرانك ما أمكنك منه .

ففعل ، وأحضر ذلك بين يديه . فـأوقـد عليـه النيران ، وأخرج صرة كانت عنده فيها الاكسير ، فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهبا !

وتركه في بيت مقفل وكتب كتابا الى نور الدين ملـك دمشق يعلمـه بذلـك وينبهـه على بنـاء مـارستـان للمرضى من الغربـاء ، ويوقف عليـه الأوقاف ، ويبني الزوايا بـالطرق ، ويرضي أصحـاب النحـاس ، ويعطي صاحب البيت كفايته .

وقال له في آخر الكتاب :

«... وان كان ابراهيم بن أدهم قـد خرج عن ملـك خراسان فـأنـا قـد خرجت عن ملـك المغرب ، وعن هـذه الصنعـة ، والسـلام ...» . وفر من حينه .

وذهب صاحب البيت بالكتاب الى الملـك نور الـدين ، فوصل الملـك الى تلـك القريـة ، واحتمـل الـذهب بعـد أن أرضى أصحـاب النحـاس وصاحب البيت .

وطلب أبـا يعقوب فلم يجـد لـه أثرا ولا وقع لـه على خبر . فعـاد الى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه ، الذي ليس في المعمور مثله ...

وصف مدينـة طرابـلس الشـام

ثم وصلت الى مدينة طرابلس ، وهي احدى قواعد الشـام ، وبلـدانهـا الضخام ، تخترقها الأنهار ، وتحف بها البساتين والأشجار ، ويكتنفهـا البحر بمرافقه العمية ، والبر بخيراتـه المقيمـة ، ولهـا الأسواق العجيبـة ، والمسـارح الخصيبة ، والبحر على ميلين منها ، وهي حديثة البناء .

وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر . وتملكهـا الروم زمنـا ،

فلما استرجعها الملك الظاهر خربت ، واتخذت هذه الحديثة .

وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك ، وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الأمراء ، ومسكنه بالدار المعروفة بدار السعادة . ومن عاداته أن يركب في كل يوم اثنين وخميس ، ويركب معه الأمراء والعساكر ، ويخرج الى ظاهر المدينة ، فاذا عاد اليها وقارب الوصول الى منزله ، ترجل الأمراء ونزلوا عن دوابهم ، ومشوا بين يديه ، حتى يدخل منزله ، وينصرفون ، وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم ، وتوقد المشاعل .

وممن كان بها من الأعلام كاتب السر بهاء الدين بن غانم أحد الفضلاء الحسباء ، معروف بالسخاء والكرم ، وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف ، وقد ذكرناه ، وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق .

ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين بن مكين ، من أكابر الرجال .

ومنهم قاضي قضاتها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام .

وبهذه المدينة حمامات حسان ، منها حمام القاضي القرمي ، وحمام سندمور . وكان سندمور أمير هذه المدينة . ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الجنايات : منها أن امرأة شكت اليه أن أحد مماليكه الخواص ، تعدى عليها في لبن كانت تبيعه فشربه ، ولم تكن لها بينة ، فأمر به فوسّط فخرج اللبن من مصرانه . وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس ، أحد أمراء الملك الناصر أيام امارته على عيذاب ، واتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان .

ثم سافرت من طرابلس الى حصن الأكراد وهو بلد صغير كثير الأشجار والأنهار بأعلى تل ، وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمي ، نسبة الى بعض كبراء الأمراء ، ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه .

مدينـة حمـص

ثم سافرت الى مـدينـة حمص ، وهي مـدينـة مليحـة ، أرجـاؤهـا مونقة ، وأشجارها مورقة ، وأنهارها متدفقة ، وأسواقها فسيحـة الشوارع ، وجامعها متميز بالحسن الجامع ، وفي وسطه بركة مـاء . وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم .

وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليـد سيف الله ورسولـه ، وعليـه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء .

وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشريشي ، من أجمل النـاس صورة ، وأحسنهم سيرة .

مدينـة حمـاه

ثم سافرت منهـا الى مـدينـة حمـاه ، احـدى أمهـات الشـام الرفيعـة ، ومدائنها البديعة ، ذات الحسن الرائق ، والجمال الفائق ، تحف بها البساتين والجنات ، عليها النواعير كالأفلاك الـدائرات ، يشقهـا النهر العظيم المسمى بالعاصي . ولها ربض سمي بالمنصورية ، أعظم من المدينـة ، فيـه الأسواق الحافلة والحمامات الحسان .

وبحماة الفواكـه الكثيرة ، ومنهـا المشمش اللـوزي ، اذا كسرت نـواتـه وجدت في داخلها لوزة حلوة .

قـال ابن جـزى : وفي هـذه المـدينـة ونهرهـا ونـواعيرهـا وبسـاتينهـا يقـول الأديب الرحـال ، نـور الـدين أبـو الحسن علي بن مـوسى بن سعيـد العنسي العماري الغرنـاطي ، نسبـة لعمار بن يـاسر رضي الله عنه :

حمى الله من شطى حمـاة منـاظرا
وقفت عليهـا السمـع والفكر والطرفـا

تغنى حمــــــام أو تميــــل خمــــائـــــل
وتــزهى مبــان تمنــع الــواصف الــوصـا
يلـــومــــونني أن أعصي الصـــون والنهي
وأني أطيــــع الكأس واللهـــو والقصفـــــا
وأشـدو لـدى تلـك النـواعر شـدوهـــا
وأغلبهـــا رقصـــا وأشبههـــا غرفــــا
تئن وتـــــذري دمعهـــــا فكأنهـــــا
تهيم بمرآهـــا وتســـألهـــا العطفــــا

ولبعضهم في نواعيرها ذاهبا مذهب التورية:

ونــــاعـــــورة رقت لعظم خطيئتي
وقــد عــاينت قصــدي من المنزل القــاصي
بكت رحـــة لي ثم بــاحت بشجـوهــا
وحسبـــك أن الخشب تبكي على العـــاصي

ولبعض المتأخرين فيها أيضا من التورية :

يـــا ســـادة سكنــوا حمـــاة وحقكم
مــــا حلت عن تقــوى وعن اخــلاص
والطرف بعــــــدكم اذا ذكر اللقـــــا
يجري المــدامـع طــائعــا كالعــاصي

ثم سافرت الى مدينة المعرة التي ينسب اليها الشاعر أبو العلاء المعري وكثير سواه من الشعراء .

مدينــة المعــرة

قــال ابن جــزى : وانمــا سميت بمعرة النعمان لأن النعمان بن بشير الأنصـاري ، صـاحب رسـول الله ﷺ ، تـوفي لـه ولـد أيـام امـارتـه على

حمص ، فدفنته بالمعرة ، فعرفت به ، وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور . وقيل أن النعمان جبل مطل عليها سميت به .

والمعرة مدينة كبيرة حسنة ، اكثر شجرها التين والفستق ، ومنها يحمل الى مصر والشام . وبخارجها على فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ولا زاوية عليه ولا خادم له . وسبب ذلك أنه وقع في بلاد صنف من الرافضة أرجاس ، يبغضون العشرة من الصحابة رضي الله عنهم ، ولعن مبغضهم . ويبغضون كل من اسمه عمر ، وخصوصا عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه ، لما كان من فعله في تعظيم علي رضي الله عنه .

مدينة سرمين

ثم سرنا منها الى مدينة سرمين ، وهي حسنة كثيرة البساتين . وأكثر شجرها الزيتون . وبها يصنع الصابون الآجري ، ويجلب الى مصر والشام . ويصنع بها أيضا الصابون المطيب ، لغسل الأيدي ، ويصبغونه بالحمرة والصفرة . ويصنع بها ثياب قطن حسان ، تنسب اليها .

وأهلها سبابون يبغضون العشرة . ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة . وينادي سماسرتهم بالأسواق على السلع ، فاذا بلغوا الى العشرة ، قالوا : تسعة وواحد . وحضر بها بعض الأتراك يوما فسمع سمسارا ينادي : تسعة وواحد ، فضربه بالدبوس على رأسه وقال : عشرة بالدبوس !

وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ، ولم يجعلوها عشرا قياما بمذهبهم القبيح .

وصف مدينــة حلــب

ثم سرنا الى مدينة حلب ، المدينة الكبرى ، والقاعدة العظمى . قال أبو الحسين بن جبير في وصفها : قدرها خطير ، وذكرها في كل زمان يطير ، خطابها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس أثير ، فكم هاجت من كفاح ، وسل عليها من بيض الصفاح . لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع ، منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، قد طاولت الأيام والأعوام ، وشيعت الخواص والعوام ، أين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها ؟ فنى جميعهم ولم يبق الا بناؤها . فياعجبا لبلاد تبقى ويذهب ملاكها ، ويهلكون ولا يقضي هلاكها ، وتخطب بعدهم فلا يتعذر املاكها ، وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها ... هذه حلب كم أدخلت ملوكها في خبر كان ، ونسخت ظرف الزمان بالمكان ، أنث اسمها فتحلت بحلية الغوان ، وانجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان . هيهات هيهات سيهرم شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها !

وقلعة حلب تسمى الشهباء . ويداخلها جبان ينبع منها الماء ، فلا تخاف الظمأ . ويطيف بها سوران ، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء . وسورها متداني الأبراج ، وقد انتظمت بها العلالي العجيبة المفتحة الطيقان ، وكل برج منها مسكون . والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد . وبها مشهد يقصده بعض الناس ، يقال أن الخليل عليه السلام كان يتعبد به . وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق التي على الفرات ، بين الشام والعراق .

ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب ، حاصر هذه القلعة أياما . ونكص عنها خائبا .

قال ابن جزى : وفي هذه القلعة يقول الخالدي شاعر سيف الدولة :

وخرقـاء قـد قـامت على من يرومهـا
بمرقبهـا العـالي وجـانبهـا الصعب
يجر عليهـا الجـو جيب غمـامـه
ويلبسهـا عقـدا بـأنجمـه الشهب
اذا مـا سرى برق بـدت من خـلالـه
كما لاحت العـذراء من خلـل السحب
فكم من جنـود قـد أمـاتت بغصـة
وذي سطـوات قـد أبـانت على عقب

وفيها يقول أيضا وهو من بديع النظم :

وقلعـة عـانـق العنقـاء سـافلهـا
وجـاز منطقـة الجـوزاء عـاليهـا
لا تعرف القطر اذ كان الغمام لهـا
أرضـا تـوطـأ قطريـه مـواشيهـا
يعـد من أنجم الأفـلاك مرقبهـا
لـو أنـه كان يجري في مجـاريهـا

ويقـال في مـدينـة حلب : حلب ابراهيم ، لأن الخليل ، صلوات الله وسلامه على نبينـا وعليـه ، كان يسكنهـا ، وكانت لـه الغنم الكثيرة فكان يسقي الفقراء والمسـاكين والـوارد والصـادر من ألبـانهـا ، فكانـوا يجتمعـون ويسألون حلب ابراهيم ، فسميت بذلك .

وهي من أعـز البـلاد التي لا نظير لهـا في حسن الـوضـع ، واتقـان الترتيب واتسـاع الأسواق ، وانتظـام بعضهـا ببعض . وأسـواقهـا مسقـوفـة بالخشب ، فأهلها دائما في ظل ممدود . وقيساريتها لا تمـاثل حسنـا وكبرا ، وهي تحيط بمسجدهـا . وكل سماط منهـا محـاذ لبـاب من أبواب المسجـد . ومسجدها الجامع من أجمل المساجد ، في صحنه بركـة مـاء ، ويطيف بـه

بلاط عظيم الاتساع ، ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والأبنوس .

ويقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع ، واتقان الصنعة ، تنسب لأمراء بني حمدان . وبالبلد سواها ثلاث مدارس ، وبها مارستان . وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح ، عريض ، به المزارع العظيمة ، وشجرات الأعناب منتظمة به ، والبساتين على شاطىء نهرها ، وهو النهر الذي يمر بحماة ، ويسمى العاصي ، وقيل أنه سمي بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل الى علو والنفس تجد في خارج مدينة حلب انشراحا وسرورا ونشاطا لا يكون في سواها ، وهي من المدن التي تصلح للخلافة .

وبحلب ملك الأمراء أرغون الدوادار ، أكبر أمراء الملك الناصر . وهو من الفقهاء موصوف بالعدل ، لكنه بخيل .

والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الأربعة : فمنهم القاضي كمال الدين بن الزملكاني ، شافعي المذهب ، عالي الهمة ، كبير القدر ، كريم النفس ، حسن الأخلاق ، متفنن بالعلوم . وكان الملك الناصر قد بعث اليه ليوليه قضاء القضاة بحاضرة ملكه ، فلم يقض له ذلك ، وتوفي ببلبيس وهو متوجه اليها . ولما ولي قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها ، وكان فيمن قصده شاعر الشام جمال الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين أبي بعد الله ، محمد بن نباتة القرشي الأموي الفاروقي ، فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة ، أولها :

أسفت لفقدك جلق الفيحاء
وتباشرت لقدومك الشهباء
وعلا دمشق ، وقد رحلت ، كآبة
وعلا ربا حلب سنا وسناء

قــــد أشرقت دار سكنت فنـــاءهـــــا
حتى غـــــدت ولنــــورهـــــا لألاء
يـــا ســـــائــلا سقى المكارم والعــلا
ممن يبخـــل عنــــده الكرمـــــاء
هـــذا كمال الـــدين لـــذ بجنـــابـــه
تنعم ، فثم الفضــــــــــــل والنعماء
قـــاض زكا أصـلا وفرعـــا فـــاعتلى
شرفت بـــــه الآبـــــاء الأبنـــــاء
منّ الا لـــــه على بني حلب بـــــه
لله وضــــع الفضـــل حيث يشـــــاء
كشف المعمى فهمـــــه وبيـــــانـــــه
فكأنـمــــــا ذاك الـــــــذكاء ذكاء
يـــا حــــاكم الحكام قـــدرك ســـابـق
عن أن تسرك رتبـــــــــــــة شماء
ان المنـــــــاصب دون همتــــــك التي
في الفضـــل دون محلهـــــا الجـــوزاء
لــــك في العلـوم فضـــائـل مشهـورة
كالصبـح شـق لــــه الظـلام ضيـــــاء
ومنــــاقب شهـــد العـــدو بفضلهـــا
والفضــل مـــا شهـــدت بـــه الأعـــداء

وهي أزيد من خمسين بيتـا ، وأجـازه عليهـا بكسوة ودراهم . وانتقـد عليه الشعراء ابتداء بلفظ «أسفت» .

قـال ابن جـزى : وليس كـلامـه في هـذه القصيـدة بـذاك ، وهـو في المقطعات أجود منه في القصائد ، واليه انتهت الرياسة في الشعر على هـذا

العهد في جميع بلاد الشرق . وهو من ذرية الخطيب أبي يحيى عبد الرحيم بن نباتة ، منشىء الخطب الصغيرة ، ومن بديع مقطعاته في التورية قوله :

علقتها غيداء حالية العلا
تجنى على عقل المحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم
فغدت مطوقة بما بخلت به

ومن قضاة حلب قاضي قضاة الحنفية الامام المدرس ناصر الدين بن العديم ، حسن الصورة والسيرة ، أصيل مدينة حلب .

تراه ـ اذا ما جئته ـ متهللا
كأنك معطيه الذي أنت سائله

ومنهم قاضي قضاة المالكية (لا أذكره) . كان من الموثقين بمصر ، وأخذ الخطة عن غير استحقاق .

ومنهم قاضي قضاة الحنابلة (لا أذكر اسمه) . وهو من أهل صالحية دمشق .

ونقيب الأشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء .

ومن فقهائها شرف الدين بن العجمي وأقاربه هم كبراء مدينة حلب

تيزين وانطاكية

ثم سافرت منها الى مدينة تيزين وهي على طريق قنسرين ، وهي حديثة اتخذها التركمان . وأسواقها حسان ومساجدها في نهاية من الاتقان ، وقاضيها بدر الدين العسقلاني . وكانت مدينة قنسرين قديما كبيرة ، ثم خربت ولم يبق الا رسومها .

ثم سافرت الى مدينة انطاكية ، وهي مدينة عظيمة ، وكان عليها

سور محكم لا نظير لـه في أسورا بـلاد الشـام . فلما فتحها الملك الظـاهر هدم سورها .

وأنطـاكيـة كثيرة العمارة ، ودورهـا حسنـة البنـاء كثيرة الأشجـار والمياه . وبخارجها نهر العاصي . وبهـا قبر حبيب النجـار رضي الله عنـه ، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، شيخها الصالح المعمر محمد بن علي ، سنـه تنيف على المـائـة ، وهـو ممتـع بقـوتـه . دخلت عليـه مرة في بستان له وقد جمع حطبا ورفعه على كاهلـه ليـأتي بـه منزلـه بـالمدينـة . ورأيت ابنـه قـد أنـاف على الثمانين ، الا أنـه محـدودب الظهر لا يستطيع النهوض ، ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد والدا .

ثم سـافرت الى حصن بغراس ، وهـو حصن منيـع لا يرام ، عليـه البسـاتين والمزارع ، ومنـه يـدخـل الى بـلاد سيس ، وهي بـلاد كفـار الأرمن ، وهم رعيـة للملـك النـاصر ، يـؤدون اليـه مـالا ، ودراهمهم فضـة خالصة . وأمير هذا الحصن صارم الـدين بن الشيبـاني ، ولـه ولـد فـاضل اسمـه عـلاء الـدين ، وابن أخ اسمـه حسـام الـدين ، فـاضـل كريم يسكن المـوضـع المعروف بـالرصص ، ويحفـظ الطريـق الى بـلاد الأرمن .

حكايـة حسام الدين والتزوين علية

شكا الأرمن مرة الى الملك النـاصر من الأمير حسـام الـدين ، وزوروا عليه أمورا لا تليق ، فنفذ أمره لأمير الأمراء بحلب أن يخنقه . فلما توجه الأمير ، بلغ ذلك صديقا لـه من كبـار الأمراء فـدخل على الملـك النـاصر وقال : يا خوند ، ان الأمير حسـام الـدين هو من خيـار الأمراء . ينصح للمسلمين ويحفظ الطريق ، وهو من الشجعان ، والأرمن يريـدون الفسـاد في بلاد المسلمين ، فيمنعهم ويقهرهم ، وانما أرادوا اضعـاف شـوكـة المسلمين

بقتله . ولم يزل به حتى أنفذ أمرا ثانيا بسراحه ، والخلع عليه ورده لموضعه .

ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالأقوش ، وكان لا يبعث الا في مهم ، أمره بالاسراع والجد في السير ، فسار من مصر الى حلب في خمس ، وهي مسيرة شهر ، فوجد أمير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه الى الموضع الذي يخنق به الناس ، فخلصه الله تعالى ، وعاد الى موضعه .

ولقيت هذا الأمير ومعه قاضي بغراس شرف الدين الحموي بموقع يقال له العمق ، متوسط بين أنطاكية وتيزين . وبغراس ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته .

حصـون الفداويـة

ثم سافرت الى حصن القصير تصغير قصر ، وهو حصن حسن ، أميره علاء الدين الكردي ، وقاضيه شهاب الدين الأرمنتي ، من أهل الديار المصرية .

ثم سافرت الى حصن الشغربكاس ، وهو منيع في رأس شاهق ، أميره سيف الدين الطناطش ، فاضل ، وقاضيه جمال الدين بن شجرة ، من أصحاب ابن تيمية .

ثم سافرت الى مدينة صنهيون ، وهي مدينة حسنة ، بها الأنهار المطردة ، والأشجار المورقة ، ولها قلعة جيدة ، وأميرها يعرف بالابراهيمي ، وقاضيها محي الدين الحمصي ، وبخارجها زاوية في وسط بستان ، فيها الطعام للوارد والصادر ، وهي على قبر الصالح العابد عيسى البدوي رحمه الله ، وقد زرت قبره .

ثم سافرت منها فمررت بحص القدموس ، ثم بحصن المينقة ، ثم بحصن

العليقــة ، واسمــه على لفــظ واحــدة العليــق ، ثم بحصن مصيــاف ، ثم بحصن الكهف .

وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الاسماعلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم . وهم سهـام الملـك النـاصر ، بهم يصيب من يعـدو عليـه من أعـدائــه بـالعراق وغيرهــا ، ولهم المرتبـات . واذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم الى اغتيال عدو له أعطاه ديته ، فـان سلم بعـد تـأتي مـا يراد منـة ، فهي لـه ، وإن أصيب فهي لـولـده . ولهم سكاكين مسمومة ، يضربون بها من بعثوا الى قتلـه . وربمـا لم تصح حيلهم فقتلوا ، كما جرى لهم مـع الأمير قراسنقـور ، فـانـه لمـا هرب الى العراق بعث اليـه الملك الناصر جملة منهم ، فقتلوا ولم يقدروا عليه لأخذه بالحزم .

حكايــة الملك الناصر وقاتل أخيه

كان قراسنقور من كبار الأمراء ، وممن حضر قتل الملك الأشرف أخي الملك الناصر ، وشـارك فيـه . ولمـا تمهـد الملـك للملـك النـاصر ، وقر بـه القرار ، واشتدت أواخي سلطانـه جعل يتتبع قتلـة أخيـه فيقتلهم واحـدا واحدا اظهارا للأخذ بثأر أخيه ، وخوفا أن يتجـاسروا عليـه بمـا تجـاسروا على أخيه .

وكان قراسنقـور أمير الأمراء بحلب ، فكتب الملـك النــاصر الى جميع الأمراء أن ينفروا بعسـاكرهم ، وجعل لهم ميعاد يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم عليها ، حتى يقبضوا عليه . فلما فعلوا ذلـك خـاف قرانسقور على نفسه ، وكان له ثمانمائة مملوك ، فركب فيهم وخرج على العسـاكر صباحـا فاخترقهم وأعجزهم سبقا ، وكانوا في عشرين ألفا .

وقصـد منزل أمير العرب منهـا بن عيسى وهـو على مسيرة يـومين من حلب . وكان مهنا في قنص له ، فقصد بيته ونزل عن فرسه وألقى العمامة

فـي عنـق نفسـه ، ونـادى : الجوار يـا أميـر العـرب !

وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه ، فقالت : قد أجرناك وأجرنا من معك .

فقال : انما أطلب أولادي ومالي .

فقالت له : لك ما تحب فانزل في جوارنا . ففعل ذلك .

وأتى مهنا فأحسن نزله وحكمه في ماله فقـال : انمـا أحب أهلي ومـالي الذي تركته بحلب .

فدعا مهنا باخوته وبني عمه فشاورهم في أمره ، فمنهم من أجابه الى ما أراد ، ومنهم من قـال لـه : كيف نحـارب الملـك النـاصر ، ونحن في بلاده بالشام ؟

فقال لهم مهنا : أما أنا فأفعل لهـذا الرجل مـا يريـده ، وأذهب معـه الى سلطان العراق .

وفي أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسنقور سيروا على البريد الى مصر ، فقال مهنا لقراسنقور : أما أولادك فلا حيلة فيهم ، وأما مالك فنجتهد في خلاصه .

فركب فيمن أطاعه من أهله ، واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفا ، وقصدوا حلب ، فـأحرقوا بـاب قلعتهـا وتغلبوا عليهـا ، واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقى من اهله ، ولم يتعدوا إلى سوى ذلك .

وقصـدوا ملـك العراق وصحبهم أمير حمص الأفرم ، ووصلوا الى الملـك محمد خدا بنده سلطان العراق ، وهو بموضع مصيفـه المسمى قرابـاغ ، وهو مـا بين السلطـانيـة وتبريـز ، فـأكرم نـزلهم وأعطى مهنـا عراق العرب ، وأعطى قراسنقـور مـدينـة مراغـة من عراق العجم ، وتسمى دمشـق الصغيرة ، وأعطى الأفرم همدان .

وأقاموا عنده مدة مات فيها الأفرم ، وعـاد مهنـا الى الملـك النـاصر ،

بعد مواثيق وعهود أخذها منه ، ويبقى قراسنقور على حاله .

وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة . فنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه . ومنهم من يرمي بنفسه عليه وهو راكب فيضربه . وقتل بسببه من الفداوية جماعة . وكان لا يفارق الدرع أبدا .

فلما مات السلطان محمد وولى ابنه أبو سعيد ، وقع ما سنذكره من أمر الجوبان ، كبير أمرائه ، وفرار ولده الدمرطاش الى الملك الناصر .

ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبي سعيد واتفقا على أن يبعث أبو سعيد الى الملك الناصر برأس قراسنقور ، ويبعث اليه الملك الناصر برأس الدمرطاش . فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش الى أبي سعيد . فلما وصله ، أمر بحمل قراسنقور اليه ، فلما عرف قراسنقور ذلك أخذ خاتما كان له مجوفا في داخله سم ناقع ، فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه ، فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه .

مدينة جبلة

ثم سافرت من حصون الفداوية الى مدينة جبلة ، وهي ذات أنهار مطردة وأشجار ، والبحر على نحو ميل منها ، وبها قبر الولي الصالح الشهير ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه ، وهو الذي نبذ الملك ، وانقطع الى الله تعالى كما شهر ذلك . ولم يكن ابراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس ، انما ورث الملك عن جده أبي أمه ، وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين .

حكاية أدهم الزاهد

يذكر أنه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخاري وتوضأ من بعض الأنهار التي تتخللها ، فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر ، فقال : هذه لا خطر

لها ... فأكلها ، ثم وقع في خاطره من ذلك وسواس ، فعزم على أن يستحل من صاحب البستان ، فقرع باب البستان فخرجت اليه جارية فقال لها : ادعي لي صاحب المنزل .

فقالت : انه لإمرأة .

فقال : استأذني لي عليها .

ففعلت ، فأخبر المرأة بخبر التفاحة ، فقالت له : ان هذا البستان نصفه لي ونصفه للسلطان . والسلطان يومئذ ببلخ ، وهي مسيرة عشرة من بخاري ، وأحلته المرأة من نصفها .

وذهب الى بلخ . فاعترض السلطان في موكبه فأخبره الخبر واستحله ، فأمره أن يعود اليه من الغد .

وكان للسلطان بنت بارعة الجمال ، قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت ، وحببت اليها العبادة وحب الصالحين ، وهي تحب أن تتزوج من ورع زاهد في الدنيا .

فلما عاد السلطان الى منزله ، أخبر بنته بخبر أدهم ، وقال : ما رأيت أورع من هذا ! يأتي من بخاري الى بلخ لأجل نصف تفاحة !

فرغبت في تزوجه ، فلما أتاه من الغد قال : لا أحلك الا أن تتزوج بنتي ، فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع ، فتزوج منها . فلما دخل عليها وجدها متزينة والبيت مزين بالفرش وسواها ، فعمد الى ناحية من البيت ، وأقبل على صلاته حتى أصبح . ولم يزل كذلك سبع ليال ، وكان السلطان ما أحله قبل ، فبعث اليه أن يحله فقال : لا أحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك . فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل ، وقام الى الصلاة فصاح صيحة وسجد في مصلاه فوجد ميتا رحمه الله . فولدت ابراهيم . ولم يكن لجده ولد ، فأسند الملك اليه . وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر .

وعلى قبر ابراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء ، وبها الطعام

للصادر والوارد ، وخادمها ابراهيم الجحي من كبار الصالحين . والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ، ويقيمون بها ثلاثا ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شيء . ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق لحضور هذا الموسم ، وكل من يأتي من الزوار لهذه التربة يعطي خادمها شمعة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة .

وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية ، الذين يعتقدون أن علي بن أبي طالب اله . وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون . وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم ، فبنوا بكل قرية مسجدا بعيدا عن العمارة ، ولا يدخلونه ، ولا يعمرونه ، وربما أوت اليه مواشيهم ودوابهم ، وربما وصل الغريب اليهم فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له : لا تنهق ، علفك يأتيك وعددهم كثير .

حكاية المهدي الكاذب

ذكر لي أن رجلا مجهولا وقع ببلاد هذه الطائفة ، فادعى الهداية ، وتكاثروا عليه ، فوعدهم بتملك البلاد ، وقسم بينهم بلاد الشام . وكان يعين لهم البلاد ويأمرهم بالخروج اليها ، ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم : استظهروا بها فانها كالأوامر لكم . فاذا خرج أحدهم الى بلد أحضره أميرها ، فيقول له : ان الامام المهدي أعطاني هذا البلد .

فيقول له : أين الأمر ؟ فيخرج ورق الزيتون ، فيضرب ويحبس .

ثم إنه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين ، وان يبدؤوا بمدينة جبلة ، وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ، ووعدهم أنها تصير في أيديهم سيوفا عند القتال . فغدروا مدينة جبلة وأهلها في صلاة الجمعة ،

فدخلوا الدور وهتكوا الحريم ، وثار المسلمون من مسجدهم ، فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاؤوا .

واتصل الخبر باللاذقية ، فأقبل أميرها بهادر عبد الله بعسكره ، وطيرت الحمام الى طرابلس ، فأتى أمير الأمراء بعساكره ، وأتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفا ، وتحصن الباقون بالجبال .

وراسلوا ملك الأمراء ، والتزموا أن يعطوه دينارا عن كل رأس ان حاول ابقاءهم . وكان الخبر قد طير به الحمام الى الملك الناصر ، وصدر جوابه أن يحمل عليهم السيف ، فراجعه ملك الأمراء ، وألقى له أنهم عمال المسلمين في حراثة الأرض ، وأنهم ان قتلوا ضعف المسلمون لذلك ، فأمر بالابقاء عليهم .

مدينة اللاذقية

ثم سافرت الى مدينة اللاذقية . وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر ، يزعمون أنها مدينة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا .

وكنت انما قصدتها لزيارة الولي الصالح عبد المحسن الاسكندري . فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف ، فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيدا البجائي ويحي السلاوي ، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء ، أحد فضلاء الشام وكبرائها ، صاحب الصدقات والمكارم . وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر .

وقاضيها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصري المالكي ، فاضل كريم ، تعلق بطيلان ملك الأمراء فولاه قضاءها .

حكايــة ابن المؤيد الهجاء

كان باللاذقية رجل يعرف بـابن المـؤيـد ، هجـاء لا يسلم أحـد من لسانه ، متهم في دينه ، مستخف يتكلم بالقبائح من الالحاد ، فعرضت لـه حاجة عند طيلان ملك الأمراء فلم يقضيها له ، فقصـد مصر وتقول عليـه أمورا شنيعة وعاد الى اللاذقيـة ، فكتب طيلان الى القـاضي جلال الـدين أن يتحيل في قتلـه بـوجـه شرعي ، فـدعـاه القـاضي الى منزلـه وبـاحثـه واستخرج كامن الحاده ، فتكلم بعظـائم أيسرهـا يوجب القتل ، وقـد أعـد القـاضي الشهود خلف الحجـاب فكتبوا عقـدا بمقـالـه وثبت عنـد القـاضي وسجن ، وأعلم ملــــك الأمراء بقضيتــــه ، ثم أخرج من السجن وخنـق على بابه .

ثم لم يلبث ملـك الأمراء طيلان أن عزل عن طرابلس ووليهـا الحـاج قرطية من كبار الأمراء وممن تقدمت له فيها الولاية ، وبينه وبين طيلان عداوة ، فجعل يتتبع سقطاته ، وقام لـديـه اخوة ابن المؤيـد شـاكين من القاضي جلال الدين ، فأمر بـه وبـالشهود الـذين شهـدوا على ابن المؤيـد فأحضروا وأمر بخنقهم ، وأخرجوا الى ظاهر المدينـة حيث يخنق النـاس ، وأجلس كل واحد منهم تحت مُختَنَقِه ونزعت عمائهم .

ومن عادة أمراء تلك البلاد أنه متى أمر أحدهم بقتل أحـد من النـاس يمر الحـاكم من مجلس الأمير سبقـا علىفرسـه الى حيث المـأمـور بقتلـه ، ثم يعود الى الأمير فيكرر استئـذانـه ... يفعل ذلـك ثـلاثـا . فـاذا كان بعـد الثلاث ، أنفذ الأمر .

فلما فعل الحاكم ذلـك قـامت الأمراء في المرة الثـالثـة وكشفوا رؤوسهم وقالوا : أيها الأمير ، هذه سبة في الاسلام ! يقتل القاضي والشهود ؟!

فقبل الأمير شفاعتهم وخلى سبيلهم .

وبخـارج اللاذقيـة الـدير المعروف بـدير الفـاروص ، وهـو أعظم دير

بالشام ومصر، يسكنه الرهبان، ويقصده النصارى من الآفاق، وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه، وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبر.

وميناء هذه المدينة عليه سلسلة بين برجين، لا يدخله أحد ولا يخرج منه حتى تحط له السلسلة، وهو من أحسن المراسي بالشام.

ثم سافرت الى حصن المرقب. وهو من الحصون العظيمة، يماثل حصن الكرك، ومبناه على جبل شامخ، وخارجه ربض ينزله الغرباء، ولا يدخلون قلعته.

وافتتحه من أيدي الروم الملك المنصور قلاوون. وعليه ولد ابنه الملك الناصر. وكان قاضيه برهان الدين المصري، من أفاضل القضاة وكرمائهم.

ثم سافرت الى الجبل الأقرع، وهو أعلى جبل بالشام، وأول ما يظهر منها من البحر. وسكانه التركمان، وفيه العيون والأنهار.

وسافرت منه الى جبل لبنان، وهو من أخصب جبال الدنيا، فيه أصناف الفواكه وعيون الماء، والظلال الوارفة، ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين، وهو شهير بذلك. ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه.

حكاية الصالحين اللبنانين وحمار الوحش

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به، قال: كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد، فأوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها، فقال بعض الحاضرين: يصلح لهذه النار ما يشوي فيها.

فقال أحد الفقراء ممن تز دريه الأعين ولا يعبأ به: اني كنت عند صلاة العصر بمتعبد ابراهيم ابن أدهم، فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد

أحدق الثلج به من كل جانب ، وأظنه لا يقدر على الحراك ، فلو ذهبتم اليه لقدرتم عليه وشويتم لحمه في هذه النار .

قال : فقمنا اليه في خمسة رجال ، فلقيناه كما وصف لنا ، فقبضناه وأتينا به أصحابنا ، وذبحناه وشوينا لحمه في تلك النار . وطلبنا الفقير الذي نبه عليه فلم نجده ، ولا وقعنا له على أثر ، فطال عجبنا منه ...

وصف مدينة بعلبك

ثم وصلنا من جبل لبنان الى مدينة بعلبك ، وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام ، تحدق بها البساتين الشريفة ، والجنات المنيفة ، وتخترق أرضها الأنهار الجارية ، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية ، وبها يصنع الدبس المنسوب اليها . وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ، ولهم تربة يضعونها فيه ، فيجمد ، وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة ، وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن ، ويسمونها أيضا بجلد الفرس .

وهي كثيرة الألبان وتجلب منها الى دمشق ، وبينهما مسيرة يوم للمجدّ .

وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني ، كثيرة الفواكه ويغدون منها الى دمشق .

ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره ، ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد ، وهم يسمون الصحاف بالدسوت ، وربما صنعواالصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها أخرى الى أن يبلغوا العشر ، يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة . وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرا واحدة في جوف واحدة ، ويصنعون لها غشاء من جلد ، ويمسكها الرجل في حزامه . واذا حضر طعاما مع أصحابه

أخرج ذلك فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة ، ثم يخرج من جوفها تسعا .

وكان دخولي لبعلبك عشية النهار ، وخرجت منها بالغدو لفرط اشتياقي الى دمشق .

وصف دمشق

ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم ، عام ستة وعشرين الى مدينة دمشق الشام ، فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية .

ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا . وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها ، ولا أبدع مما قاله أبو الحسين بن جبير رحمه الله تعالى في ذكرها .

قال : وأما دمشق فهي جنة المشرق ، ومطلع نورها المشرق ، وخاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ، قد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، وحلت موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أوى المسيح عليه السلام وأمه منها الى ربوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل ، وماء سلسبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم : هلموا الى معرس للحسن ومقيل . وقد سئمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت الى الظماء ، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب : اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . وقد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر ، والأكمام بالثمر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، ولله صدق القائلين عنها : ان كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها ، وان كانت في السماء فهي تساميها وتحاذيها .

قال ابن جزى : وقد نظم بعض شعرائها في هذا المعنى فقال :

ان تكن جنة الخلود بأرض
فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها
قد أبدّت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور
فاعتنمها عشية وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي آشي ، نزيل تونس ، ونص كلام ابن جبير ... ثم قال : ولقد أحسن فيا وصف منها وأجاد ، وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد .

قال ابن جزى : والذي قالته الشعراء في وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة . وكان والدي ، رحمه الله ، كثيرا ما ينشد في وصفها هذه الأبيات ، وهي لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى :

دمشق بنا شوق اليها مبرح
وان لج واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها
عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق
وصح نسيم الروض وهو عليل

وهذا من النمط العالي من الشعر . وقال فيها عرقلة الدمشقي الكلبي :

الشام شامة وجنة الدنيا كما
انسان مقلتها الغضيضة جلق
من آسها لك جنة لا تنقضي
ومن الشقيق جهنم لا تحرق

وقال أيضا فيها :

أما دمشق فجنات معجلة
للطالبين بها الولدان والحور
ما صاح فيها على أوتاره قمر
الا يغنيه قمري وشحرور
يا حبذا ودروع الماء تنسجها
أنامل الريح الا أنها زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك .

وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعد العنسي الغرناطي ، المدعو نور الدين :

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا
مكملا وهو في الآفاق مختصر
القصب راقصة والطير صادحة
والزهر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات أوجهها
لكنها بظلال الدوح تستتر
وكل واد به موسى يفجره
وكل روض على حافاته الخضر

وقال فيها أيضا :

أما دمشق فجنة ينسى بها الوطن الغريب

لله أيـــــام السبـــــوت
بهـــا ومنظرهـــا العجيب
انظر بعينـــك هـــل ترى
الا محبـــا أو حبيب
في مـــوطن غنى الحمـــام
بـــه على رقص القضيب
وغـــدت أزاهر روضـــه
تختـــال في فرح وطيب

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا ، انما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الأنهار ، ودوحات الأشجار ، بين البساتين النضرة ، والمياه الجارية ، فيكونون بها يومهم الى الليل .

وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق ، فلنرجع الى كلام الشيخ أبي عبد الله .

ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالا ، وأتقنها صناعة ، وأبدعها حسنا وبهجة وكمالا ، ولا يعلم له نظير ، ولا يوجد له شبيه .

وكان الذي تولى بناؤه واتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ووجه الى ملك الروم بقسطنطينية يأمره أن يبعث اليه الصناع ، فبعث اليه اثنى عشر ألف صانع .

وكان موضع المسجد كنيسة ، فلما افتتح المسلمون دمشق ، دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه من احدى جهاتها بالسيف ، فانتهى الى نصف الكنيسة ، ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من الجهة الغربية صلحا ، فانتهى الى نصف الكنيسة ، فصنع المسلمون من نصف الكنيسة

الذي دخلوه عنوة مسجدا ، وبقي النصف الذي صالحوا عليه كنيسة .

فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة في المسجد ، طلب من الروم أن يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤوا من عوض ، فأبوا عليه ، فانتزعها من أيديهم .

وكانوا يزعمون أن الذي يهدمها يجن ، فذكروا ذلك للوليد ، فقال : أنا أول من يجن في سبيل الله ، وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه . فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم ، وأكذب الله زعم الروم .

وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء ، تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن .

وذرع المسجد في الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة ، وهي ثلاثمائة ذراع ، وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة ، وهي مائتا ذراع . وعدد «شمسات» الزجاج الملونة التي فيه أربع وسبعون ، وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق الى غرب ، سعة كل بلاط منها ثماني عشرة خطوة ، وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثماني أرجل جصية تتخللها ، وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون ، قد صور فيها أشكال محاريب وسواها ، وهي تقل قبة الرصاص التي أمام المحراب المسماة بقبة النسر ، كأنهم شبهوا المسجد نسرا طائرا ، والقبة رأسه .

وهي من أعجب مباني الدنيا ، ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة في الهواء ، منيفة على جميع مباني البلد .

وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية ، سعة كل بلاط منها عشر خطى .

وبها من السواري ثلاث وثلاثون ، ومن الأرجل أربع عشرة ، وسعة الصحن مائة ذراع ، وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنا .

وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا ، فمن قارىء ومحدث ، ويكون

انصرافهم بعدالعشاء الأخيرة . وإذا لقى أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبا له أسرع كل منهما نحو صاحبه وحط رأسه .

وفي هذا الصحن ثلاث من القباب ، احداها في غربيه وهي أكبرها ، وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين ، وهي قائمة على ثماني سوار من الرخام ، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة مسقوفة بالرصاص ، يقال أن مال الجامع كان يختزن بها .

وذكر لي أن فوائد مستغلات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهبا في كل سنة .

والقبة الثانية من شرقي الصحن على هيئة الأخرى الا أنها أصغر منها ، قائمة على ثمان من سوارى الرخام ، وتسمى قبة زين العابدين .

والقبة الثالثة في وسط الصحن ، وهي صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الالصاق ، قائمة على أربع سوار من الرخام الناصع ، وتحتها شباك حديد في وسطه أنبوب نحاس ، يمج الماء الى علو فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب لجين ، وهم يسمونه قفص الماء ، ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب .

وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضى الى مسجد بديع الوضع ، يسمى مشهد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه .

وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها امام الشافعية .

وفي الركن الشرقي منها ازاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، الى الشام . وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة ، فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم . وهناك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيئا .

وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ، ويذكر أهل التاريخ أنه أول

محراب وضع في الاسلام ، وفيه يؤم امام المالكية ، وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم امامهم ، ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم امامهم .

ولهذا المسجد ثلاث صوامع ، احداها بشرقية وهي من بناء الروم ، وبابها داخل المسجد ، وبأسفلها مطهرة وبيوت للوضوء ، يغتسل فيها المعتكفون والملازمون للمسجد ويتوضؤون .

والصومعة الثانية بغربيه ، وهي أيضا من بناء الروم .

والصومعة الثالثة بشماله ، وهي من بناء المسلمين .

وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنا .

وفي شرقي المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء ، وهي لطائفة الزيالعة السودان .

وفي وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام ، وعليه تابوت معترض بين أسطوانتين ، مكسو بثوب حرير أسود معلم ، فيه مكتوب بالأبيض «يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى» .

وهذا المسجد شهير الفضل . وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة . وفي الأثر عن النبي ﷺ أنه قال : يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة . ويقال أن الجدار القبلي منه وضعه نبي الله هود عليه السلام ، وأن قبره به .

وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن ، بموضع يقال له الأحقاف ، بنية فيها قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر ﷺ .

ومن فضائل هذا المسجد أنه لا يخلو من قراءة القرآن والصلاة ، الا قليلا من الزمان كما سنذكره . والناس يجتمعون به كل يوم اثر صلاة الصبح ، فيقرؤون سبعا من القرآن ، ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرؤون من سورة الكوثر الى آخر القرآن . وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجرى لهم ، وهم نحو ستمائة انسان ، ويدور

عليهم كاتب الغيبة ، فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته .

وفي هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه ، مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك ، ويتوضؤون من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها . وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئا من ذلك .

وفي هذا المسجد أربعة أبواب : باب قبلي يعرف بباب الزيادة ، وبأعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضي الله عنه .

ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين ، ومنه يذهب الى دار الخيل . وعلى يسار الخارج منه سماط الصفارين ، وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي ، من أحسن أسواق دمشق .

وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ودور قومه ، وكانت تسمى الخضراء ، فهدمها بنو العباس رضي الله عنهم ، وصار مكانها سوقا ، وباب شرقي وهو أعظم أبواب المسجد ، ويسمى بباب جيرون ، وله دهليز عظيم يخرج منه الى بلاط عظيم طويل ، أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال . وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه ، وبازائه مسجد صغير ينسب الى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وبه ماء جار .

وقد انتظمت أمام البلاط درج ينحدر فيها الى الدهليز ، وهو كالخندق العظيم ، يتصل بباب عظيم الارتفاع ، تحته أعمدة كالجذوع طوال .

وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم ، وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت

الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة .

وفي الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود ، منها دكانان للشافعية ، وسائرها لأصحاب المذاهب ، يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول ، والعاقد للزواج من قبل القاضي . وسائر الشهود مفترقون في المدينة . وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد .

وفي وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تقلها أعمدة رخام . وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يمج الماء بقوة ، فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الانسان ، يسمونه الفوارة ، منظره عجيب .

وعن يمين الخارج من باب جيرون ـ وهو باب الساعات ـ غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة ، لها أبواب على عدد ساعات النهار . والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة ، فاذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهرا والظاهر الأصفر باطنا . ويقال أن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات .

والباب الغربي يعرف بباب البريد ، وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية ، وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه . وبأعلاه باب يصعد اليه في درج ، له أعمدة سامية في الهواء . وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان . والباب الجوفي يعرف بباب النطفانيين ، وله دهليز عظيم . وعن يمين الخارج منه خانقاه تعرف بالشميعانية ، في وسطها صهريج ماء ، ولها مطاهر يجري فيها الماء . ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

وعلى كل باب من أبواب المسجد الأربعة ، دار وضوء ، يكون فيها نحو مائة بيت تجري فيها المياه الكثيرة .

ذكر الأئمة بهذا المسجد

وأئمته ثلاثة عشر إماما .

أولهم إمام الشافعية . وكان في عهد دخولي اليها امامهم قاضي القضاة جلال الدين محمد ابن عبد الرحمن القزويني ، من كبار الفقهاء ، وهو الخطيب بالمسجد ، وسكناه بدار الخطابة ، ويخرج من باب الحديد ازاء المقصورة ، وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية رضي الله عنه . وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية ، بعد أن أدى عنه الملك الناصر نحو مائة ألف درهم كانت عليه دينا بدمشق .

واذا سلم امام الشافعية من صلاته أقام الصلاة امام مشهد علي ، ثم امام مشهد الحسين ، ثم امام الكلاسة ، ثم امام مشهد أبي بكر ، ثم امام مشهد عمر ، ثم امام مشهد عثمان ، رضي الله عنهم أجمعين .

ثم امام المالكية . وكان امامهم في عهد دخولي اليها الفقيه أبو عمر بن أبي الوليد بن الحاج التجيبي ، القرطبي الأصل الغرناطي المولد ، نزيل دمشق . وهو يتناوب الامامة مع أخيه رحمها الله .

ثم امام الحنفية . وكان امامهم في عهد دخولي اليها الفقيه عماد الدين الحنفي المعروف بابن الرومي ، وهو من كبار الصوفية ، وله شياخة الخانقاه الخاتونية ، وله أيضا خانقاه بالشرف الأعلى .

ثم امام الحنابلة . وكان في ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف ، أحد شيوخ القراءة بدمشق .

ثم ، بعد هؤلاء ، خمسة أئمة لقضاء الفوائت ، فلا تزال الصلاه في هذا المسجد من أول النهار الى ثلث الليل ، وكذلك قراءة القرآن ... وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك .

ذكر المدرسين والمعلمين به .

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم ، والمحدثون يقرؤون كتب الحديث على كراسي مرتفعة . وقراء القرآن يقرؤون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء ، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سواري المسجد ، يلقن الصبيان ويقرؤهم ، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى ، وانما يقرؤون القرآن تلقينا .

ومعلم الخط غير معلم القرآن ، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها ، فينصرف الصبي من التعليم الى التكتيب ، وبذلك جاد خطه ، لأن المعلم للخط لا يعلم غيره .

ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركح الشافعي :

ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر ابن الصائغ ، من المشتهرين بالفضل والصلاح . ولما ولى القضاء بمصر جلال الدين القزويني وجه الى أبي اليسر خلعة والأمر بقضاء دمشق فامتنع من ذلك .

ومنهم الامام العالم شهاب الدين بن جهيل من كبار العلماء ، هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها ، خوفا من أن يقلد القضاء ، فاتصل ذلك بالملك الناصر ، فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية ، قطب العارفين ، لسان المتكلمين ، علاء الدين القونوي ، وهو من كبار الفقهاء .

ومنهم الامام الفاضل بدر الدين علي السخاوي المالكي ، رحمة الله عليهم أجمعين .

ذكر قضاة دمشق

قد ذكرنا قاضي القضاة الشافعي بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني .

وأما قاضي المالكية فهو شرف الدين ابن خطيب الفيوم ، حسن الصورة والهيئة ، من كبار الرؤساء . وهو شيخ شيوخ الصوفية ، والنائب عنه في القضاء شمس الدين بن القفصي . ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية .

وأما قاضي قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحوراني . وكان شديد السطوة ، واليه يتحاكم النساء وأزواجهن ، وكان الرجل اذا سمع اسم القاضي الحنفي أنصف من نفسه قبل الوصول اليه .

وأما قاضي الحنابلة فهو الامام الصالح عز الدين بن مسلم ، من خيار القضاة ، ينصرف على حمار له . ومات بمدينة رسول الله ﷺ تسليما لما توجه للحجاز الشريف .

حكايـة الفقيه ذي الكوتة

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية ، كبير الشام ، يتكلم في الفنون الا أن في عقله شيئا . وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ، ويعظهم على المنبر .

وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء ورفعوه إلى الملك الناصر ، فأمر باشخاصه الى القاهرة ، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر ، وتكلم شرف الدين الزواوي المالكي وقال : ان هذا الرجل قال كذا وكذا ... وعدد ما أنكر على ابن تيمية ، وأحضر العقود بذلك ، ووضعها بين يدي قاضي القضاة .

وقال قاضي القضاة لابن تيمية : ما تقول ؟

قال : لا اله الا الله . .

فأعاد عليه فأجاب بمثل قوله . فأمر الملك الناصر بسجنه ، فسجن أعواما . وصنف في السجن كتابا في تفسير القرآن ، سماه بالبحر المحيط ، في نحو أربعين مجلدا . ثم أن أمه تعرضت للملك الناصر وشكت اليه ، فأمر باطلاقه الى أن وقع منه مثل ذلك ثانية .

وكنت اذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم . فكان من جملة كلامه أن قال : ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولي هذا . ونزل درجة من درج المنبر . فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء . وأنكر ما تكلم به . فقامت العامة الى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضربا كثيرا ، حتى سقطت عمامته ، وظهر على رأسه «شاشية» حرير فأنكروا عليه لباسها ، واحتملوه الى دار عز الدين بن مسلم قاضي الحنابلة ، فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك . فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ، ورفعوا الأمر الى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز ، وكان من خيار الأمراء وصلحائهم ، فكتب الى الملك الناصر بذلك ، وكتب عقدا شرعيا على ابن تيمية بأمور منكرة : منها أن المطلق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه الا طلقة واحدة ، ومنها أن المسافر الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف ـ زاده الله طيبا ـ لا يقصر الصلاة . وسوى ذلك مما يشبهه ، وبعث العقد الى الملك الناصر ، فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة ، فسجن بها حتى مات في السجن .

ذكر مدارس دمشق

أعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس . أعظمها العادلية ، وبها يحكم قاضي القضاة ، وتقابلها المدرسة الظاهرية ، وبها قبر الملك الظاهر . وبها جلوس نواب القاضي . ومن نوابه فخر الدين القطبي ، كان والده من

كتاب القبط وأسلم . ومنهم جمال الدين بن جملة ، وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك ، وعزل لأمر أوجب عزله .

حكايـة الشيخ ظهير الدين وقاضي القضاة

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمي ، وكان سيف الدين تنكيز ملك الأمراء يتتلمذ لـه ويعظمـه ، فحضر يوماً بـدار العـدل عنـد ملك الأمراء وحضر القضاة الأربعة ، فحكى قاضي القضاة جمال الـدين بن جملة حكاية فقال له ظهير الدين : كذبت !

فـأنف القـاضي من ذلـك وامتعض لـه ، فقـال لـلأمير : كيف يكذبني بحضرتك ؟

فقال له الأمير : أحكم عليه .

وسلمه اليه ، وظنه أنه يرضى بذلك فلا يناله بسوء . فأحضره القاضي بالمدرسة العادلية وضربه مـائتي سوط ، وطيف بـه على حمـار في مـدينة دمشق ، ومنـاد ينـادي عليـه ... فمتى فرغ من نـدائـه ضربـه على ظهره ضربة ... وهكذا العادة عندهم !

فبلغ ذلك ملك الأمراء فأنكره أشد الانكار ، وأحضر القضاة والفقهاء فأجمعوا على خطأ القاضي وحكمه بغير مذهبه ، فإن التعزير عند الشـافعي لا يبلغ بـه الحـد . وقـال قـاضي القضـاة المـالكيـة شرف الـدين : قـد حكمت بتفسيقه ...

فكتب الى الملك الناصر بذلك فعزله .

وللحنفية مدارس كثيرة . وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين . وبهـا يحكم قاضي القضاة الحنفية .

وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس : احـداهـا الصمصـاميـة ، وبهـا سكن قـاضي القضـاة المـالكيـة وقعوده لـلأحكام . والمـدرسـة النـوريـة ، عمرهـا

السلطان نور الدين محمود بن زنكى والمدرسة الشرابشية ، عمرها شهاب الدين الشرابشي التاجر .

وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها المدرسة النجمية .

ذكر أبواب دمشق

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب : منها باب الفراديس ، ومنها باب الجابية ، ومنها الباب الصغير ، وفيا بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم .

قال محمد بن جزى : لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق في قوله :

دمشق في أوصافها   جنة خلد رائعة
أما ترى أبوابها   قد جعلت ثمانية

ذكر بعض المشاهد والمزارات بها

فمنها بالمقبرة التي بين البابين - باب الجابية والباب الصغير - قبر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين ، وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية ، وقبر بلال مؤذن رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين ، وقبر أويس القرني ، وقبر كعب الأحبار ، رضي الله عنهما .

ووجدت في كتاب «المعلم في شرح صحيح مسلم» للقرطبي أن جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرني من المدينة الى الشام ، فتوفى في أثناء الطريق في برية لا عمارة فيها ولا ماء ، فتحيروا في أمره ، فنزلوا فوجدوا حنوطا وكفنا وماء ، فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ، ثم ركبوا .

فقال بعضهم : كيف نترك قبره بغير علامة ؟ فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر .

قال ابن جزى : ويقال : أن أويسا قتل بصفين مع علي عليه السلام ، وهو الأصح .

ويلي باب الجابية باب شرقي عنده جبانة فيها قبر أبي بن كعب . صاحب رسول الله ﷺ ، وفيها قبر العابد الصالح أرسلان ، المعروف بالباز الأشهب .

حكاية في سبب تسميته بذلك

يحكى أن الشيخ الولي أحمد الرفاعي رضي الله عنه كان مسكنه بأم عبيدة بقربة من مدينة واسط ، وكانت بين ولي الله تعالى أبي مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ، ويقال أن كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحا ومساء فيرد عليه الآخر ...

وكان للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته . فلما كان في احدى السنين جذها ـ على عادته ـ وترك عذقا منها وقال : هذا برسم أخي شعيب .

فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة ، واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة . ومع الشيخ أحمد خادمه رسلان فتفاوضا الكلام ، وحكى الشيخ حكاية العذق ، فقال له رسلان : عن أمرك يا سيدي آتيه به ؟

فأذن له ، فذهب من حينه وأتاه به ووضعه بين أيديهما . فأخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشية يوم عرفة بازا أشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به في الهواء .

وبغربي دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء فيها قبر أبي الدرداء وزوجه أم الدرداء ، وقبر فضالة بن عبيد ، وقبر واثلة بن الأسقع ، وقبر

سهل بن حنظلة ... من الذين بايعوا تحت الشجرة ، رضي الله عنهم أجمعين .

وبقرية تعرف بالمنيحة شرقي دمشق ، وعلى أربعة أميال منها ، قبر سعد بن عبادة رضي الله عنه ، وعليه مسجد صغير حسن البناء ، وعلى رأسه حجر مكتوب فيه : هذا قبر سعد بن عبادة ، رأس الخزرج ، صاحب رسول الله ﷺ تسليما .

وبقرية قبلي البلد ، وعلى فرسخ منها ، مشهد أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام . ويقال أن اسمها زينب ، وكناها النبي ﷺ أم كلثوم ، لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله ، وعليه مسجد كريم ، وحوله مساكن وله أوقاف ، ويسميه أهل دمشق «قبر الست أم كلثوم» ، وقبر آخر يقال أنه قبر سكينة بنت الحسين بن علي عليه السلام .

وبجامع النيرب ـ من قرى دمشق ـ في بيت بشرقيه ، قبر يقال أنه قبر أم مريم عليها السلام .

وبقرية تعرف بداريا غربي البلد وعلى أربعة أميال منها ، قبر أبي مسلم الخولاني ، وقبر أبي سليمان الداراني رضي الله عنهما .

ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام ، وهو في قبلي دمشق على ميلين منها . على قارعة الطريق الأعظم الآخذ الى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر ، وهو مسجد عظيم كثير البركة ، له أوقاف كثيرة ، ويعظمه أهل دمشق تعظيما شديدا . والأقدام التي ينسب اليها هي أقدام مصورة في حجر هنالك يقال أنها أثر قدم موسى عليه السلام . وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه :«كان بعض الصالحين يرى المصطفى ﷺ في النوم فيقول له : هاهنا قبر أخي موسى عليه السلام» .

وبقربة من هذا المسجد على الطريق موضع يعرف بالكثيب الأحمر .

وبقربة من بيت المقدس وأريحاء موضع يعرف بالكثيب الأحمر تعظمه اليهود .

حكاية الطاعون الاعظم في دمشق

شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق ، في أواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين ، من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه ، وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه ، أمر مناديا ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ، ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهارا ، وأكثر الناس بها انما يأكلون الطعام الذي يصنع بالسوق . فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس ، ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع ، حتى غص بهم ، وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصل وذاكر وداع ، ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف ، والأمراء حفاة ، وخرج جميع أهل البلد ذكورا واناثا صغارا وكبارا ، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان ، وجميعهم باكون متضرعون متوسلون الى الله بكتبه وأنبيائه ، وقصدوا مسجد الأقدام ، وأقاموا به في تضرعهم ودعائهم الى قرب الزوال ، وعادوا الى البلد ، فصلوا الجمعة . وخفف الله تعالى عنهم بعد ما انتهى عدد الموتى الى ألفين في اليوم الواحد . وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر الى أربعة وعشرين ألف في يوم واحد .

وبالباب الشرقي من دمشق منارة بيضاء يقال أنها التي ينزل عيسى عليه السلام عندها حسب ما ورد في «صحيح مسلم» .

ذكر أرباض دمشق

وتدور بدمشق من جهاتها ـ ما عدا الشرقية ـ أرباض فسيحة الساحات ، دواخلها أملح من داخل دمشق ، لأجل الضيق الذي في سككها .

وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية ، وهي مدينة عظيمة ؛ لها سوق لا نظير لحسنه ، وفيها مسجد جامع ومارستان ، وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر ، موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول ، وتجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المأكل والملابس . وبداخل البلد أيضا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجى . وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه .

ذكر قاسيون ومشاهده المباركة

وقاسيون جبل في شمال دمشق ، والصالحية في سفحه ، وهو شهير البركة لأنه مصعد الأنبياء عليهم السلام . ومن مشاهده الكريمة الغار الذي ولد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام ، وهو غار مستطيل ضيق ، عليه مسجد كبير ، وله صومعة عالية . ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس على ما ورد في الكتاب العزيز . وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج اليه .

وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف ببرص ما بين الحلة وبغداد ، يقال : أن مولد ابراهيم عليه السلام كان بها . وهي بمقربة من بلد ذي الكفل عليه السلام ، وبها قبره .

ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدم ، وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام ، وقد أبقى الله منه في الحجارة أثرا محمرا ، وهو الموضع الذي قتله أخوه به ، واجتره الى المغارة .

ويذكر أن تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط ، صلى الله عليهم أجمعين . وعليها مسجد متقن البناء يصعد اليه على درج ، وفيه بيوت ومرافق للسكنى ، ويفتح في كل يوم اثنين وخميس ، والشمع والسرج توقد في المغارة .

ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام ، وعليه بناء ، وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع ، يذكر أنه أوى اليها سبعون من الأنبياء علهيم السلام . وكان عندهم رغيف ، فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعا ، صلى الله عليهم .

وعلى هذه المغارة مسجد مبني ، والسرج توقد به ليلا ونهارا . ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة .

ويذكر أن فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون ، مدفن سبعمائة نبي ، وبعضهم يقول سبعين ألفا ..

وخارج المدينة المقبرة العتيقة ، وهي مدفن الأولياء والصالحين ، وفي طرفها مما يلي البساتين أرض منخفضة ، غلب عليها الماء ، يقال أنها مدافن سبعين نبيا ، وقد عادت قرارا للماء ونزهت من أن يدفن فيها أحد ...

ذكر الربوة والقرى التي تواليها

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ، ذات القرار والمعين ومأوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام . وهي من أجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها . وبها القصور المشيدة ، والمباني الشريفة ، والبساتين البديعة . والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير ، وازاءها بيت يقال انه مصلى الخضر عليه السلام ، يبادر الناس الى الصلاة فيها .

وللمأوى باب حديد صغير ، والمسجد يدور بـه ، ولـه شوارع دائرة ، وسقاية حسنة ، ينزل لها الماء من علو ، وينصب في شاذروان في الجدار ، يتصل بحوض من رخام ، ويقع فيه الماء ، ولا نظير لـه في الحسن وغرابة الشكل . وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء .

وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق ، وبها منابع مياهها . وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار ، كل نهر آخذ في جهة ، ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم .

واكبر هـذه الأنهـار ، النهر المسمى بتورة ، وهو يشـق تحت الربـوة ، وقـد نحت لـه مجرى في الحجر الصلـد كالغـار الكبير . وربمـا انغمس ذو الجسارة من العوامين في النهر من أعلى الربوة ، واندفع في المـاء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة ، وهي مخاطرة عظيمة .

وهـذه الربوة تشرف على البسـاتين الـدائرة بـالبلـد ، ولهـا من الحسن واتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها .

وتلك الأنهـار السبعـة تـذهب في طرق شتى . فتحـار الأعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها . وجمال الربوة وحسنهـا التـام أعظم من أن يحيـط بـه الوصف ، ولهـا الأوقـاف الكثيرة من المـزارع والبسـاتين والرباع ، تقام منها وظائفها للامام والمؤذن والصادر والوارد .

وبـأسفل الربـوة قريـة النيرب ، وقـد تكاثرت بسـاتينهـا ، وتكاثفت ظلالها ، وتدانت أشجارهـا ، فلا يظهر من بنـائهـا الا مـا سما ارتفـاعـه . ولها حمام مليح ، ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام ، وفيـه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومطهرة فيها بيوت عدة يجري فيها الماء .

وفي القبلي من هـذه القريـة قريـة المزة وتعرف بمزة كلب ، نسبـة الى قبيلة كلب ، وكان اقطاعا لهم . واليها ينسب الامام حافظ الدنيا ، جمـال الـدين يوسف بن الزكي الكلبي المزي ، وكثير سواه من العلمـاء . وهي من

أعظم قرى دمشق ، بها جامع كبير عجيب وسقاية معينة .

وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والأسواق ، وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم .

وفي شرقي البلد قرية تعرف ببيت الآلهة ، وكانت فيها كنيسة يقال أن آزر كان ينحت فيها الأصنام ؛ فيكسرها الخليل عليه السلام . وهي الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام وأزين التئام .

ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعاداتهم

والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها : فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ، يعطي من يحج عن الرجل منهم كفايته . ومنها أوقاف تجهيزالبنات الى أزواجهن ، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن . ومنها أوقاف لفكاك الأسارى . ومنها أوقاف لأبناء السبيل ، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم . ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون ، ويمر الركبان بين ذلك . ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير .

حكاية المملوك الصغير والصحفة

مررت يوما ببعض أزقة دمشق ، فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني ، وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت ، واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : اجمع شققها واحملها معلك لصاحب أوقاف . . . فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه اياها ، فدفع له ما

اشترى به مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الأعمال ، فان سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره ، وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك . فكان هذا الوقف جبرا للقلوب . جزى الله خيرا من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا .

وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد . وهم يحسنون الظن بالمغاربة ، ويطمئنون اليهم بالأموال والأهلين والأولاد . وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له وجه من المعاش : من امامة مسجد ، أو قراءة بمدرسة ، أو ملازمة مسجد يجيء اليه فيه رزقه أو قراءة القرآن ، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة ، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجري له النفقة والكسوة . فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه ، محفوظا عما يزري بالمروءة ، ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة ، أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعلم ويروح . ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك .

ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده ألبته : فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء ، فانه يدعو أصحابه الفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية ، فانهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ، ويأتي كل واحد بما عنده ، فيفطرون جميعا .

ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوي مدرس المالكية صحبة . فرغب مني أن أفطر عنده في ليالي رمضان ، فحضرت عنده أربع ليال ، ثم أصابتني الحمى فغبت عنه ، فبعث في طلبي فاعتذرت بالمرض فلم يسعني عذرا ، فرجعت اليه وبت عنده . فلما أردت الانصراف

بالغد منعني من ذلك ، وقال لي : احسب داري كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك . وأمر باحضار طبيب ، وأن يصنع لي بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء . وأقمت كذلك عنده الى يوم العيد ، وحضرت المصلى وشفاني الله تعالى مما أصابني .

وقد كان ما عندي من النفقة نفد ، فعلم بذلك ، فاكترى لي جمالا وأعطاني الزاد وسواه ، وزادني دراهم ، وقال لي : تكون لما عسى أن يعتريك من أمر مهم ، جزاه الله خيرا .

وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصراني ، من عادته أنه متى سمع أن مغربيا وصل الى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن اليه ، فان عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته ، وكان يلازمه منهم جماعة .

وعلى هذه الطريقة أيضا كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره .

وكان بها فاضل من كبرائها ، وهو الصاحب عز الدين القلانسي ، له مآثر ومكارم وفضائل وايثار ، وهو ذو مال عريض . وذكروا أن الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام ، فسماه اذ ذاك بالصاحب .

ومما يؤثر من فضائلهم أن أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت ، أوصى أن يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره ، وعين أوقافا عظيمة لقراء يقرؤون سبعا من القرآن الكريم في كل يوم اثر صلاة الصبح ، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حيث قبره ، فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدا ، وبقي ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة

العصر من يوم عرفة ، فيقفون بصحون المساجد ، كبيت المقدس وجامع بني أمية وسواها ، ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة . ويتوخون الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات ، ولا يزالون في خضوع ودعاء وابتهال ، وتوسل الى الله تعالى بحجاج بيته الى أن تغيب الشمس ، فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات ، داعين الى الله تعالى أن يوصلهم اليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه .

ولهم أيضا في اتباع الجنائز رتبة عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة ، والقراء يقرؤون القرآن بالأصوات الحسنة ، والتلاحين المبكية ، التي تكاد النفوس تطير لها رقة .

وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع ، قبالة المقصورة . فان كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنه أو خدامه أدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه ، وان كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد ، وأدخلوا الجنازة . وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد ، فيجلسون وأمامهم ربعات القرآن يقرؤون فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ، ويقولون باسم الله ، فلان الدين ، من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك . فاذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون : افتكروا واعتبروا ، صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ، ويصفونه بصفات من الخير ، ثم يصلون عليه ويذهبون به الى مدفنه .

ولأهل الهند رتبة عجيبة في الجنائز أيضا ، زائدة على ذلك : وهي أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه ، وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ، ويكسى القبر بالأكسية الفاخرة ، وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين والياسمين ، وذلك النوار لا ينقطع عندهم .

ويأتون بأشجار الليمون والأترج ، ويجعلون فيها حبوبا ان لم تكن فيها ، ويجعل سرادق يظلل الناس نحوه ، ويأتي القضاة والأمراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ، ويؤتى بالربعات الكرام ، فيأخذ كل واحد منهم جزءا . فاذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعو القاضي ويقوم قائما ، ويخطب خطبة معدة لذلك ، ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر ، ويذكر أقاربه ويعزيهم عنه ، ويذكر السلطان داعيا له . وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤوسهم الى سمت الجهة التي بها السلطان . ثم يقعد القاضي ، ويأتون بماء الورد ، فيصب على الناس صبا ، يبدأ بالقاضي ثم من يليه كذلك الى أن يعم الناس أجمعين . ثم يؤتى بأواني السكر ـ وهو الجلاب محلولا بالماء ـ فيسقون الناس منه ، ويبدؤون بالقاضي ومن يليه ، ثم يؤتى بالتانبول ، وهو اليقطين المندي ، وهم يعظمونه ويكرمون من يأتي لهم به . فاذا أعطى السلطان أحدا منه فهو أعظم من اعطاء الذهب والخلع . واذا مات الميت لم يأكل أهله التانبول في ذلك اليوم ، فيأخذ القاضي أو من يقوم مقامه أوراقا منه ، فيعطيها ولي الميت فيأكلها ، وينصرفون حينئذ . وسيأتي ذكر التانبول ان شاء الله تعالى .

ذكر سماعي بدمشق
ومن أجازني من أهلها

سمعت بجامع بني أمية ـ عمره الله بذكره ـ جميع صحيح الامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري رضي الله عنه ، على الشيخ المعمر ، رحلة الآفاق ، ملحق الأصاغر بالأكابر ، شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن حسن بن علي بن بيان الدين مقرىء الصالحي ، المعروف بابن الشحنة الحجازي ، في أربعة عشر مجلسا ، أولها

يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة ، وآخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه ، بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبي محمد القاسم بن يوسف البرزالي ، الاشبيلي الأصل ، الدمشقي ، في جماعة كبيرة كتب أسماءهم محمد بن طغريل ابن عبد الله بن الغزال الصيرفي ، بسماع الشيخ أبي العباس الحجازي لجميع الكتاب من الشيخ الامام سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحي بن علي بن المسيح بن عمران الربيعي البغدادي الزبيدي الحنبلي ، في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة من سنة ثلاثين وستمائة ، بالجامع المظفري بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق ، وباجازته في جميع الكتاب من الشيخين أبي الحسن محمد ابن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف القطيعي المؤرخ ، وعلي بن أبي بكر بن عبد الله بن روبة القلانسي العطار البغدادي . ومن «باب غيرة النساء ووجدهن» الى آخر الكتاب من أبي النجا عبد الله بن عمر بن علي ابن زيد بن اللتي الخزاعي البغدادي ، بسماع أربعتهم من الشيخ سديد الدين بن أبي الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن ابراهيم السجزى الهروي الصوفي ، في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغداد ، قال : أخبرنا الامام جمال الاسلام أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الداودي ، قراة عليه وأنا أسمع ، ببوشنج سنة خمس وستين وأربعمائة ، قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوية بن يوسف بن أعين السرخسي ، قراءة عليه وأنا أسمع ، في صفر سنة احدى وثمانين وثلاثمائة ، قال : أخبرنا عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن ابراهيم الفربري ، قراءة عليه وأنا أسمع ، سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر ، قال : أخبرنا الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري رضي الله عنه سنة ثمان وأربعين ومائتين بفربر ،

ومـرة ثـانيـة بعدهـا سنـة ثـلاث وخمسيـن .

وممن أجازني من أهل دمشق اجازة عامة الشيخ أبو العباس الحجازي المذكور ، سبق الى ذلك وتلفظ لي به .

ومنهم الشيخ الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي ، ومولده في ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وستمائة .

ومنهم الشيخ الامام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدي .

ومنهم امام الأئمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزني الكلبي ، حافظ الحفاظ .

ومنهم الشيخ الامام علاء الدين علي بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي ، والشيخ الامام الشريف محي الدين يحي بن محمد بن علي العلوي .

ومنهم الشيخ الامام المحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله بن المعلي الدمشقي ، ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة .

منهم الشيخ الامام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم بن فلاح بن محمد الاسكندري .

ومنهم الشيخ الامام ولي الله تعالى شمس الدين بن عبد الله بن تمام ، والشيخان الأخوان : شمس الدين محمد ، وكمال الدين عبد الله ، ابنا ابراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي ، والشيخ العابد شمس الدين محمد ابن أبي الزهراء بن سالم المكاري ، والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم ابن سلامة الحراني ، والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي ...

كل هؤلاء أجازني اجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق .

ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازي الى خارج

دمشق ، ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة ، فأخذت في الحركة معهم . وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الأمراء ، وقاضيه شرف الدين الأذرعي الحوراني .

وحج في تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغماري . وكان سفري مع طائفة من العرب تدعىالعجارمة ، أميرهم محمد بن رافع ، كبير القدر في الأمراء .

وارتحلنا من الكسوة الى قرية تعرف بالصنمين عظيمة . ثم ارتحلنا منها الى بلدة زرعة ، وهي صغيرة من بلاد حوران . نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا الى مدينة بصرى ، وهي صغيرة . ومن عادة الركب أن يقيم بها أربعا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه .

والى بصرى وصل رسول الله ﷺ قبل البعث في تجارة خديجة ، وبها مبرك ناقته ، قد بنى عليه مسجد عظيم . ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة ، ويتزود الحاج منها ثم يرحلون الى بركة زيزي ، ويقيمون عليها يوما ، ثم يرحلون الى اللجون وبها الماء الجاري ، ثم يرحلون الى حصن الكرك ، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ، ويسمى بحصن الغراب ، والوادي يطيف به من جميع جهاته . وله باب واحد قد نحت المدخل اليه في الحجر الصلد ومدخل دهليزه كذلك .

وبهذا الحصن يتحصن الملوك ، واليه يلجؤون في النوائب . وله لجأ الملك الناصر ، لأنه ولى الملك وهو صغير السن ، فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه ، فأظهر الملك الناصر أنه يريد الحج ، ووافقه الأمراء على ذلك . فتوجه الى الحج ، فلما وصل عقبة أيلة لجأ الى الحصن وأقام به أعواما الى أن قصده أمراء الشام واجتمعت عليه المماليك . وكان قد ولى الملك في تلك المدة بيبرس الششنكير ، وهو أمير الطعام ، وتسمى بالملك المظفر . وهو الذي بنى الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاه سعيد

السعداء ، التي بناها صلاح الدين بن أيوب . فقصده الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس الى الصحراء . فتبعته العساكر وقبض عليه ، وأتي به الى الملك الناصر فأمر بقتله فقتل . وقبض على سلار وحبس في جب حتى مات جوعا . ويقال أنه أكل جيفة من الجوع ، نعوذ بالله من ذلك .

وأقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام ، بموضع يقال له الثنية ، وتجهزوا لدخول البرية . ثم ارتحلنا الى معان وهو آخر بلاد الشام ، ونزلنا من عقبة الصوان الى الصحراء التي يقال فيها : داخلها مفقود وخارجها مولود . وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج ، وهي حسيان لا عمارة بها ، ثم الى وادي بلدح ، ولا ماء به .

وصف تبوك

ثم الى تبوك ـ وهو الوضع الذي غزاه رسول الله ﷺ ـ وفيها عين ماء كانت تبض بشيء من الماء ، فلما نزلها رسول الله ﷺ وتوضأ منها ، جادت بالماء المعين ، ولم يزل الى هذا العهد ببركة رسول الله ﷺ .

ومن عادة حجاج الشام أنهم اذا وصلوا منزل تبوك ، أخذوا أسلحتهم ، وجردوا سيوفهم ، وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم ، ويقولون : هكذا دخلها رسول الله ﷺ .

وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروى منها جميعهم ، ويقيمون أربعة أيام للراحة وارواء الجمال ، واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك .

ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين ، ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام ، يسقون منها الجمال ويملؤون الروايا والقرب ، ولكل أمير أو كبير حوض يسقي منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم ، وسواهم من الناس يتفق مع السقائين

على سقي جمله وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم .

ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البرية ، وفي وسطها الوادي الأخيضر كأنه وادي جهنم ، أعاذنا الله منها . وأصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب ، فانتشفت المياه ، وانتهت شربة الماء الى ألف دينار . ومات مشتريها وبائعها ، وكتب ذلك في بعض صخر الوادي .

ومن هنالك ينزلون بركة المعظم ، وهي ضخمة ، نسبتها الى الملك المعظم من أولاد أيوب . ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين وربما جف في بعضها .

وفي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون الى بئر الحجر : حجر ثمود . وهي كثيرة الماء ، ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم ، اقتداء بفعل رسول الله ﷺ حين مر بها في غزوة تبوك ، فأسرع براحلته وأمر ألا يستقى منها أحد .

وهنالك ديار ثمود في جبال من الصخر الأحمر منحوتة ، لها عتب منقوشة ، يظن رائيها أنها حديثة الصنعة . وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت ، ان في ذلك لعبرة .

ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك ، وبينهما أثر مسجد يصلي الناس فيه .

وبين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه . والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة ، يقيم بها الحجاج أربعا ، يتزودون ويغسلون ثيابهم ، ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ، ويستصحبون قدر الكفاية .

وأهل هذه القرية أصحاب أمانة ، واليها ينتهي تجار نصارى الشام لا يتعدونها ، ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه .

ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غد رحيلهم الوادي المعروف بالعطاس ، وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة ، هبت بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم الا اليسير ، وتعرف تلك السنة بسنة الأمير الجالقي .

ومنه ينزلون هدية ، وهي حسيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زعاق .

وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف .

طيبة مدينة رسول الله ﷺ وشرف وكرم

وفي عشي ذلك اليوم ، دخلنا الحرم الشريف وانتهينا الى المسجد الكريم ، فوقفنا بباب السلام مسلمين ، وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم ، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حن الى رسول الله ﷺ ، وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة . وأدينا حق السلام على سيد الأولين والآخرين ، وشفيع العصاة والمذنبين ، الرسول النبي الهاشمي الأبطحي محمد ﷺ تسليما ، وشرف وكرم ، وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وأبي حفص عمر الفاروق ، رضي الله عنهما .

وانصرفنا الى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى ، مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى ، حامدين الله تعالى على البلوغ الى معاهد رسوله الشريفة ، ومشاهده العظيمة المنيفة ، داعين ألا يجعل ذلك آخر عهدنا بها ، وأن يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت في سبيل الله سفرته .

ذكر مسجد رسول الله وروضته الشريفة

المسجد المعظم مستطيل ، تحف به من جهاته الأربع بلاطات دائرة

به ، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل . ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت . والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم .

وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله ، وهي مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت ، قد علاها تضيخ المسك والطيب مع طول الأزمان .

وفي الصفحة القبلية منها مسمار فضة ، هو قبالة الوجه الكريم . وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم ، مستدبرين القبلة ، فيسلمون وينصرفون يمينا الى وجه أبي بكر الصديق . ورأس أبي بكر رضي الله عنه عند قدمي رسول الله ﷺ . ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب ، ورأس عمر عند كتفي أبي بكر رضي الله عنهما .

وفي الجوف من الروضة المقدسة زادها الله طيبا ، حوض صغير مرخم في قبلته شكل محراب ، يقال أنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تسليما ، ويقال أيضا : هو قبرها ، والله أعلم .

وفي وسط المسجد الكريم دفة مطبقة على وجه الأرض مقفلة على سرداب له درج يفضي الى دار أبي بكر رضي الله عنه خارج المسجد ، وعلى ذلك السرداب كان طريق بنته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها الى داره . ولا شك أنه هو الخوخة التي ورد ذكرها في الحديث ، وأمر النبي ﷺ تسليما بابقائها وسد ما سواها . وبازاء دار أبي بكر رضي الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما .

وبشرقي المسجد الكريم دار امام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه .

وبمقربة من باب السلام سقاية ينزل اليها على درج . ماؤها معين وتعرف بالعين الزرقاء .

ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم

قدم رسول الله ﷺ تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الأول ، فنزل على بني عمرو ابن عوف ، وأقام عندهم اثنتين وعشرين ليلة ، وقيل أربع عشرة ليلة ، وقيل أربع ليال . ثم توجه الى المدينة فنزل على بني النجار بدار أبي أيوب الأنصارى رضي الله عنه ، وأقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده .

وكان موضع المسجد مربدا لسهل وسهيل ابني رافع بن أبي عمر بن عائد بن ثعلبة بن غانم بن مالك بن النجار ، وهما يتيمان في حجر أسعد بن زرارة ، رضي الله عنهم أجمعين . وقيل كانا في حجر أبي أيوب رضي الله عنه . فابتاع رسول الله ﷺ تسليما ذلك المربد ، وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه ، وقيل أنهما وهباه لرسول الله ﷺ تسليما ، فبنى رسول الله ﷺ تسليما المسجد ، وعمل فيه مع أصحابه ، وجعل عليه حائطا ، ولم يجعل له سقفا ولا أساطين ، وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك ، وقيل أن عرضه كان دون ذلك ، وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة . فلما اشتد الحر تكلم أصحابه في سقفه ، فأقام له أساطين من جذوع النخل ، وجعل سقفه من جريدها . فلما أمطرت السماء وكف المسجد ، فكلم أصحاب رسول الله ﷺ تسليما ، رسول الله ﷺ في عمله بالطين فقال : «كلا ، عريش كعريش موسى ؟ (أو : ظلة كظلة موسى ؟) والأمر أقرب من ذلك!» .

قيل : وما ظلة موسى ؟

قال ﷺ : كانَ اذا قام أصاب السقف رأسه .

وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ، ثم سد الجنوبي منها حين حولت القبلة ، وبقي المسجد على ذلك حياة رسول الله ﷺ تسليما وحياة أبي بكر رضي الله عنه .

فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد في مسجد رسول الله ﷺ تسليما . وقال : لولا أني سمعت رسول الله ﷺ تسليما يقول : ينبغي أن نزيد في المسجد ... ما زدت فيه .

فأنزل أساطين الخشب وجعل مكانها أساطين اللبن ، وجعل الأساس حجارة الى القامة ، وجعل الأبواب ستة ، منها في كل جهة ـ عدا القبلة ـ بابان . وقال في باب منها : ينبغي أن يترك هذا للنساء ، فما رؤي فيه حتى لقي الله عز وجل . وقال : لو زدنا في هذا المسجد حتى يبلغ الجبانة لم يزل مسجد رسول الله ﷺ .

وأراد عمر أن يدخل في المسجد موضعا للعباس عم رسول الله ﷺ تسليما ورضي عنهما ، فمنعه منه ، وكان فيه ميزاب يصب في المسجد فنزعه عمر وقال أنه يؤذي الناس ، فنازعه العباس ، وحكما بينهما أبي بن كعب رضي الله عنهما ، فأتيا داره فلم يأذن لهما الا بعد ساعة ، ثم دخلا اليه فقال : كانت جاريتي تغسل رأسي . فذهب عمر ليتكلم فقال له أبي : دع أبا الفضل يتكلم ، لمكانه من رسول الله ﷺ تسليما .

فقال العباس : خطة خطها لي رسول الله ﷺ تسليما ، وبنيتها معه ، وما وضعت الميزاب الا ورجلاي على عاتقي رسول الله ﷺ ، فجاء عمر فطرحه وأراد ادخالها في المسجد .

فقال أبي : ان عندي من هذا علما ... سمعت رسول الله ﷺ تسليما يقول : أراد داود عليه السلام أن يبني بيت الله المقدس ، وكان فيه بيت ليتيمين ، فراودهما على البيع فأبيا ، ثم راودهما فباعاه ، ثم قاما بالغبن فرد البيع واشتراه منهما ، ثم رداه كذلك ، فاستعظم داود الثمن ، فأوحى الله اليه : ان كنت تعطي من شيء هو لك فأنت أعلم ، وان كنت تعطيها من رزقنا فأعطهما حتى يرضيا . وان أغنى البيوت عن مظلمة بيت هو لي ، وقد حرمت عليك بناءه .

قال : يا رب فأعطه سليمان .

فأعطاه سليمان عليه السلام .

فقال عمر : من لي بأن رسول الله ﷺ تسليما قاله ؟

فخرج أبي الى قوم من الأنصار فأثبتوا له ذلك ، فقال عمر رضي الله عنه : أما اني لو لم أجد غيرك أخذت قولك ، ولكنني أحببت أن أثبت .

ثم قال للعباس رضي الله عنه : والله لا ترد الميزاب الا وقدماك على عاتقي ...

ففعل العباس ذلك ثم قال : أما اذا أثبتت لي فهي صدقة لله ... فهدمها عمر وأدخلها في المسجد :

ثم زاد فيه عثمان رضي الله عنه ، وبناه بقوة وباشره بنفسه ، فكان يظل فيه نهاره ، ويبيضه وأتقن محله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته ، الا جهة الشرق منها ، وجعل له سواري حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج وصنع له محرابا .

وقيل أن مروان هو أول من بنى المحراب ، وقيل عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد . ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك ، تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه وحسنه وبالغ في اتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب .

وكان الوليد بعث الى ملك الروم : إني أريد أن أبني مسجد نبينا ﷺ تسليما فأعنى فيه . فبعث اليه الفعلة وثمانين ألف مثقال من الذهب .

وأمر الوليد بادخال حجر أزواج النبي ﷺ تسليما فيه ، فاشترى عمر من الدور ما زاده في ثلاث جهات من المسجد . فلما صار الى القبلة امتنع عبيد الله بن عبد الله ابن عمر حتى ابتاعها عمر على أن لهم ما بقي منها ، وعلى أن يخرجوا من باقيها طريقا الى المسجد ، وهي الخوخة التي في المسجد .

وجعل عمر للمسجد أربع صوامع في أربعة أركانه ، وكانت احداها مطلة على دار مروان . فلما حج سليمان بن عبد الملك نزل بها ، فأطل عليه المؤذن حين الأذان فأمر بهدمها .

وجعل عمر للمسجد محرابا ، ويقال : هو أول من أحدث المحراب .

ثم زاد فيه المهدي بن أبي جعفر المنصور ، وكان أبوه همّ بذلك ولم يقض له . وكتب اليه الحسن بن زيد يرغبه في الزيادة فيه من جهة الشرق ، ويقول : أنه ان زيد في شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم . فاتهمه أبو جعفر بأنه انما أراد هدم دار عثمان رضي الله عنه ، فكتب اليه : اني قد عرفت الذي أردت ، فاكفف عن دار عثمان . وأمر أبو جعفر أن يظلل الصحن أيام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون في الصحن ، لتكن المصلين من الحر .

وكان طول المسجد في بناء الوليد مائتي ذراع ، فبلغه المهدي الى ثلثمائة ذراع ، وسوى المقصورة بالأرض ، وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين ، وكتب اسمه على مواضع من المسجد .

ثم أمر الملك المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام ، فتولى بناءها الأمير الصالح علا الدين المعروف بالأقمر ، وأقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت ، وأجرى اليها الماء . وأراد أن يبني بمكة - شرفها الله تعالى - مثل ذلك فلم يتم له ، فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة ، وسيذكر ان شاء الله .

وقبلة مسجد رسول الله ﷺ تسليما قبلة قطع لأنه ﷺ تسليما أقامها ، وقيل : أقامها جبريل عليه السلام ، وقيل : كان يشير جبريل له الى سمتها وهو يقيمها . وروى أن جبريل عليه السلام أشار الى الجبال فتواضعت وتنحت حتى بدت الكعبة ، فكان ﷺ تسليما يبني وهو ينظر اليها عيانا . وبكل اعتبار فهي قبلة قطع . وكانت القبلة أول ورود النبي

ﷺ تسليما المدينة الى بيت المقدس ، ثم حولت الى الكعبة بعد ستة عشر شهرا ، وقيل بعد سبعة عشر شهرا .

ذكر المنبر الكريم

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ تسليما كان يخطب الى جدع نخلة بالمسجد ، فلما صنع له المنبر وتحول اليه حن الجذع حنين الناقة الى حوارها . وروى أن رسول الله ﷺ تسليما نزل اليه فالتزمه فسكن . وقال : لو لم ألتزمه لحن الى يوم القيامة .

واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم . فروى أن تميما الداري رضي الله عنه هو الذي صنعه ، وقيل أن غلاما للعباس رضي الله عنه صنعه ، وقيل : غلام لامرأة من الأنصار ، وورد ذلك في الحديث الصحيح .

وصنع من طرفاء الغابة ، وقيل من الأثل . وكان له ثلاث درجات ، فكان رسول الله ﷺ يقعد على علياهن ، ويضع رجليه الكريمتين في وسطاهن . فلما ولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قعد على وسطاهن وجعل رجليه على أولاهن . فلما ولى عمر رضي الله عنه جلس على أولاهن وجعل رجليه على الأرض . وفعل ذلك عثمان رضي الله عنه صدر من خلافته ، ثم ترقى الى الثالثة .

ولما أن صار الأمر إلى معاوية رضي الله عنه أراد نقل المنبر الى الشام ، فضج المسلمون وعصفت ريح شديدة وخسفت الشمس وبدت النجوم نهارا وأظلمت الأرض فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلكه .

فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله ، فبلغ تسع درجات .

ذكر الخطيب والامام بمسجد رسول الله ﷺ

وكان الامام بالمسجد الشريف في عهد دخولي الى المدينة ، بهاء الدين بن سلامة ، من كبار أهل مصر ، وينوب عنه العالم الصالح الزاهد ، بقية المشايخ ، عز الدين الواسطي نفع الله به . وكان يخطب قبله ، ويقضي بالمدينة الشريفة ، سراج الدين عمر المصري .

حكاية سراج الدين وحلمه

يذكر أن سراج الدين هذا أقام في خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة . ثم أنه أراد الخروج بعد ذلك الى مصر فرأى رسول الله ﷺ في النوم ثلاث مرات ، في كل مرة ينهاه عن الخروج منها ، وأخبره باقتراب أجله ، فلم ينته عن ذلك ، وخرج فمات بموضع يقال له سويس ، على مسيرة ثلاث من مصر قبل أن يصل اليها . نعوذ بالله من سوء الخاتمة .

وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد ابن فرحون رحمه الله : وابناه الآن بالمدينة الشريفة : أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ونائب الحكم ، وأبو عبد الله محمد . وأصلهم من مدينة تونس ، ولهم بها حسب وأصالة .

وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الأسيوطي من أهل مصر ، وكان قبل ذلك قاضيا بحصن الكرك .

ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به

وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم . وهم على هيئات حسان وصور نظاف وملابس ظراف . وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام . وهو في هيئة الأمراء الكبار . ولهم المرتبات بديار مصر والشام ، ويؤتى اليهم بها في كل سنة .

ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطري ، من مطرية ، قرية بمصر ، وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله ، والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس ، قديم المجاورة . وهو الذي جبّ نفسه خوفا من الفتنة .

حكاية الشيخ الذي جب نفسه

يذكر أن أبا عبد الله الغرناطي كان خادما لشيخ يسمى عبد الحميد العجمي ، وكان الشيخ حسن الظن به ، يطمئن اليه بأهله وماله ، ويتركه متى سافر بداره ، فسافر مرة وتركه على رادته بمنزله ، فعلقت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه ، فقال : اني أخاف الله ولا أخون من ائتمنني على أهله وماله .

فلم تزل تراوده وتعارضه حتى خاف على نفسه الفتنة ، فجب نفسه ، وغشى عليه ، ووجده الناس على تلك الحالة فعالجوه حتى برىء وصار من خدام المسجد الكريم ومؤذنا به ، ورأس الطائفتين ، وهو باق بقيد الحياة الى هذا العهد .

ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة

منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق ، كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله ﷺ تسليما ، صابرا محتسبا .

وكان ربما جاور بمكة المعظمة ، رأيته بها في سنة ثمان وعشرين وهو أكثر الناس طوافا ، وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف ، والمطاف مفروش بالحجارة السود ، وتصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحماة . ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذي يصب فيه الا ويلتهب الموضع من حينه . وأكثر الطائفين في ذلك

الوقت يلبسون الجوارب ، وكان أبو العباس مرزوق يطوف حافي القدمين . ورأيته يوما يطوف ، فأحببت أن أطوف معه ، فوصلت المطاف وأردت استلام الحجر الأسود فلحقني لهب تلك الحجارة ، وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته الا بعد جهد عظيم ، ورجعت فلم أطف ، وكنت أجعل بجادي على الأرض وأمشي عليه حتى بلغت الرواق .

وكان في ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد بن محمد بن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الأزدي ، وكان يطوف كل يوم سبعين أسبوعا . ولم يكن يطوف في وقت القائلة لشدة الحر . وكان ابن مرزوق يطوف في شدة القائلة زيادة عليه ...

ومن المجاورين بالمدينة ـ كرمها الله ـ الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشي الكفيف .

ومنهم الشيخ أبو المهدي عيسى بن حزرون المكناسي .

حكاية شيخ ضاع في الجبال

جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين ، وخرج الى جبل حراء مع جماعة من المجاورين ، فلما صعدوا الجبل ووصلوا لمتعبد النبي ﷺ تسليما ونزلوا عنه تأخر أبو مهدي عن الجماعة ، ورأى طريقا في الجبل فظنه قاصرا فسلك عليه ، ووصل أصحابه الى أسفل الجبل فانتظروه فلم يأت ، فتطلعوا فيما حولهم فلم يروا له أثرا فظنوا أنه سبقهم ، فضوا الى مكة شرفها الله تعالى .

ومر عيسى على طريقه فأفضى به الى جبل آخر ، وتاه عن الطريق ، وأجهده العطش والحر ، وتمزقت نعله فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجليه الى أن ضعف عن المشي ، واستظل بشجرة أم غيلان ، فبعث الله

اعرابيا على جمل حتى وقف عليه فأعلمه بحاله فأركبه وأوصله الى مكة ، وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلمه اليه ، وأقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه ، وذهبت جلدتها ونبتت لها جلدة أخرى ... وقد جرى مثل ذلك لصاحب لي أذكره ان شاء الله .

ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروي من القراء المحسنين . وجاور بمكة في السنة المذكورة ، وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضي عياض بعد صلاة الظهر ، وأم في التروايح بها .

ومن المجاورين الفقيه أبو العباس مدرس المالكية بها ، وتزوج ببنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندي .

حكايــة المرتكب العظيمة

يذكر أن أبا العباس الفاسي تكلم يوما مع بعض الناس ، فانتهى به الكلام الى أن يتكلم بعظيمة ارتكب فيها ـ بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه ـ مركبا صعبا ، عفا الله عنه ، فقال : ان الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام لم يعقب ، فبلغ كلامه الى أمير المدينة طفيل بن منصور بن جماز الحسني فأنكر كلامه (ويحق انكاره) وأراد قتله فكلم فيه فنفاه عن المدينة ، ويذكر أنه بعث من اغتاله ، والى الآن لم يظهر له أثر ... نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلله .

ذكــر أميــر المدينــة الشريفــة

كان أمير المدينة كبيش بن منصور بن جماز ، وكان قد قتل عمه مقبلا . ويقال : أنه توضأ بدمه . ثم ان كبيشا خرج سنة سبع وعشرين الى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه . فأدركتهم القائلة في بعض الأيام ، فتفرقوا تحت ظلال الأشجار ، فما راعهم الا وأبناء مقبل في جماعة من

عبيدهم ينادون : بالثارات مقبل ! فقتلوا كبيش بن منصور صبرا ، ولعقوا دمه . وتولى بعده أخوه طفيل ابن منصور الذي ذكرنا أنه نفى أبا العباس الفاسي .

ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة

فمنها بقيع الغرقد ، وهو بشرقي المدينة المكرمة ، ويخرج اليه على باب يعرف بباب البقيع .

فأول ما يلقى الخارج اليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها ، وهي عمة رسول الله ﷺ تسليما ، وأم الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وأمامها قبر امام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه ، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء . وامامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة ، ابراهيم بن رسول الله ﷺ تسليما ، وعليه قبة بيضاء . وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وهو المعروف بأبي شحمة . وبازائه قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقبر عبد الله بن ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما . وبازائهم روضة يذكر أن قبور أمهات المؤمنين بها ، رضي الله عنهن . ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب ، عليهم السلام . وهي قبة ذاهبة في الهواء ، بديعة الاحكام عن يمين الخارج من باب البقيع . ورأس الحسن الى رجلي العباس عليهما السلام . وقبراهما مرتفعان عن الأرض ، متسعان مغشيان بألواح بديعة الالصاق مرصعة بصفائح الصفر البديعة العمل .

وبالبقيع قبور المهاجرين والأنصار ، وسائر الصحابة رضي الله عنهم ، الا أنها لا يعرف أكثرها .

وفي آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبي عمر عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وعليه قبة كبيرة .

وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب رضي الله عنها وعن ابنها .

ومن المشاهد الكريمة قباء ، وهو قبلي المدينة على نحو ميلين منها ، والطريق بينها في حدائق النخل ، وبه المسجد الذي أسس على التقوى والرضوان ، وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة ، تظهر على البعد ، وفي وسطه مبرك الناقة بالنبي ﷺ تسليما ، يتبرك الناس بالصلاة فيه . وفي الجهة القبلية من صحنه محراب على مصطبة ، هو أول موضع ركع فيه النبي ﷺ تسليما .

وفي قبلي المسجد دار كانت لأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، ويليها دور تنسب لأبي بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضي الله عنهم :

وبازائه بئر أريس ، وهي التي عاد ماؤها عذبا لما تفل فيه النبي ﷺ تسليما بعد أن كان أجاجا ، وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضي الله عنه .

ومن المشاهد قبة حجر الزيت بخارج المدينة الشريفة ، يقال أن الزيت رشح من حجر هنالك للنبي ﷺ تسليما .

والى جهة الشمال بئر بضاعة .

وبازائها جبل الشيطان ، حيث صرخ يوم أحد وقال : قتل نبيكم !

وعلى شفير الخندق الذي حفره رسول الله ﷺ تسليما عند تحزب الأحزاب حصن خرب ، يعرف بحصن العزاب ، يقال أن عمر بناه لعزاب المدينة .

وأمامه الى جهة الغرب بئر رومة التي اشترى أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه نصفها بعشرين ألفا .

ومن المشاهد الكريمة أحد ، وهو الجبل المبارك الذي قال فيه رسول الله ﷺ تسليما : أن أحدا جبل يحبنا ونحبه . وهو بجوار المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها ، وبازائه الشهداء المكرمون رضي الله عنهم .

وهنالك قبر حمزة عم رسول الله ﷺ تسليما ، ورضي عنه ، وحوله الشهداء المستشهدون في أحد رضي الله عنهم ، وقبورهم لقبلى أحد .

وفي طريق أحد مسجد ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومسجد ينسب الى سلمان الفارسي رضي الله عنه ، ومسجد الفتح ، حيث أنزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ تسليما .

وكانت اقامتنا بالمدينة الشريفة في هذه الوجهة أربعة أيام ، وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم ، والناس قد حلقوا في صحنه حلقا وأوقدوا الشمع الكثير ، وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه ، وبعضهم يذكرون الله ، وبعضهم في مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيبا ، والحداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله ﷺ تسليما ، وهكذا دأب الناس في تلك الليالي المباركة ، ويجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين .

وكان في صحبتي في هذه الوجهة من الشام الى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل ، يعرف بمنصور بن شكل ، وأضافني بها ، واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخارى . وكان في صحبتي أيضا قاضي الزيدية شرف الدين قاسم بن سنان . وصحبني أيضا أحد الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة ، يسمى بعلى بن حجر الأموي .

حكاية الهاتف بالليل

لما وصلنا الى المدينة ، كرمها الله ، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ذكرلي علي بن حجر هذا أنه رأى تلك الليلة في النوم قائلا يقول له : اسمع مني وأحفظ عني :

هنيئــــا لكم يـــا زائرين ضريحــــه
أمنتم بــــه يــوم المعــــاد من الرجس
وصلتم الى قبر الحبيب بطيبـــــــــــة
فطـــوبي لمن يضحي بطيبـــــة أو يسى

وجاوز هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ، ثم رحل الى مدينة دهلى قاعدة بلاد الهند ، في سنة ثلاث وأربعين ، فنزل في جواري . وذكرت حكاية رؤياه بين يدي ملك الهند ، فأمر باحضاره ، فحضر بين يديه وحكى له ذلك ، فأعجبه واستحسنه ، وقال له كلاما جميلا بالفارسية ، وأمر بانزاله وأعطاه ثلثمائة تنكة من ذهب ، ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار ، وأعطاه فرسا محلي للسرج واللجام ، وخلعة ، وعين له مرتبا في كل يوم .

وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة ومولده ببجاية ، يعرف هنالك بجمال الدين المغربي ، فصحه على بن حجر وواعده على أن يزوجه بنته ، وأنزله بدويرة خارج داره، واشترى جارية وغلاما . وكان يترك الدنانير في مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لأحد . فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب ، وأخذاه وهربا ، فلما أتى الدار لم يجد لهما أثرا ، ولا للذهب . فامتنع عن الطعام والشراب ، واشتد به المرض أسفا على ما جرى عليه . فعرضت قضيته بين يدي الملك ، فأمر أن يخلف له ذلك ، فبعث اليه من يعلمه بذلك ، فوجده قد مات ... رحمه الله تعالى .

وصف الطريق الى مكة

وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة شرفها الله تعالى . فنزلنا بقرب مسجد ذي الحليفة الذي أحرم منه رسول الله ﷺ تسليما ، والمدينة منه على خمسة أميال . وهو منتهى حرم المدينة . وبالقرب منه وادي

العقيق . وهناك تجردت من مخيط الثياب ، واغتسلت ولبست ثوب احرامي ، وصليت ركعتين ، وأحرمت بالحج مفردا .

ولم أزل ملبيا في كل سهل وجبل وصعود وحدور ، الى أن أتيت شعب علي عليه السلام ، وبه نزلت تلك الليلة .

ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء ، وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم ، ويقال أن عليا عليه السلام قاتل بها الجن .

ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء ، وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان ، وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم ، وفيها حصن كبير ، وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة .

ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله ﷺ تسليما ، وأنجز وعده الكريم ، واستأصل صناديد المشركين . وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة ، وبها حصن منيع ، يدخل اليه من بطن واد بين جبال . وببدر عين فوارة يجري ماؤها . وموضع القليب الذي سحب به أعداء الله المشركون هو اليوم بستان ، وموضع الشهداء رضي الله عنهم خلفه . وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه الى الصفراء . وبازائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل ممتد . ويزعم أهل تلك البلدة أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول في كل ليلة جمعة .

وموضع عريش رسول الله ﷺ ، الذي كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى ، متصل بسفح جبل الطبول ، وموضع الوقيعة أمامه . وعند نخل القليب مسجد يقال له : مبرك ناقة النبي ﷺ تسليما . وبين بدر والصفراء نحو بريد في واد بين جبال تطرد فيه العيون ، وتتصل حدائق النخل .

ورحلنا من بدر الى الصحراء المعروفة بقاع البزواء ، وهي برية يضل بها الدليل ، ويذهل عن خليله الخليل ، مسيرة ثلاث ، وفي منتهاها

وادي رابغ ، يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا ، ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب ، وهو دون الجحفة .

وسرنا من رابغ ثلاثا الى خليص ، ومررنا بعقبة السويق . وهي على مسافة نصف يوم من خليص ، كثيرة الرمل ، والحجاج يقصدون شرب السويق بها ، ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك ، ويسقونه الناس مخلوطا بالسكر . والأمراء يملؤون منه الأحواض ويسقونها الناس .

ويذكر أن رسول الله ﷺ مر بها ، ولم يكن مع أصحابه طعام ، فأخذ من رملها فأعطاهم اياه فشربوه سويقا ...

ثم نزلنا بركة خليص ، وهي في بسيط من الأرض كثيرة حدائق النخل ، لها حصن مشيد في قنة جبل . وفي البسيط حصن خرب ، وبها عين فوارة قد صنعت لها أخاديد في الأرض وسربت الى الضياع . وصاحب خليص شريف حسني النسب . وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقا عظيمة يجلبون اليها الغنم والتمر والادام .

ثم رحلنا الى عسفان ، وهي في بسيط من الأرض بين جبال ، وبها آبار ماء معين ، تنسب احداها الى عثمان ابن عفان رضي الله عنه . والمدرج المنسوب الى عثمان أيضا على مسافة نصف يوم من خليص ، وهو مضيق بين جبلين ، وفي موضع منه بلاط على صورة درج ، وآثر عمارة قديمة . وهنالك بئر تنسب الى علي عليه السلام ، ويقال أنه أحدثها ، وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد ، قد أوهنه الخراب ، وبه من شجر المقل كثير .

ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مر ، ويسمى أيضا مر الظهران وهو واد مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقى تلك الناحية . ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر الى مكة شرفها الله تعالى .

ثم أدلجنا من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها ،

مسرورة بحالها ومآلها ، فوصلنا عند الصباح الى البلد الأمين ... مكة شرفها الله تعالى ، فوردنا منها على حرم الله تعالى ومبدأ خليله ابراهيم ، ومبعث صفيه محمد ﷺ .

ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمنا ، من باب بني شيبة ، وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما ، وهي كالعروس تتجلى على منصة الجلال ، وترفل في برود الجمال ، محفوفة بوفود الرحمن ، موصلة الى جنة الرضوان . وطفنا بها طواف القدوم ، واستلمنا الحجر الكريم ، وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم ، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم ، بين الباب والحجر الأسود ، حيث يستجاب الدعاء . وشربنا من ماء زمزم ، وهو لما شرب له ، على ما ورد عن النبي ﷺ تسليما .

ثم سعينا بين الصفا والمروة ، ونزلنا هنالك بدار بمقربة من باب ابراهيم . والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم ، وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم ، ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم ، وزمزم والحطيم .

ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع الى هذه المشاهد المنيفة ، والشوق الى المثول بمعاهدها الشريفة ، وجعل حبها متمكنا في القلوب ، فلا يحل بها أحد الا أخذت بجامع قلبه ، ولا يفارقها الا أسفا لفراقها ، متولها لعباده عنها ، شديد الحنين اليها ، ناويا لتكرار الوفادة عليها . فأرضها المباركة نصب الأعين ، ومحبتها حشو القلوب ... حكمة من الله بالغة ، وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام . والشوق يحضرها وهي نائية ، ويمثلها وهي غائبة ، ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق ، ويعانيه من العناء .

وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها ، ويشاهد التلف في طريقها ، فاذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا ، كأنه لم

يـذق لـهـا مـرارة ، ولا كـابـد مـحنـة ولا نـصبـا !

انه لأمر الهي وصنع رباني ، ودلالـة لا يشوبها لبس ، ولا تغشاها شبهة ، ولا يطرقها تمويـه ، وتعز في بصيرة المستبصرين ، وتبـدو في فكر المتفكرين . ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلـك الأرجـاء ، والمثول بـذلـك الفناء ، فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى ، وخوله خير الدارين : الـدنيا والأخرى . فحق عليه أن يكثر الشكر على مـا خولـه ، ويـديم الحمـد على ما أولاه .

جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيـارتـه ، وربحت في قصـدهـا تجـارتـه ، وكتبت في سبيل الله آثاره ، ومحيت بالقبول أوزاره ، بمنه وكرمه .

ذكـر مدينـة مكـة المعظمـة

وهي مدينة كبيرة متصلـة البنيـان ، مستطيلـة في بطن واد تحف بـه الجبال ، فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها . وتلك الجبـال المطلـة عليها ليست بمفرطة الشموخ . والأخشبان من جبالها هما جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب منهـا ، وجبل قعيقعـان . وفي الشمال منهـا الجبـل الأحمر . ومن جهـة أبي قبيس أجيـاد الأكبر وأجيـاد الأصغر ، وهمـا شعبـان ، والخندمة ، وهي جبل .

والمناسك كلها ـ منى وعرفة والمزدلفة ـ بشرقي مكة شرفها الله .

ولمكة من الأبواب ثلاثة : باب المعلى بـأعلاهـا ، وبـاب الشبيكـة من أسفلهـا ، ويعرف أيضـا بيـاب الـزاهر وبيـاب العمرة ، وهـو الى جهـة المغرب ، وعليـه طريـق المـدينـة الشريفـة ومصر والشام وجـدة ، ومنـه يتـوجـه الى التنعيم ، وسيـذكر ذلـك . وبـاب المسفلـة ، وهـو من جهـة الجنوب ، ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح .

ومكـة شرفهـا الله ـ كما أخبر الله في كتـابـه العزيـز حـاكيـا عن نبيـه

الخليل - بواد غير ذي زرع ، ولكن سبقت لها الدعوة المباركة ، فكل طرفة تجلب اليها ، وثمرات كل شيء تجبى اليها . ولقد أكلت بها من الفواكه : العنب ، والتين ، والخوخ ، والرطب ما لا نظير له في الدنيا . وكذلك البطيخ المجلوب اليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة . واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم . وكل ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه . وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ، ووادي نخلة ، وبطن مر الظهران ،لطفا من الله بسكان حرمه الأمين ومجاوري بيته العتيق .

وصف المسجد الحرام شرفه الله وكرمه

والمسجد الحرام في وسط البلد ، وهو متسع الساحة ، طوله من شرق الى غرب أزيد من أربعمائة ذراع (حكى ذلك الأزرقي) ، وعرضه يقرب من ذلك . والكعبة العظمى في وسطه . ومنظره بديع ، ومرآه جميل ، لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ، ولا يحيط الواصف بحسن كماله .

وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا ، وسقفه على أعمدة طوال ، مصطفة ثلاثة صفوف ، بأتقن صناعة وأجملها . وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا ، كأنها بلاط واحد . وعدد سواريه الرخامية أربعمائة واحدى وتسعون سارية ، ما عدا الجصية التي في دار الندوة المزيدة في الحرم . وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال ، ويقابلها المقام مع الركن العراقي . وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط اليه .

ويتصل بجدار هذا البلاط مصاطب تحت قسي حنايا ، يجلس بها المقرؤون ، والنساخون والخياطون . وفي جدار البلاط الذي يقابله مصاطب تماثلها . وسائر البلاطات تحت جدرانها مصاطب بدون حنايا . وعند باب ابراهيم مدخل من البلاط الغربي فيه سوار جصية .

وللخليفة المهدي محمد ابن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنهما

آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام ، واحكام بنائه . وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب : «أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته ، في سنة سبع وستين ومائة» .

ذكر الكعبة المعظمة الشريفة
زادها الله تعظيما وتكريما

والكعبة ماثلة في وسط المسجد ، وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ، ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعا ، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبرا ، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني الى الركن الشامي . وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا ، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي الى الركن العراقي . وأما خارج الحجر فانه مائة وعشرون شبرا .

والطواف انما هو خارج الحجر .

وبناؤها بالحجارة الصم السمر ، قد ألصقت بأبدع الالصاق وأحكمه وأشده ، فلا تغيرها الأيام ولا تؤثر فيها الأزمان .

وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الأسود والركن العراقي ، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار . وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء .

وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبرا ونصف شبر ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبرا ، وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار ، وهو مصفح بصفائح الفضة ، بديع الصنعة ، وعضادتاه وعتبته

العليا مصفحات بالفضة . وله نقارتان كبيرتان من فضة عليها قفل .

ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة ، ويفتح في يوم مولد رسول الله ﷺ تسليما . ورسمهم في فتحه أن يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب ، لها أربع بكرات يجري الكرسي عليها ، ويلصقونه الى جدار الكعبة الشريفة ، فيكون درجه الأعلى متصلا بالعتبة الكريمة ، ثم يصعد كبير الشيبيين وبيده المفتاح الكريم ، ومعه السدنة ، فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع ، بخلال ما يفتح رئيسهم الباب ، فاذا فتحه قبّل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده ، وسد الباب ، وأقام قدر ما يركع ركعتين .

ثم يدخل سائر الشيبيين ، ويسدون الباب أيضا ويركعون ، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول .

وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة ، وقلوب ضارعة ، وأيد مبسوطة الى الله تعالى .

فاذا فتح كبروا ونادوا : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين .

وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك ، وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج ، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطى . وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة ، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين العراقي والشامي .

وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض . وهي تتلألأ عليها نورا واشراقا ، وتكسو جميعها من الأعلى الى الأرض .

ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاص

بأمم لا يحصيها الا الله الذي خلقهم ورزقهم ، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم .

ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا ولا نهارا ، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف .

ومن عجائبها أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران . وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله ، فاذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها الى احدى الجهات ولم يعلها . ويقال أنه لا ينزل عليها طائر الا اذا كان به مرض ... فاما أن يموت لحينه أو يبرأ من مرضه ...

فسبحان الذي خصها بالتشريف والتكريم ، وجعل لها المهابة والتعظيم ...

*

ذكر الميزاب المبارك

والميزاب في أعلى الصفح الذي على الحجر ، وهو من الذهب وسعته شبر واحد ، وهو بارز بمقدار ذراعين ، والموضع الذي تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء .

وتحت الميزاب في الحجر قبر اسماعيل عليه السلام . وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب ، متصلة برخامة خضراء مستديرة ، وكلتاهما سعتها مقدار شبر ونصف شبر ، وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر .

والى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر عليها السلام ، وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف . وبين القبرين سبعة أشبار .

ذكـر الحجـر الأسـود

وأما الحجر الأسود فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار ، فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله ، والقصير يتطاول اليه .

وهو ملصق في الركن الذي الى جهة المشرق ، وسعته ثلثا شبر ، وطوله شبر وعقد ، ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن ، وفيه أربع قطع ملصقة .

ويقال أن القرمطي ، لعنه الله ، كسره ، وقيل أن الذي كسره سواه ، ضربه بدبوس فكسره ، فتبادر الناس الى قتله ، وقتل بسببه جماعة من المغاربة .

وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة ، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم ، فتجتلي منه العيون حسنا باهرا .

ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ، ويود لاثمه ألا يفارق لثمه ... خاصة مودعة فيه ، وعناية ربانية به . وكفى قول رسول الله ﷺ : انه يمين الله في أرضه . نفعنا الله باستلامه ومصافحته ، وأوفد عليه كل شيق اليه .

وفي القطعة الصحيحة من الحجر الأسود ، مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه ، نقطة بيضاء صغيرة مشرقة ، كأنها خال في تلك الصحيفة البهية . وترى الناس اذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله ، فقلما يتمكن أحد من ذلك الا بعد المزاحمة الشديدة ، وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم .

ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف ، وهو أول الأركان التي يلقاها الطائف ، اذا استلمه تقهقر عنه قليلا ، وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ، ومضى في طوافه ، ثم يلقى بعده الركن العراقي وهو إلى جهة الشمال ثم يلقى الركن الشامي وهو الى جهة الغرب ، ثم يلقى الركن

اليماني وهـو الى جهـة الجنـوب ، ثم يعـود الى الحجر الأسـود وهـو الى جهة الشرق .

ذكـر المقـام الكريـم

اعلم أن بين الكعبة ، شرفها الله ، وبين الركن العراقي موضعا طولـه اثنا عشر شبرا ، وعرضـه نحو النصف من ذلـك ، وارتفـاعـه نحو شبرين ، وهو موضع المقام في مـدة ابراهيم عليـه السـلام ، ثم صرفـه النبي ﷺ الى الموضوع الـذي هو الآن مصلى وبقي ذلـك الموضـع شبـه الحـوض ، واليـه ينصب مـاء البيت الكريم اذا غسل ، وهو موضع مبـارك يـزدحم النـاس للصلاة فيه .

وموضع المقـام الكريم يقـابل مـا بين الركن العراقي والبـاب الكريم ، وهو الى الباب أميل ، وعليه قبة تحتها شباك حـديـد متجـاف عن المقـام الكريم قـدر مـا تصل أصـابع الانسـان اذا أدخل يـده من ذلـك الشبـاك الى الصندوق .

والشبـاك مقفـل ، ومن ورائـه مـوضـع محـوزا قـد جعـل مصلى لركعتي الطواف .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ تسليمـا ، لمـا دخل المسجـد أتى البيت فطاف به سبعا ، ثم أتى المقـام فقرأ : «واتخـذوا من مقـام ابراهيم مصلى» ، وركع خلفه ركعتين .

وخلف المقام مصلى امام الشافعية في الحطيم الذي هنالك .

ذكـر الحجـر والمطـاف

ودور جـدار الحجر تسع وعشرون خطوة ، وهي أربعـة وتسعون شبرا من داخل الدائرة ، وهو بالرخام البديع الجزع المحكم الالصاق . وارتفـاعـه

خمسة أشبار ونصف شبر ، وسعته أربعة أشبار ونصف شبر ، وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المجزع المنظم المعجز الصنعة ، البديع الاتقان .

وبين جدار الكعبة الشريفة الذي تحت الميزاب ، وبين مايقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا .

وللحجرّ مدخلان : أحدهما بينه وبين الركن العراقي وسعته ست أذرع . وهذا الموضع هو الذي تركته قريش من البيت حين بنته ، كما جاءت الآثار الصحاح .

والمدخل الآخر عند الركن الشامي ، وسعته أيضا ست أذرع . وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبرا .

وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود ، محكمة الالصاق ، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطى ، الا في الجهة التي تقابل المقام الكريم ، فانها امتدت اليه حتى أحاطت به .

وسائر الحرم ، مع البلاطات ، مفروش برمل أبيض . وطواف النساء في آخر الحجرة المفروشة .

ذكر زمزم المباركة

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود ، وبينها أربع وعشرون خطوة .

والمقام الكريم عن يمين القبة ، ومن ركنها اليه عشر خطى . وداخل القبة مفروش بالرخام الأبيض .

وتنور البئر المباركة في وسط القبة مائلا الى الجدار المقابل للكعبة الشريفة ، وهو من الرخام البديع الالصاق ، مفرغ بالرصاص ، ودوره أربعون شبرا ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر .

وعمق البئر احدى عشرة قامة . وهم يذكرون أن ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة .

وباب القبة الى جهة الشرق ، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك ، وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار ، تملأ ماء للوضوء . وحولها مصطبة يقعد الناس عليها للوضوء .

ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة الى العباس رضي الله عنه ، وبابها الى جهة الشمال . وهي الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق ، وكل دورق له مقبض واحد ، وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشربه الناس .

وبها اختزان المصاحف الكريمة ، والكتب التي للحرم الشريف . وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه ، منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله ﷺ تسليما . وأهل مكة اذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الكريم ، وفتحوا باب الكعبة الشريفة ، ووضعوه على العتبة الشريفة ، ووضعوه في مقام ابراهيم عليه السلام ، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم ، داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز ، والمقام الكريم ، فلا ينفضون الا وقد تداركهم الله برحمته ، وتغمدهم بلطفه .

ويلي قبة العباس ، رضي الله عنه ، على انحراف منها ، القبة المعروفة بقبة اليهودية .

ذكر أبواب المسجد الحرام
وما دار به من المشاهد الشريفة

وأبواب المسجد الحرام ، شرفه الله تعالى ، تسعة عشر بابا . وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة .

فمنها باب الصفا ، وهو مفتح على خمسة أبواب ، وكان قديما يعرف بباب بني مخزوم ، وهو أكبر أبواب المسجد ، ومنه يخرج الى المسعى .

ويستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بني شيبة ، ويخرج بعد طوافه من باب الصفا ، جاعلا طريقه بين الأسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدي رحمه الله ، علما على طريق رسول الله ﷺ تسليما الى الصفا .

ومنها باب أجياد الأصغر ، مفتح على بابين .

ومنها باب الخياطين ، مفتح على بابين .

ومنها باب العباس رضي الله عنه ، مفتح على ثلاثة أبواب .

ومنها باب النبي ﷺ تسليما مفتح على بابين .

ومنها باب بني شيبة ، وهو في ركن الجدار الشرقي من جهة الشمال أمام باب الكعبة الشريفة متياسرا ، وهو مفتح على ثلاثة أبواب ، وهو باب بني عبد شمس ، ومنه كان دخول الخلفاء .

ومنها باب صغير ازاء باب بني شيبة لا اسم له . وقيل يسمى باب الرباط ، لأنه يدخل منه لرباط السدرة .

ومنها باب الندوة ، ويسمى بذلك ثلاثة أبواب : اثنان منتظمان ، والثالث في الركن الغربي من دار الندوة . ودار الندوة قد جعلت مسجدا شارعا في الحرم مضافا اليه ، وهي تقابل الميزاب .

ومنها باب صغير لدار العجلة ، محدث .

ومنها باب السدرة ، واحد .

ومنها باب العمرة ، واحد . وهو من أجامل أبواب الحرم .

ومنها باب ابراهيم ، واحد . والناس مختلفون في نسبته : فبعضهم ينسبه الى ابراهيم الخليل عليه السلام ، والصحيح أنه منسوب لابراهيم الخوزى من الأعاجم .

ومنها باب الحزورة مفتح على بابين ومنها باب أجياد الأكبر ، مفتح على بابين .

ومنها باب ينسب الى أجياد أيضا ، مفتح على بابين ، وباب ثالث ينسب اليه ، مفتح على بابين ، ويتصل بباب الصفا . ومن الناس من ينسب البابين ، من هذه الأربعة المنسوبة لأجياد ، الى الدقاقين .

وصوامع المسجد الحرام خمس : احداهن على ركن أبي قبيس عند باب الصفا ، والأخرى على ركن باب بني شيبة ، والثالثة على باب دار الندوة ، والرابعة على ركن باب السدرة ، والخامسة على ركن أجياد .

وبقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر ، الذي تنسب اليه الدراهم المظفرية باليمن ، وكان يكسو الكعبة الى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون .

وبخارج باب ابراهيم زاوية كبيرة فيها دار امام المالكية الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل .

وعلى باب ابراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو ، قد صنع في داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف . وبازاء هذا الباب عن يمين الداخل اليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الأفشهري .

وخارج باب ابراهيم بئر تنسب كنسبته وعنده أيضا دار الشيخ الصالح دانيال العجمي ، الذي كانت صدقات العراق في أيام السلطان أبي سعيد تأتى على يديه .

وبقربة منه رباط الموفق ، وهو من أحسن الرباطات ، سكنته أيام مجاورتي بمكة المعظمة . وكان به في ذلك العهد الشيخ الصالح أو عبد الله الزواوي المغربي . وسكن به أيضا الشيخ الصالح الطيار سعادة الجراني ،

ودخل يوما الى بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجداً مستقبل الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به ، رضي الله عنه . وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامي نحوا من أربعين سنة . وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي من كبار الصالحين . دخلت عليه يوما فلم يقع بصري في بيته على شيء سوى حصير ، فقلت له في ذلك ، فقال : استر على ما رأيت .

وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها الى سطح الحرم ، وأهلها في مشاهدة البيت الشريف على الدوام . ودور لها أبواب تفضى الى الحرم . منها دار زبيدة زوج الرشيد أمير المؤمنين . ومنها دار العجلة ودار الشرابي وسواها .

ومن المشاهد الكريمة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحي ، وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بمقربة من باب النبي ﷺ .

وفي البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام ، وبمقربة منها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه . ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس . ويقال أنه كان يسلم على النبي ﷺ . ويذكر أن النبي ، ﷺ تسليما ، جاء يوما الى دار أبي بكر الصديق ، ولم يكن حاضرا ، فنادى به النبي ﷺ تسليما ، فنطق الحجر وقال : يا رسول الله ، انه ليس بحاضر ...

ذكر الصفا والمروة

ومن باب الصفا ، الذي هو أحد أبواب المسجد الحرام ، الى الصفا ست وسبعون خطوة .

وسعة الصفا سبع عشرة خطوة ، وله أربع عشرة درجة ، علياهن كأنها مصطبة .

وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة ، منها من الصفا الى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة ، ومن الميل الأخضر الى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة ، ومن الميلين الأخضرين الى المروة ثلثمائة وخمس وعشرون خطوة .

وللمروة خمس درجات ، وهي ذات قوس واحدة كبيرة ، وسعة المروة سبع عشرة خطوة .

والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي الى المروة . والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب علي من أبواب الحرم ، احداهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب ، والأخرى تقابلها . وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرمل ذاهبا وعائدا .

وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه . والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة . وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه ، الا البزازون والعطارون عند باب بني شيبة .

وبين الصفا والمروة دار العباس رضي الله عنه ، وهي الآن رباط يسكنه المجاورون ، عمره الملك الناصر رحمه الله . وبنى أيضا دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين ، وجعل لها بابين أحدهما في السوق المذكور ، والآخر في سوق العطارين ، وعليها ربع يسكنه خدامها . وتولى بناء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال .

وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبي نمي. وسنذكره.

ذكر الجبانة المباركة

وجبانة مكة خارج باب المعلى ، ويعرف ذلك الموضع أيضا بالحجون ، واياه عنى الحارث بن مضاض الجرهمي بقوله :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثر

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء ، الا أن مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة علمها ، فلا يعرف منها الا القليل . فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خويلد ، أم أولاد النبي ﷺ تسليما كلهم ، ما عدا ابراهيم ، وجدة السبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبي ﷺ تسليما وعليهم أجمعين .

وبمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ، وعبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، رضي الله عنهم أجمعين . وفيها الموضع الذي صلب فيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب يقال أنه المسجد الذي بايعت الجن فيه رسول الله ﷺ تسليما . وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد الى عرفات ، وطريق الذاهب الى الطائف والى العراق .

ذكر بعض المشاهد خارج مكة

فمنها الحجون وقد ذكرناه ، ويقال أيضا أن الحجون هو الجبل المطل على الجبانة .

ومنها المحصب ، وهو أيضا الابطح ، وهو يلي الجبانة المذكورة ، وفيه

خيف بني كنانة الذي نزل به رسول الله ﷺ تسليما .

ومنها ذو طوى ، وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصحاص ، دون ثنية كداء ، ويخرج منه الى الأعلام الموضوعة حجزا بين الحل والحرم . وكان عبد الله بن عمر ، رضي الله عنه . اذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بذي طوى ثم يغتسل منه ويغذو الى مكة . ويذكر أن رسول الله ﷺ تسليما فعل ذلك .

ومنها ثنية كدى (بضم الكاف) وهي بأعلى مكة ، ومنها دخل رسول الله ﷺ تسليما في حجة الوداع الى مكة .

ومنها ثنية كداء (بفتح الكاف) ، ويقال لها الثنية البيضاء ، وهي بأسفل مكة ، ومنها خرج رسول الله ﷺ تسليما عام الوداع . وهي بين جبلين ، وفي مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق ، وكل من يمر به يرجمه بحجر . ويقال انه قبر أبي لهب وزوجه حمالة الحطب . وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب اذا صدروا عن منى .

وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة ، شرفها الله ، مسجد بازائه حجر موضوع على الطريق ، كأنه مصطبة ، يعلوه حجر آخر كان فيه نقش فدثر رسمه ، يقال أن النبي ﷺ تسليما قعد بذلك الموضع مستريحا عند مجيئه من عمرته ، فيتبرك الناس بتقبيله ، ويستندون اليه .

ومنها التنعيم ، وهو على فرسخ من مكة ، ومنه يعتمر أهل مكة وهو أدنى الحل الى الحرم . ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين بعثها رسول الله ﷺ تسليما في حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه ، وأمره أن يعمرها من التنعيم .

وبنيت هناك مساجد ثلاثة على الطريق ، تنسب كلها الى عائشة رضي الله عنها .

وطريق التنعيم طريق فسيح ، والناس يتحرون كنسه في كل يوم ،

رغبة في الأجر والثواب ، لأن من المعتمرين من يمشي فيه حافيا . وفي هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمى الشبيكة .

ومنها الزاهر ، وهو على نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم ، وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق . وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأواني الوضوء ، يملؤها خادم ذلك الموضع من آبار الزاهر ، وهي بعيدة القعر جدا . والخادم من الفقراء المجاورين ، وأهل الخير يعينونه على ذلك ، لما فيه من المرفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء . وذو طوى يتصل بالزاهر .

ذكر الجبال المطيفة بمكة

فمنها جبل أبي قبيس ، وهو في جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله . وهو أحد الأخشبين ، وأدنى الجبال من مكة شرفها الله ، ويقابل ركن الحجر الأسود ، وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة . وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره . وهو مطل على الحرم الشريف وعلى جميع البلد ، ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله ، وجمال الحرم واتساعه ، والكعبة المعظمة .

ويذكر أن جبل أبي قبيس هو أول جبل خلقه الله تعالى ، وفيه استودع الحجر زمان الطوفان . وكانت قريش تسميه الأمين ، لأنه أدى الحجر الذي استودع فيه إلى الخليل ابراهيم عليه السلام . ويقال أن قبر آدم عليه السلام به .

وفي جبل أبي قبيس موضع موقف النبي ﷺ حين انشق له القمر .

ومنها قعيقعان وهو أحد الأخشبين .

ومنها الجبل الأحمر ، وهو في جهة الشمال من مكة شرفها الله .

ومنها الخندمة ، وهو جبل عند الشعبين المعروفين بأجياد الأكبر وأجياد الأصغر .

ومنها جبل الطير ، وهو على أربعة عن جهتي طريق التنعيم ، يقال أنها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها ، على ما نص الله في كتابه العزيز ، وعليها أعلام من حجارة .

ومنها جبل حراء ، وهو في الشمال من مكة شرفها الله تعالى ، على نحو فرسخ منها ، وهو مشرف على منى ، ذاهب في الهواء ، عالي القنة . وكان رسول الله ﷺ يتعبد فيه كثيرا قبل المبعث ، وفيه أتاه الحق من ربه وبدأ الوحي ، وهو الذي اهتز تحت رسول الله ﷺ تسليما ، فقال رسول الله ﷺ : اثبت ، فما عليك الا نبي وصديق وشهيد . واختلف فيمن كان معه يومئذ ، وروى أن العشرة كانوا معه . وقد روى أيضا أن جبل ثبيرا اهتز تحته أيضا .

ومنها جبل ثور ، وهو على مقدار فرسخ من مكة شرفها الله تعالى ، على طريق اليمن ، وفيه الغار الذي أوى اليه رسول الله ﷺ تسليما حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله ، ومعه الصديق رضي الله عنه ، على ما ورد في الكتاب العزيز . وذكر الأزرقي في كتابه أن الجبل المذكور نادى رسول الله ﷺ تسليما وقال : اليّ يا محمد ، اليّ اليّ ... فقد آويت قبلك سبعين نبيا . فلما دخل رسول الله الغار واطمأن به ، وصاحبه الصديق معه ، نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار ، وصنعت الحمامة عشا وفرخت فيه باذن الله تعالى . فانتهى المشركون ومعهم قصاص الأثر الى الغار ، فقالوا : هاهنا انقطع الأثر ، ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار ، والحمام مفرخة . فقالوا :ما دخل أحد هنا ، وانصرفوا .

فقال الصديق : يا رسول الله ، لو ولجوا علينا منه ؟

قـال : كنـا نخـرج مـن هنـا .

وأشار بيده المباركة الى الجانب الآخر . ـ ولم يكن فيه باب ـ فانفتح فيه باب للحين بقدرة الملك الوهاب .

والناس يقصدون زيارة هـذا الغـار المبـارك ، فيرمون دخولـه من البـاب الذي دخل منه النبي ﷺ تبركا بذلك . فمنهم من يتـأتى لـه ومنهم من لا يتأتى لـه وينشب فيـه حتى يتنـاول بـالجـذب العنيف . ومن النـاس من يصلي أمامه ولا يدخلـه . وأهل تلـك البلاد يقولون انـه من كان لرشـدة دخله ، ومن كان لزنيـة لم يقـدر على دخولـه . ولهـذا يتحـامـاه كثير من الناس لأنه مخجل فاضح .

قـال ابن جزى : أخبرني بعض أشيـاخنـا الحجـاج الأكيـاس أن سبب صعوبة الدخول إليه هو أن بـداخلـه ـ ممـا يلي هـذا الشق الـذي يـدخل منه ـ حجرا كبيرا معترضا . فمن دخل من ذلك الشق منبطحا على وجهه وصل رأسـه الى ذلـك الحجر فلم يمكنـه التولج ولا يمكنـه أن ينطـوي الى العلو ووجهه وصدره يليان الأرض ... فذلك هو الذي ينشب ولا يخلص الا بعـد الجهـد والجبـذ الى خـارج . ومن دخـل منـه مستلقيـا على ظهره أمكنه ، لأنه اذا وصل رأسه الى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعدا ، فكان ظهره مستندا الى الحجر المعترض ، وأوسطـه في الشق ، ورجلاه من خارج الغار ، ثم يقوم قائما بداخل الغار .

حكايـة شيخ ظل طريقه

وبما اتفق لهذا الجبل لصاحبين من أصحابي : أحدهما الفقيـه المكرم أبو محمـد عبـد الله بن فرحـان الافريقي التوزي ، والآخر أبـو العبـاس أحمـد الأندلسي الآشي ، أنهما قصدا الغار في حين مجاورتهما بمكة شرفهـا الله تعـالى في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، وذهبا منفردين لم يستصحبا دليلا عارفـا

بطريقه ، فتاها وضلا طريق الغار ، وسلكا طريقا سواها منقطعة ، وذلك في أوان اشتداد الحر ، فلما نفد ما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا الى الغار ، أخذا في الرجوع الى مكة شرفها الله تعالى فوجدا طريقا فاتبعاه ، وكان يفضي الى جبل آخر وأشتد بها الحرّ وأجهدهما العطش ، وعاينا الهلاك ، وعجز الفقيه أبو محمد بن فرحان عن المشي جملة ، وألقى بنفسه الى الأرض .

ونجا الأندلسي بنفسه ، وكان فيه فضل قوة ، ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق الى أجياد ، فدخل الى مكة شرفها الله تعالى ، وقصدني وأعلمني بهذه الحادثة ، وبما كان من أمر عبد الله التوزي وانقطاعه في الجبل ، وكان ذلك في آخر النهار .

ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن ، وهو من سكان وادي نخلة ، وكان اذ ذاك بمكة . فأعلمته بما جرى على ابن عمه . وقصدت الشيخ الصالح الامام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل ، امام المالكية ، نفع الله به ، فأعلمته بخبره ، فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب في طلبه .

وكان من أمر عبد الله التوزي أنه لما فارقه رفيقه لجأ الى حجر كبير فاستظل بظله ، وأقام على هذه الحالة من الجهد والعطش ، والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته . فلما انصرم النهار وأتى الليل ، وجد في نفسه قوة ، وأنعشه برد الليل فقام عند الصباح على قدميه ، ونزل من الجبل الى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس ، فلم يزل ماشيا الى أن بدت له دابة فقصد قصدها ، فوجد خيمة للعرب ، فلما رآها وقع الى الأرض ولم يستطع النهوض ، فرأته صاحبة الخيمة ، وكان زوجها قد ذهب الى ورد الماء ، فسقته ما كان عندها من الماء ، فلم يرو ، وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو ، وأركبه حمارا له وقدم به مكة ، فوصلها عند

صلاة العصر من اليوم التالي متغيرا كأنه قام من قبر .

ذكر أميري مكة

وكانت امارة مكة في عهد دخولي اليها للشريفين الأجلين الأخوين : أسد الدين رميثة ، وسيف الدين عطيفة ، ابنى الأمير أبي نمى بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسنيين . ورميثة أكبرهما سنا ، ولكنه كان يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة لعدله .

ولرميثة من الأولاد : أحمد وعجلان ـ وهو أمير مكة في هذا العهد ـ وتقية ، وسند ، وأم قاسم . ولعطيفة من الأولاد : محمد ، ومبارك ، ومسعود .

ودار عطيفة عن يمين المروة ، ودار أخيه رمثية برباط الشرابي عند باب بني شيبة وتضرب الطبول على باب كل واحد منها عند صلاة المغرب من كل يوم .

ذكر أهل مكة وفضائلهم

ولأهل مكة الأفعال الجميلة ، والمكارم التامة ، والأخلاق الحسنة ، والايثار للضعفاء والمنقطعين ، وحسن الجوار للغرباء . ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ، ثم يطعمهم .

وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم ، فاذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله الى منزله يتبعه المساكين ، فيعطي كل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين . ولو كانت له خبزة واحدة ، فانه يعطي ثلثها أو نصفها ، طيب النفس بذلك من غير ضجر .

ومن أفعالهم الحسنة أن الايتام الصغار يقعدون بالسوق ، ومع كل واحد منهم قفتان : كبرى وصغرى ، وهم يسمون القفة مكتلا ، فيأتي الرجل من أهل مكة الى السوق ، فيشتري الحبوب واللحم والخضر ، ويعطي ذلك الصبي ، فيجعل الحبوب في احدى قفتيه ، واللحم والخضر في الأخرى ، ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ، ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته ، فلا يذكر أن أحدا من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط ، بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه . ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس .

وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس . وأكثر لباسهم بياض ، فترى ثيابهم أبدا ناصعة ساطعة ، ويستعملون الطيب كثيرا ، ويكتحلون ، ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر .

ونساء مكة فائقات الحسن ، بارعات الجمال ، ذوات صلاح وعفاف . وهن يكثرن التطيب ، حتى ان احداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيبا .

وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة ، فيأتين في أحسن زي ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا .

ولأهل مكة عادات حسنة في الموسم وغيره ، سنذكرها ـ ان شاء الله تعالى ـ اذا فرغنا من ذكر فضلائها ومجاوريها .

ذكر قاضي مكة وخطيبها
وامام الموسم وعلمائها وصلحائها

قاضي مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد ، ابن الامام العالم محيي الدين الطبري ، وهو فاضل كثير الصدقات والمواساة للمجاورين ،

حسن الأخلاق ، كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة ، يطعم الطعام الكثير في المواسم المعظمة ، وخصوصا في مولد رسول الله ﷺ تسليما ، فانه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين . وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيرا ، وجميع صدقاته وصدقات أمرائه تجري على يديه .

وولده شهاب الدين فاضل ، وهو الآن قاضي مكة شرفها الله .

وخطيب مكة الامام بمقام ابراهيم عليه السلام ، الفصيح المصقع ، وحيد عصره ، بهاء الدين الطبري ، وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمور مثلهم بلاغة وحسن بيان ، وذكر لي أنه ينشىء لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد .

وامام الموسم ، وامام المالكية بالحرم الشريف ، هو الشيخ الفقيه للعالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد ، ابن الفقيه الامام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن ، وهو المشتهر بخليل ، نفع الله به وأمتع ببقائه ، وأهله من بلاد الجريد من افريقية ، ويعرفون بها ببني حيون ، وهم من كبارها ، ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله ، وهو أحد الكبار من أهل مكة ، بل واحدها وقطبها باجماع الطوائف على ذلك ، مستغرق العبادة في جميع أوقاته ، حي كريم النفس ، حسن الأخلاق ، كثير الشفقة ، لا يرد من سأله خائبا .

حكاية مباركة

رأيت أيام مجاورتي بمكة شرفها الله ـ وأنا اذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية ـ رسول الله ﷺ تسليما في النوم ، وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذي تشاهد منه الكعبة الشريفة ، والناس يبايعونه . فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو

بخليل ، قد دخل وقعد القرفصاء بين يدي رسول الله ﷺ تسليما ، وجعل يده في يد رسول الله ﷺ وقال : أبايعك على كذا وكذا ... وعدد أشياء منها : وألا أرد من بيتي مسكينا خائبا ... وكان ذلك آخر كلامه .

فكنت أعجب من قوله وأقول في نفسي . كيف يقول هذا ويقدر عليه ، مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام !؟

وكنت أراه حين ذلك لابسا جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقفطان ، كان يلبسها في بعض الأوقات .

فلما صليت الصبح غدوت عليه وأعلمته برؤياي ، فسر بها وبكى وقال لي : تلك الجبة أهداها بعض الصالحين لجدي ، فأنا ألبسها تبركا .

وما رأيته بعد ذلك يرد سائلا خائبا ، وكان يأمر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به الى بعد صلاة العصر من كل يوم.

وأهل مكة لا يأكلون في اليوم الا مرة واحدة بعد الغصر ، ويقتصرون عليها الى مثل ذلك الوقت . ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر ، ولذلك صحت أبدانهم وقلت فيهم الأمراض والعاهات .

وكان الشيخ خليل متزوجا بنت القاضي نجم الدين الطبري ، فشك في طلاقها وفارقها ، وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين النوري من كبار المجاورين ، وهو من صعيد مصر ، وأقامت عنده أعواما ، وسافر بها الى المدينة الشريفة ومعها أخوها شهاب الدين ، فحنث في يمين بالطلاق ، ففارقها على ضنانته بها ، وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدة .

ومن أعلام مكة امام الشافعية شهاب الدين ابن البرهان .

ومنهم امام الحنفية شهاب الدين أحمد بن علي ، من كبار أئمة مكة وفضلائها ، يطعم المجاورين وأبناء السبيل . وهو أكرم فقهاء مكة ،

ويدان في كل سنة أربعين ألف درهم ، وخمسين ألفا ، فيؤديها الله عنه . وأمراء الأتراك يعظمونه ويحسنون الظن به لأنه امامهم .

ومنهم امام الحنابلة المحدث الفاضل محمد ابن عثمان ، البغدادي الأصل المكي المولد ، وهو نائب القاضي نجم الدين ، والمحتسب بعد قتل تقي الدين المصري ، والناس يهابونه لسطوته .

حكاية قطع يد السارق

كان تقي الدين المصري محتسبا بمكة ، وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه ، فاتفق في بعض السنين أن أتى أمير الحاج بصبي من ذوي الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج فأمر بقطع يده ، فقال له تقي الدين : ان لم تقطعها بحضرتك ، والا غلب أهل مكة خدامك عليه فاستنقذوه منهم وخلصوه ... فأمر بقطع يده في حضرته ، فقطعت .

وحقدها لتقي الدين ، ولم يزل يتربص به الدوائر ولا قدرة له عليه ، لأن له حسبا من الأميرين رميثة وعطيفة ، والحسب عندهم أن يعطي أحدهم هدية من عمامة أو شاشية بمحضر الناس تكون جوارا لمن أعطيته ، ولا تزول حرمتها معا حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة .

فأقام تقي الدين بمكة أعواما ثم عزم على الرحلة ، وودع الأميرين وطاف طواف الوداع وخرج من باب الصفا ، فلقيه صاحبه الأقطع وتشكى له ضعف حاله ، وطلب منه ما يستعين به على حاجته ، فانتهره تقي الدين وزجره ، فاستل خنجرا له يعرف عندهم بالجنبية وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه .

ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبري ، شقيق نجم الدين المذكور ، من أهل الفضل والاحسان للمجاورين .

ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشي ، من فضلاء مكة ، وكان

ينوب عن القاضي نجم الدين بعد وفاة الفقيه محمد بن عثمان الحنبلي .

ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان ، زاهد ورع ، مبتلي بالوسواس . رأيته يوما يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرر ، ولما مسح رأسه أعاد مسحه مرات ، ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه في البركة . وكان ، اذا أراد الصلاة ، ربما صلى الامام الشافعي وهو يقول : نويت نويت ... فيصلي مع غيره .

وكان كثير الطواف والاعتمار والذكر .

ذكر المجاورين بمكة

فمنهم الامام العالم الصالح الصوفي ، المحقق العابد ، عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي ، كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار . وكان اذا طاف من الليل يصعد الى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهدا للكعبة الشريفة الى أن يغلبه النوم ، فيجعل تحت رأسه حجرا وينام يسيرا ، ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح . وكان متزوجا ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان ، وكانت صغيرة السن ، فلا تزال تشكو الى أبيها حالها فيأمرها بالصبر ، فأقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته .

ومنهم الصالح العابد نجم الدين الأصفوني ، كان قاضيا ببلاد الصعيد ، فانقطع الى الله تعالى وجاور بالحرم الشريف . وكان يعتمر في كل يوم من التنعيم ، ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم اعتمادا على ما في الخبر عن النبي ﷺ تسليما أنه قال : «عمرة في رمضان تعدل حجة معي» .

ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي ، كثير الطواف والتلاوة ، من قدماء المجاورين ، مات بمكة شرفها الله .

ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت ، كثير

الطواف ، أقام بمكة أعواما لا يتكلم فيها .

ومنهم الصالح خضر العجمي ، كثير الصوم والتلاوة والطواف .

ومنهم الشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ ، كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة ، فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب .

ومنهم الصالح المجود برهان الدين ابراهيم المصري ، مقرىء مجيد ، ساكن رباط السدرة ، ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم ، ويعلم الأيتام كتاب الله تعالى ، ويقوم بمؤنهم ويكسوهم .

ومنهم الصالح العابد عز الدين الواسطي ، من أصحاب الأموال الطائلة ، يحمل اليه من بلده المال الكثير في كل سنة ، فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ، ويتولى حملها الى بيوتهم بنفسه . ولم يزل ذلك دأبه الى أن توفي .

ومنهم الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الأنجري ، من أهل قطر طنجة ، من كبار الصالحين ، جاور بمكة أعواما وبها وفاته ،كانت بينه وبين والدي صحبة قديمة ، ومتى أتى بلدنا طنجة نزل عندنا ، وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوى بالليل الى مسكنه برباط ربيع ، وهو من أحسن الرباطات بمكة ، بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة ، وسكانه صالحون . وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا ، وينذرون له النذور . وأهل الطائف يأتونه بالفواكه . ومن عادتهم أن كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك (وهو الخوخ) والتين وهم يسمونه (الخمط) يخرج منه العشر لهذا الرباط ، ويوصلون ذلك اليه على جمالهم ، ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان ، ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية وأصابتها الجوائح .

حكايــة في فضيلــه

أتى يوما غلمـان الأمير أبي نمى ، صـاحب مكـة ، الى هـذا الربـاط ، ودخلـوا بخيـل الأمير وسقـوهـا من تلـك البئر ، فلمـا عـادوا بـالخيـل الى مرابطها أصابتها الأوجاع ، وضربت بأنفسها الأرض وبرؤوسها وأرجلهـا . واتصل الخبر بالأمير أبي نمى فأتى باب الرباط بنفسه واعتذر الى المسـاكين السـاكنين بـه ، واستصحب واحـدا منهم فمسح على بطـون الـدواب بيـده فـأراقت مـا كان في أجـوافهـا من ذلـك المـاء ،وبرئت ممـا أصـابهـا ، ولم يتعرضوا بعدها للرباط الا بالخير .

ومنهم الصـالح المبـارك أبو العبـاس الغماري ، من أصحـاب أبي الحسن بن رزق الله ، وسكن رباط ربيع ، ووفاته بمكة شرفها الله .

ومنهم الصـالح أبو يعقوب يوسف ، من بـاديـة سبتـة ، كان خـادمـا للشيخين المذكورين ، فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما .

ومنهم الصالح السائح السالك أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني .

ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلالة .

حكايــة الشيخ سعيد الهندي

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالا عظيما قدم به مكة ، فسجنه الأمير عطيفة وطالبه بأداء المال فـامتنع ، فعـذب بعصر رجليـه فـأعطى خمسـة وعشرين ألف درهم نقرة وعـاد الى بـلاد الهنـد ، ورأيته بها . ونزل بدار الأمير سيف الدين غـدا بن هبـة الله بن عيسى بن مهني أمير عرب الشام ، وكان غدا ساكنا ببلاد الهند متزوجا بأخت ملكهـا (وسيذكر أمره) ، فأعطى ملـك الهنـد للشيخ سعيـد جملـة مـال ، وتوجـه صحبـة حـاج يعرف بوشل من نـاس الأمير غـدا ، وجهـه الأمير المـذكور وليأتيه ببعض ناسه ووجـه معـه أموالا وتحفـا ، منهـا الخلعـة التي خلعهـا

عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخته ، وهي من الحرير الأزرق ، مزركشة بالذهب ومرصعة بالجوهر بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها ، وبعث معه خمسين ألف درهم ليشتري له الخيل العتاق ، فسافر الشيخ سعيد صحبة ، وشل ، واشتريا سلعا بما عندهما من الأموال . فلما وصلا جزيرة سقطرة (المنسوب اليها الصبر السقطري) خرج عليهما لصوص الهند في مراكب كثيرة ، فقاتلوهم قتالا شديدا مات فيه من الفريقين جملة ، وكان وشل راميا فقتل منهم جماعة ، ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشلا طعنة مات منها بعد ذلك ، وأخذوا ما كان عندهم ، وتركوا لهم مركبهم بآلة سفره وزاده ، فذهبوا الى عدن ومات بها وشل .

وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون أحدا الا حين القتال ، ولا يغرقونه ، وانما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء ، ولا يأخذون المماليك لأنهم من جنسهم .

وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد اظهار الدعوة العباسية ببلده ، كمثل ما فعله ملوك الهند ممن تقدمه ، مثل السلطان شمس الدين لَلْمِشِ (واسمه بفتح اللام الاولى واسكان الثانية وكسرالميم وشين معجمة) وولده ناصر الدين ، ومثل السلطان جلال الدين فيروزشاه ، والسلطان غياث الدين بلبن ، وكانت الخلع تأتي اليهم من بغداد .

فلما توفى وشل قصد الشيخ سعيد الى الخليفة أبي العباس ابن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي بمصر وأعلمه بالأمر ، فكتب له كتابا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند ، فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب الى اليمن واشترى بها ثلاث خلع سودا وركب البحر الىالهند ، فلما وصل كنبايت - وهي على مسيرة أربعين يوما من دهلي حضرة ملك الهند - كتب صاحب الخبر الى الملك يعلمه بقدم الشيخ سعيد ، وأن معه أمر

الخليفة وكتابه ، فورد الأمير يبعثه الى الحضرة مكرما ، فلما قرب من الحضرة بعث الأمراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ، ثم خرج هو بنفسه لتلقيه ، فتلقاه وعانقه ودفع له الأمر فقبله ووضعه على رأسه ، ودفع له الصندوق الذي فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ، ولبس احدى الخلع وكسا الأخرى الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المنتصر العباسي (وكان مقيما عنده وسيذكر خبره) ، وكسا الخلعة الثالثة الأمير قبوله الملقب بالملك الكبير ، وهو الذي يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب .

وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه ، وأركبه على الفيل ، ودخل المدينة كذلك ، والسلطان أمامه على فرسه ، وعن يمينه وشماله الأميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين ، والمدينة قد زينت بأنواع الزينة ، وصنع بها احدى عشرة قبة من الخشب ، كل قبة منها أربع طبقات ، في كل طبقة طائفة من المغنين رجالا ونساء ، والراقصات ، وكلهم مماليك السلطان ، والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها ، وفي وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل فيه الجلاب يشربه كل وارد وصادر لا يمنع منه أحد ، وكل من يشرب منه يعطي بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة ، فيأكلها فتطيب نكهته وتزيد في حمرة وجهه ولثاته ، وتقمع عنه الصفراء ، وتهضم ما أكل من الطعام .

ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدي الفيل يطأ عليها الفيل من باب المدينة الى دار السلطان ، وأنزل بدار تقرب من دار الملك ، وبعث له أموالا طائلة ، وجميع الأثواب المعلقة والمفروشة بالقباب ، والموضوعة بين يدي الفيل ، لا تعود الى السلطان ، بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب ،

وخدام الأحواض وغيرهم ... وهكذا فعلهم متى قدم السلطان من سفر .

وأمر الملك بكتاب الخليفة أن يقرأ على المنبر بين الخطبتين في كل يوم جمعة .

وأقام الشيخ سعيد شهرا ثم بعث معه الملك هدايا الى الخليفة ، فوصل كنبايت وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته في البحر .

وكان ملك الهند قد بعث أيضا من عنده رسولا الى الخليفة ، وهو الشيخ رجب البرقعي أحد شيوخ الصوفية ، وأصله من مدينة القرم من صحراء قبجق ، وبعث معه هدايا للخليفة ، منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار . وكتب له يطلب منه أن يعقد له النيابة عنه ببلاد الهند والسند ، ويبعث لها سواه من يظهر له .. هكذا نص عليه كتابه اعتقادا منه في الخلافة وحسن نية .

وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالأمير سيف الدين الكاشف . فلما وصل رجب الى الخليفة أبى أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية الا بحضر الملك الصالح اسماعيل ابن الملك الناصر ، فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر ، فباعه واشترى بثمنه ـ وهو ثلاثمائة ألف درهم ـ أربعة أحجار ، وحضر بين يدي الملك الصالح ودفع له الكتاب وأحد الأحجار ، ودفع سائرها لأمرائه .

واتفقوا على أن يكتب لملك الهند بما طلبه ، فوجهوا الشهود الى الخليفة ، وأشهد على نفسه أنه قدمه نائبا عنه ببلاد الهند وما يليها .

وبعث الملك الصالح رسولا من قبله ـ وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمي ـ ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية ، وركبوا بحر فارس من الأبلة الى هرمز ـ وسلطانها يومئذ قطب الدين تمتهن طوران شاه ـ فأكرم مثواهم وجهز لهم مركبا الى بلاد الهند ، فوصلوا مدينة كنبايت والشيخ سعيد بها ، وأميرها يومئذ مقبول التلتكي أحد خواص

ملك الهند ، فاجتمع الشيخ رجب بهذا الأمير وقال له : ان الشيخ سعيد انما جاءكم بالتزوير ، والخلع التي ساقها انما اشتراها بعدن ، فينبغي أن تثقفوه وتبعثوه لخوند عالم (وهو السلطان) .

فقال له الأمير : الشيخ سعيد معظم عند السلطان ، فما يفعل به هذا الا بأمره . ولكني أبعثه معكم ليرى فيه السلطان رأيه .

وكتب الأمير بذلك كله الى السلطان ، وكتب به أيضا صاحب الأخبار ، فوقع في نفس السلطان تغير ، وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤوس الأشهاد بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الاكرام ما صدر ،فمنع رجب من الدخول عليه ، وزاد في اكرام الشيخ سعيد .

ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام اليه وعانقه وأكرمه ، وكان متى دخل اليه يقوم له .

وبقي الشيخ سعيد المذكور بأرض الهند معظما مكرما ، وبها تركته سنة ثمان وأربعين .

وكان بمكة أيام مجاورتي بها حسن المغربي المجنون ، وأمره غريب وشأنه عجيب ، وكان قبل ذلك صحيح العقل خادما لولي الله تعالى نجم الدين الأصبهاني أيام حياته .

حكايــة حسن المجنون

كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل ، وكان يرى في طوافه بالليل فقيرا يكثر الطواف ولا يراه بالنهار ، فلقيه ذلك الفقير ليلة وسأله عن حاله وقال له : يا حسن ، ان أمك تبكي عليك ، وهي مشتاقة الى رؤيتك (وكانت من اماء الله الصالحات) ... أفتحب أن تراها ؟

قال له : نعم ، ولكني لا قدرة لي على ذلك .

فقال له : نجتمع ها هنا في الليلة المقبلة ان شاء الله تعالى .

فلما كانت الليلة المقبلة ، وهي ليلة الجمعة ، وجده حيث واعده ، فطافا بالبيت ما شاء الله ، ثم خرج وهو في أثره الى باب المعلى ، فأمره أن يسد عينيه ويمسك بثوبه ، ففعل ذلك ، ثم قال بعد ساعة : أتعرف بلدك ؟

قال : نعم .

قال : ها هو هذا ...

ففتح عينيه فاذا به على دار أمه ، فدخل عليها ، ولم يعلمها بشيء مما جرى ، وأقام عندها نصف شهر ، وأظن أن بلده مدينة أسفى .

ثم خرج الى الجبانة فوجد الفقير صاحبه فقال له : كيف أنت ؟

فقال : يا سيدي ، اني اشتقت الى رؤية الشيخ نجم الدين ، وكنت خرجت على عادتي وغبت عنه هذه الأيام ، وأحب أن تردني اليه .

فقال له : نعم .

وواعده الجبانة ليلا ، فلما وافاه بها أمره أن يفعل كفعله في مكة شرفها الله ، من تغميض عينيه والامساك بذيله ، ففعل ذلك فاذا به في مكة شرفها الله ، وأوصاه ألا يحدث نجم الدين بشيء مما جرى ، ولا يحدث به غيره .

فلما دخل على نجم الدين قال له : أين كنت يا حسن في غيبتك ؟

فأبى أن يخبره ، فعزم عليه ، فأخبره بالحكاية ، فقال : أرني الرجل .

فأتى معه ليلا ، وأتى الرجل على عادته ، فلما مر بها قال له : يا سيدي ، هو هذا ...

فسمعه الرجل ، فضرب بيده على فمه وقال : أسكت أسكتك الله .

فخرس لسانه وذهب عقله ، وبقي بالحرم مولها يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة ، والناس يتبركون به ويكسونه ، واذا جاع

خرج الى السوق التي بين الصفا والمروة ، فيقصد حانوتا من الحوانيت فيأكل منها ما أحب ، لا يصده أحد ولا يمنعه ، بل يسر كل من أكل له شيئا وتظهر له البركة والنماء في بيعه وربحه ، ومتى أتى السوق تطاول أهلها بأعناقهم اليه ، كل منهم يحرص على أن يأكل من عنده لما جربوه من بركته ، وكذلك فعله مع السقائين متى أحب أن يشرب .

ولم يزل دأبه كذلك الى سنة ثمان وعشرين فحج فيها الأمير سيف الدين يلملك ، فاستصحبه معه الى ديار مصر ، فانقطع خبره ، نفع الله تعالى به ...

ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم

فمن عادتهم أن يصلي أول الأئمة امام الشافعية ، وهو المقدم من قبل أولي الأمر . وصلاته خلف المقام الكريم مقام ابراهيم الخليل عليه السلام ، في حطيم له هنالك بديع . وجمهور الناس بمكة على مذهبه .

والحطيم خشبتان موصول ما بينهما بأذرع شبه السلم ، تقابلهما خشبتان على صفتهما ، وقد عقدت على أرجل مجصصة ، وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد ، يعلق منها قناديل زجاج .

فاذا صلى الامام الشافعي صلى بعده امام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني ، ويصلي امام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلا ما بين الحجر الأسود والركن اليماني ، ثم يصلي امام الحنفية قبالة الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك . ويوضع بين أيدي الأئمة في محاريبهم الشمع ، وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع .

وأما صلاة المغرب فانهم يصلونها في وقت واحد ، كل امام يصلي بطائفته . ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط ، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي ، وسجد الحنفي بسجود الحنبلي ، وتراهم مصيخين كل

واحد الى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو .

ذكر عادتهم في الخطبة وصلاة الجمعة

وعادتهم في يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك الى صفح الكعبة الشريفة فيا بين الحجر الأسود والركن العراقي ، ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم . فاذا خرج الخطيب أقبل لابسا ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طليسان أسود ، كل ذلك من كسوة الملك الناصر ، وعليه الوقار والسكينة ، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين ، وبين يديه أحد القومة في يده الفرقعة ، وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ، ينفضه في الهواء فيسمع له صوت عال ، يسمعه من بداخل الحرم وخارجه ، فيكون اعلاما بخروج الخطيب .

ولا يزال كذلك الى أن يقرب من المنبر ، فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده . ثم يقصد المنبر ، والمؤذن الزمزمي (وهو رئيس المؤذنين) بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ، ممسكا له بيده .

وتركز الرايتان عن جانبي المنبر ، فاذا صعد أول درجة من درج المنبر قلده المؤذن السيف ، فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرجة يسمع بها الحاضرين ، ثم يضرب في الدرجة الثانية ضربة ثم في الثالثة أخرى . فاذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ، ووقف داعيا بدعاء خفي مستقبلا الكعبة . ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ، ويرد عليه الناس ، ثم يقعد .

ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد ، فاذا فرغ من الأذان خطب الخطيب خطبة يكثر فيها من الصلاة على النبي ﷺ ، ويقول في أثنائها : اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت

طائف (ويشير باصبعه الى البيت الكريم) ، اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة واقف . ويترضى عن الخلفاء الأربعة وعن سائر الصحابة وعن عمي النبي ﷺ وسبطيه وأمهما وخديجة جدتها على جميعهم السلام . ثم يدعو للملك الناصر ، ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول . ثم يدعو للسيدين الشريفين الحسنيين أميري مكة : سيف الدين عطيفة ، وهو أصغر الأخوين (ويقدم اسمه لعدله) ، وأسد الدين رميثة ابنى أبي نمى بن أبي سعد بن علي بن قتادة . وقد دعا لسلطان العراق مرة ثم قطع ذلك . فاذا فرغ من خطبته صلى وانصرف، والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه، اشعارا بانقضاء الصلاة. ثم يعاد المنبر الى مكانه ازاء المقام الكريم.

ذكر عادتهم في استهلال الشهور

وعادتهم في ذلك أن يأتي أمير مكة في أول يوم من الشهر وقواده يحفون به وهو لابس البياض ، معتم ، متقلد سيفا ، وعليه السكينة والوقار ، فيصلي عند المقام الكريم ركعتين ، ثم يقبل الحجر ، ويشرع في طواف أسبوع ، ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم . فعندما يكمل الأمير شوطا واحدا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته . ثم يذكر شعرا في مدحه ومدح سلفه الكريم ، ويفعل به هكذا في السبعة الأشواط . فاذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين، ثم ركع خلف المقام أيضا ركعتين، ثم انصرف، ويفعل مثل هذا، سواء اذا أراد سفرا أو اذا قدم من سفر أيضا.

ذكر عادتهم في شهر رجب

واذا هل هلال رجب ، أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا

بدخول الشهر ، ثم يخرج في أول يوم منه راكبا ، ومعه أهل مكة فرسانا ورجالا على ترتيب عجيب ، وكلهم بالأسلحة يلعبون بين يديه ، والفرسان يجولون ويجرون ، والرجالة يتواثبون ويرمون بحرابهم الى الهواء ويلقفونها ، والأمير رميثة والأمير عطيفة معها أولادهما وقوادهما مثل محمد بن ابراهيم ، وعلي وأحمد ابني صبيح ، وعلي بن يوسف ، وشداد بن عمر ، وعامر الشرق ، ومنصور بن عمر وموسى المزرق ، وغيرهم من كبار أولاد الحسن ، ووجوه القواد ، وبين أيديهم الرايات والطبول والدبادب ، وعليهم السكينة والوقار ، ويسيرون حتى ينتهوا الى الميقات . ثم يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم الى المسجد الحرام ، فيطوف الأمير بالبيت والمؤذن الزمزمي بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط ، على ما ذكرناه من عادته .

فاذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم ، وصلى عند المقام وتمسح به ، وخرج الى المسعى فسعى راكبا ، والقواد يحفون به ، والحرابة بين يديه ، ثم يسير الى منزله .

وهذا اليوم عندهم عيد من الأعياد ، ويلبسون فيه أحسن الثياب ، ويتنافسون في ذلك .

ذكر عمرة رجب

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله . وهي متصلة ليلا ونهارا وأوقات الشهر كله معمورة بالعباد ، وخصوصا أول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين ، فانهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام .

شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه ، وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها أكسية الحرير والكتان الرفيع ، كل أحد يفعل بقدر

استطاعته ، والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير ، وأستار الهوادج ضافية ، تكاد تمس الأرض ، فهي كالقباب المضروبة .

ويخرجون الى مقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج ، والنيران مشعلة بجنبتي الطريق ، والشمع والمشاعل أمام الهوادج ، والجبال تجيب بصداها اهلال المهللين ، فترق النفوس ، وتنهمل الدموع .

فاذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا الى السعي بين الصفا والمروة ، بعد مضي شيء من الليل ، والمسعى متقد السرج ، غاص بالناس ، والساعيات في هوادجهن ، والمسجد الحرام يتلألأ نورا . وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الأكمية ، لأنهم يحرمون بها من أكمة أمام مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غلوة على مقربة من المسجد المنسوب الى علي رضي الله عنه .

والأصل في هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير ، رضي الله عنهما ، لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة ، خرج ماشيا حافيا معتمرا ومعه أهل مكة ، وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب ، وانتهى الى الأكمة فأحرم منها ، وجعل طريقه على ثنية الحجون الى المعلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح ، فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة الى هذا العهد .

وكان يوم عبد الله مذكورا ، أهدى فيه بدنا كثيرة ، وأهدى أشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم ، وأقاموا أياما يطعَمون ويطعِمون ، شكرا لله تعالى على ما وهبهم من التيسير والمعونة في بناء بيته الكريم على الصفة التي كان عليها في أيام الخليل صلوات الله عليه .

ثم لما قتل ابن الزبير ، نقض الحجاج الكعبة وردها الى بنائها في عهد قريش ، وكانوا قد اقتصروا في بنائها . وأبقاها رسول الله ﷺ على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر . ثم أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يعيدها الى بناء ابن الزبير ، فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك ، وقال : يا أمير

المؤمنين ، لا تجعل البيت ملعبة للملوك ، متى أراد أحدهم أن يغيره فعل . فتركه على حاله سدا للذريعة .

وأهل الجهات الموالية لمكة - مثل بجيلة وزهران وغامد - يبادرون لحضور عمرة رجب ، ويجلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب واللوز ، فترخص الأسعار بمكة ، ويرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق .

ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة في شظف من العيش . ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم.ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم ، ووقع الموت في مواشيهم ، ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم . فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها ، اجتمعت نساؤهم فأخرجنهم . وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين .

وبلاد السرو - التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل - مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات ، وأهلها فصحاء الألسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد . وهم اذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها ، متعلقين بأستارها ، داعين بأدعية تتصدع لرقتها القلوب ، وتدمع العيون الجامدة ، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم ، مؤمنين على أدعيتهم ، ولا يمكن غيرهم الطواف معهم ، ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك . وهم شجعان أنجاد ، ولباسهم الجلود . واذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم ، وتجنبوا اعتراضهم ، ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم .

وذكر أن النبي ﷺ ذكرهم وأثنى عليهم خيرا وقال : علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء . وكفاهم شرفا دخولهم في عموم قوله ﷺ : الايمان يمان والحكمة يمانية . وذكر أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل في جملتهم تبركا بدعائهم ، وشأنهم عجيب كله . وقد جاء في أثر : زاحموهم في الطواف فان الرحمة تنصب عليهم نصبا .

ذكر عادتهم في ليلة النصف من شعبان

وهذه الليلة من الليالي المعظمة عند أهل مكة ، يبادرون فيها الى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفذاذا والاعتمار ، ويجتمعون في المسجد الحرام جماعات ، لكل جماعة امام ، ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل . ويقابل ذلك ضوء القمر ، فتتلألأ الأرض والسماء نورا . ويصلون مائة ركعة ، يقرؤون في كل ركعة بأم القرآن وسورة الاخلاص يكررونها عشرا . وبعض الناس يصلون في الحجر منفردين ، وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف ، وبعضهم قد خرجوا للاعتمار .

ذكر عادتهم في شهر رمضان المعظم

واذا هل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة ، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام ، من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل ، حتى يتلألأ الحرم نورا ، ويسطع بهجة واشراقا . .

وتتفرق الأئمة فرقا ، وهم : الشافعية ، والحنفية ، والحنبلية ، والزيدية ، وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع . ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية الا وفيها قارىء يصلي بجماعة ، فيرتج المسجد لأصوات القراء ، وترق النفوس ، وتحضر القلوب ، وتهمل الأعين ، ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة في الحجر منفردا .

والشافعية أكثر الأئمة اجتهادا . وعادتهم أنهم اذا أكملوا التراويح المعتادة (وهي عشرون ركعة) يطوف امامهم وجماعته ، فاذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقعة التي ذكرنا أنها تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة ، وكان ذلك اعلاما بالعودة الى الصلاة ، ثم يصلي ركعتين ، ثم يطوف

أسبوعا ، هذا الى أن يتم عشرين ركعة أخرى . ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون .

وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئا .

واذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسحير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم ، فيقوم داعيا ومذكرا ومحرضا على الصحور ، والمؤذنون في سائر الصوامع ، فاذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه .

وقد نصبت في أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يوقدان . فاذا قرب الفجر ، ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة ، حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالأذان ، وأجاب بعضهم بعضا .

ولديار مكة شرفها الله سطوح ، فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر ، حتى اذا لم يبصرهما أقلع عن الأكل .

وفي كل ليلة من ليالي العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن ، ويحضر الختم القاضي والفقهاء الكبراء ، ويكون الذي يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة . فاذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير ، وأوقد الشمع، وخطب فاذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس الى منزله ، فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات وكذلك يصنعون في جميع ليالي الوتر .

وأعظم تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين ، واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي ، ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم وتقام ازاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم ، وتعرض بينها ألواح طوال ، وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقناديل الزجاج ، فيكاد يعشى الأبصار شعاع الأنوار . ويتقدم الامام فيصلي فريضة العشاء

الآخرة ، ثم يبتدىء بقراءة سورة القدر ، واليها يكون انتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها . وفي تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيما لختمة المقام ، ويحضرونها متبركين ، فيختم الامام في تسليمتين ، ثم يقوم خطيبا مستقبل المقام ، فاذا فرغ من ذلك عاد الأئمة الى صلاتهم ، وانفض الجمع ، ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المقام المالكي في منظر مختصر ، وعن المباهاة منزه موقر .

ذكر عاداتهم في شوال

وعاداتهم في شوال (وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات) أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ويسرجوا المصابيح والشمع على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتها ، ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى أبي قبيس ، ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك في تهليل وتكبير وتسبيح ، والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء .

فاذا صلوا صلاة الصبح أخذوا في أهبة العيد ، ولبسوا أحسن ثيابهم ، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف ، به يصلون صلاة العيد ، لأنه لا موضع أفضل منه .

ويكون أول من يبكر الى المسجد الشيبيون ، فيفتحون باب الكعبة المقدسة ، ويقعد كبيرهم في عتبتها وسائرهم بين يديه ، الى أن يأتي أمير مكة فيتلقوه . ويطوف بالبيت أسبوعا ، والمؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة ، رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر .

ثم يأتي الخطيب بين الرايتين السوداوين ، والفرقعة أمامه وهو لابس السواد ، فيصلي خلف المقام الكريم ، ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة . ثم اذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة

والاستغفار . ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ، ثم يخرجون الى مقبرة باب المعلى ، تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ، ثم ينصرفون .

ذكر احرام الكعبة

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة تشمر أستار الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما ، الى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع ، صونا لها من الأيدي أن تنتهبها . ويسمون ذلك احرام الكعبة ، وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ، ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة .

ذكر شعائر الحج وأعماله

واذا كان أول يوم من شهر ذي الحجة تضرب الطبول والدبادب في أوقات الصلوات بكرة وعشية ، اشعاراً بالموسم المبارك ، ولا تزال كذلك الى يوم الصعود الى عرفات .

فاذا كان اليوم السابع من ذي الحجة خطب الخطيب اثر صلاة الظهر خطبة بليغة ، يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلمهم يوم الوقفة .

فاذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود الى منى . وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى . وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في ايقاد الشمع ، ولكن الفضل في ذلك لأهل الشام دائما .

فاذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح الى عرفة ، فيمرون في طريقهم بوادي محسر ويهرولون (وذلك سنة) . ووادي محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى ، ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين

جبلين ، وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور ، زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد .

وبين منى وعرفة خمسة أميال ، وكذلك بين منى ومكة أيضا خمسة أميال .

ولعرفة ثلاثة أسماء ، وهي : عرفة ، وجمع ، والمشعر الحرام .

وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيح تحدق به جبال كثيرة . وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة ، وفيه الموقف وفيما حوله .

والعلمان قبله بنحو ميل ، وهما الحد ما بين الحل والحرم . وبمقربة منهما مما يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي ﷺ بالارتفاع عنه ، ويجب التحفظ منه ، ويجب أيضا الامساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس ، فان الجمالين ربما استحثوا كثيرا من الناس وحذروهم الزحام من النفر ، واستدرجوهم الى أن يصلوا بهم بطن عرنة فيبطل حجهم .

وجبل الرحمة الذي ذكرناه قائم في وسط بسيط جمع ، منقطع عن الجبال ، وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض ، وفي أعلاه قبة تنسب الى أم سلمة رضي الله عنها ، وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه ، وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات ، وفي قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيها الناس .

وفي أسفل هذا الجبل ، عن يسار المستقبل للكعبة ، دار عتيقة البناء تنسب الى آدم عليه السلام ، وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي ﷺ عندها .

وحول ذلك صهاريج وجباب للماء ، وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الامام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر .

وعن يسار العلمين للمستقبل أيضا وادي الأراك ، وبه أراك أخضر يمتد في الأرض امتدادا طويلا . واذا حان وقت النفر أشار الامام المالكي

بيده ونزل عن موقفه ، فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض وترجف الجبال . فياله موقفا كريما ومشهدا عظيما ترجو النفوس حسن عقباه ، وتطمح الآمال الى نفحات رحماه . جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه .

وكانت وقفتي الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين ، وأمير الركب المصري يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر .

وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصر ، وهي زوجة أبي بكر بن أرغون هذا ، وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخوندة ، وهي بنت السلطان المعظم محمد أوزبك ملك السرا وخوارزم . وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان .

ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة ، فصلينا بها المغرب والعشاء جمعا بينهما ، على ما جرت سنة رسول الله ﷺ .

ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها الى منى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام .

ومزدلفة كلها موقف الا وادي محسر ، ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه . ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار ، وذلك مستحب . ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف ، والأمر في ذلك واسع .

ولما انتهى الناس الى منى بادروا لرمي جمرة العقبة ، ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحلوا من كل شي الا النساء والطيب ، حتى يطوفوا طواف الافاضة . ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر . ولما رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا الى طواف الافاضة ، ومنهم من اقام الى اليوم الثاني .

وفي اليوم الثاني رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات ، وبالوسطى كذلك ، ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين ، اقتداء بفعل رسول الله ﷺ .

ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار الى مكة شرفها الله ، بعد أن كمل لهم رمي تسع وأربعين حصاة . وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة.

ذكر كسوة الكعبة

وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري الى البيت الكريم فوضعت في سطحه . فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في اسبالها على الكعبة الشريفة .

وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان ، وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، وأن الله بكل شيء عليم» .

وفي سائر جهاتها طرز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن ، وعليها نور لائح مشرق من سوادها . ولما كسيت شمرت أذيالها صونا من أيدي الناس .

والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة ، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة ، وما يحتاج اليه الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة .

وفي هذه الأيام تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي . وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام ، فيكثرون فيها الصدقات على

المجاورين وغيرهم . ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا ، فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب ، وكذلك يعطون للشاهدين للكعبة الشريفة . وربما وجدوا انسانا نائما فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق . ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا ، وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة ، وانتهى صرف المثقال الى ثمانية عشر درهما نقرة ... لكثرة ما تصدقوا به من الذهب !

وفي هذه السنة ذكر اسم السلطان أبي سعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم .

ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى

وفي الموفى عشرين لذى الحجة خرجت من مكة في صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحويح ، وهو من أهل الموصل ، وكان يلي امارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر . وكان شهاب الدين سخيا فاضلا عظيم الحرمة عند سلطانه ، يحلق لحيته وحاجبيه على الطريقة القلندرية .

ولما خرجت من مكة ، شرفها الله تعالى ، في صحبة الأمير البهلوان ، اكترى لي شقة محارة إلى بغداد ، ودفع إجارتها من ماله ، وأنزلني في جواره ، وخرجنا بعد طواف الوداع الى بطن مر ، في جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم لا يحصى عديدهم ، تموج بهم الأرض موجا ، ويسيرون سير السحاب المتراكم . فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس .

وفي هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء ، وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه

مرض . واذا نـزل الركب طبـخ طعـام في قـدور نحـاس عظيمـة تسمى الدسوت ، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه .

وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي ، كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه .

قال ابن جزى : كرم الله هذه الكعبة الشريفة ، فما أعجب أمرها في الكرم !

وحسبك بمولانا بحر المكارم ، ورافع رايات الجود ، الذي هو آية في الندى والفضل ، أمير المسلمين أبي سعيد ، ابن مولانا قامع الكفار ، والآخذ للاسلام بالثار ، أمير المسلمين أبي يوسف ... قدس الله أرواحهم الكريمة ، وأبقى الملك في عقبهم الطاهر الى يوم الدين .

وفي هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة ، وأنواع الأطعمة والفواكه . وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل أمام القطارات والمحارات ، فترى الأرض تتلألأ أنوارا ، والليل قد عاد نهارا ساطعا .

ثم رحلنا من بطن مر الى عسفان ثم الى خليص . ثم رحلنا أربع مراحل ، ونزلنا وادي السمك ، ثم رحلنا خمسا ونزلنا في بدر . وهذه المراحل ثنتان في اليوم : احداهما بعد الصبح وأخرى بالعشي .

ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء وأقمنا بها يوما مستريحين ، ومنها الى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث .

ثم رحلنا فوصلنا الى طيبة مدينة رسول الله ﷺ ، وحصلت لنا زيارة رسول الله ﷺ ثانيا ، وأقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام ، واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث .

ورحلنا عنها فنزلنا في الثالثة بوادي العروس ، فتزودنا منه الماء من حسيات يحفرون عليها في الأرض فينبطون ماء عذبا معينا .

ثم رحلنا من وادي العروس ودخلنا أرض نجد ، وهو بسيط من

الأرض مـد البصـر ، فتنسمنـا نسيمـه الطيـب الأرج .

ونزلنا بعد أربع مراحل على مـاء يعرف بـالعسيلـة ، ثم رحلنـا عنـه ونزلنـا مـاء يعرف بـالنقرة ، فيـه آثـار مصـانع كالصهـاريج العظيمـة ، ثم رحلنـا الى مـاء يعرف بـالقـارورة ، وهي مصـانع مملوءة بماء المطر ، مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونفعها . وهذا الموضع هو وسط أرض نجـد ، فسيـح طيب النسيم صحيـح الهـواء نقي التربـة ، معتـدل في كل فصل .

ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بـالحـاجر ، وفيـه مصـانع للمـاء . وربما جفت فحفر عن الماء في الجفار .

ثم رحلنا ونزلنا سميرة ، وهي أرض غائرة في بسيط فيـه شبـه حصن مسكون ، وماؤها كثير في آبار الا انه زعـاق . ويـأتي عرب تلـك الأرض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخـام ولا يبيعون بسوى ذلك .

ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق وهو في بيـداء من الأرض ، وفي أعلاه ثقب نافذ تخرقه الريح .

ثم رحلنا منه الى وادي الكروش ولا ماء به .

ثم أسرينا ليلا وصبحنـا حصن فيـد ، وهو حصن كبير في بسيـط من الأرض يدور به سور وعليه ربض ، وسـاكنوه عرب يتعيشون مع الحـاج في البيع والتجارة . وهنالك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق إلى مكة شرّفها الله تعالى ، فإذا عادوا وجـدوه وهو نصف الطريق من مكة الى بغـداد ، ومنـه الى الكوفـة مسيرة اثنى عشر يومـا في طريق سهل به المياه في المصانع . ومن عادة الركب أن يـدخلوا هـذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب ، ارهابـا للعرب المجتمعين هنـالـك ، وقطعـا لأطماعهم عن الركب .

وهنالك لقينا أميري العرب ، وهما فياض وحيار ، وهما ابنا الأمير مهنا بن عيسى ، ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة . فظهر منهما المحافظة على الحاج والرجال والحيطة لهم . وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه .

ثم رحلنا ونزلنا الموضع المعروف بالأجفر ، ويشتهر باسم العاشقين جميل وبثينة .

ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء .

ثم أسرينا ونزلنا زرود ، وهي بسيط من الأرض فيه رمال منهالة ، وبه دور صغار قد أداروها شبه الحصن ، وهنالك آبار ماء ليست بالعذبة .

ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ، ولها حصن خرب ، بازائه مصنع هائل ينزل اليه في درج ، وبه من ماء المطر ما يعم الركب . ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم ، فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن . ومن هذا الموضع الى الكوفة ثلاث مراحل .

ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم ، وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة ، وكل من مر به رجمه . ويذكر أن هذا المرجوم كان رافضيا فسافر مع الركب يريد الحج ، فوقعت بينه وبين أهل السنة من الأتراك مشاجرة ، فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة .

وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب . ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك . وبه مصنع كبير يعم جميع الركب ، مما بنته زبيدة رحمة الله عليها . وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد ، فهي من كريم آثارها ـ جزاها الله خيرا ووفى لها أجرها ـ ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكها أحد .

ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشقوق ، فيه مصنعان بهما الماء العذب

الصافي ، وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منها .

ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالتنانير ، وفيه مصنع ممتلىء بالماء .

ثم أسرينا منه واجتزنا ضحوة بزمالة ، وهي قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة ، وهي من مناهل هذا الطريق .

ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين ، وفيه مصنعان للماء .

ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان ، وصعدنا العقبة في اليوم الثاني ، وليس بهذا الطريق وعر سواها ، على أنها ليست بصعبة ولا طائلة .

ثم نزلنا موضعا يسمى واقصة ، فيه قصر كبير ومصانع للماء ، معمور بالعرب ، وهو آخر مناهل هذا الطريق . وليس فيما بعده الى الكوفة منهل مشهور ، الا مشارع ماء الفرات ، وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ، ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ، ويهنىء الناس بعضهم بعضا بالسلامة .

ثم نزلنا موضعا يعرف بلورة ، فيه مصنع كبير للماء .

ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد فيه ثلاثة مصانع .

ثم نزلنا موضعا يعرف بمنارة القرون ، وهي منارة في بيداء الأرض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها .

ثم نزلنا موضعا يعرف بالعذيب ، وهو واد مخصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر .

ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس ، التي أظهر الله فيها دين الاسلام ، وأذل المجوس عبدة النار ، فلم تقم لهم بعدها قائمة ، واستأصل الله شأفتهم . وكان أميرُ المسلمين يومئذ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضي الله عنه ، وخربت فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية

كبيـرة ، وفيهـا حدائـق النخـل ، وبهـا مشـارع مـن مـاء الفـرات .

ثم رحلنا منها فنزلنا مدينـة مشهـد علي بن أبي طـالب رضي الله عنـه بالنجف ، وهي مدينة حسنـة في أرض فسيحـة صلبـة ، من أحسن مـدن العراق وأكثرها ناسا وأتقنها بناء ، ولها أسواق حسنـة نظيفـة . دخلنـاهـا من باب الحضرة ، فـاستقبلنـا سوق البقـالين والطبـاخين والخبـازين ، ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقيسارية ، ثم سوق العطارين ، ثم باب الحضرة حيث القبر الـذي يـزعمـون أنـه قبر علي عليـه السـلام . وبـازائـه المدارس والزوايا والخوانق ، معمورة أحسن عمارة ، وحيطانها بالقاشـاني ، وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن .

ذكر الروضة والقبور التي بها

ويدخل من باب الحضرة الى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفيـة من الشيعة ، ولكل وارد عليها ضيـافـة ثلاثـة أيـام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم .

ومن تلك المدرسة يدخل الى باب القبة ، وعلى بابها الحجاب والنقبـاء والطواشية . فعندما يصل الزائر يقوم اليه أحـدهم أو جميعهم (وذلـك على قـدر الزائر) ، فيقفون معـه على العتبـة ويستـأذنون لـه ، ويقولون : عن أمركم يا أمير المؤمنين ، هذا العبد الضعيف يستـأذن على دخولـه للروضـة العليـة ، فـان أذنتم لـه والا رجع ، وان لم يكن أهـلا لـذلـك فـأنتم أهـل المكارم والستر .

ثم يأمرونه بتقبيل العتبة ، وهي من الفضة وكذلـك العضـادتـان . ثم يـدخل القبـة ، وهي مفروشـة بـأنواع البسـط من الحرير وسـواه ، وبهـا قناديل الذهب والفضة ، منها الكبار والصغار . وفي وسط القبـة مصطبـة مربعـة مكسوة بـالخشب عليـه صفـائح الـذهب المنقوشـة المحكمـة العمل ،

مسمرة بمسامير الفضة ، قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء . وارتفاعها دون القامة ، وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون أن أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام ، والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام ، والثالث قبر علي رضي الله تعالى عنه .

وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب ، يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركا .

وللقبة باب آخر عتبته أيضا من الفضة ، وعليه ستور من الحرير الملون ، يفضي الى مسجد مفروش بالبسط الحسان ، مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير ، وله أربعة أبواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير . وأهل هذه المدينة كلهم رافضية .

وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم أن بها قبر علي رضي الله عنه .

فمنها أن في ليلة السابع والعشرين من رجب - وتسمى عندهم ليلة المحيا - يؤتى الى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم ، فيجتمع منهم الثلاثون والأربعون ونحو ذلك ، فاذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس ، والناس ينتظرون قيامهم ، وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة فاذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع أصحاء من غير سوء وهم يقولون : لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، علي ولي الله ...

وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقات ، ولم أحضر تلك الليلة لكني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال ، أحدهم من أرض الروم والثاني من أصبهان ، والثالث من خراسان ، وهم مقعدون ... فاستخبرتهم عن شأنهم فأخبروني بأنهم لم يدركوا ليلة المحيا ، وأنهم منتظرون أوانها من عام آخر .

وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ، ويقيمون سوقا عظيمة مدة عشرة أيام .

وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال ، وانما يحكم عليهم نقيب الأشراف .

وأهلها تجار يسافرون في الأقطار . وهم أهل شجاعة وكرم ، ولا يضام جارهم . صحبتهم في الأسفار فحمدت صحبتهم ، لكنهم غلوا في علي رضي الله عنه .

ومن الناس ، في بلاد العراق وغيرها ، من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرا اذا برىء ، ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأسا من ذهب أو فضة ويأتي به الروضة فيجعله النقيب في الخزانة ، وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الأعضاء .

وخزانة الروضة عظيمة ، فيها من الأموال ما لا يضبط لكثرته .

ذكر نقيب الأشراف

ونقيب الأشراف مقدم من ملك العراق ، ومكانه عنده مكين ، ومنزلته رفيعة . وله ترتيب الأمراء الكبار في سفره ، وله الأعلام والأطبال ، وتضرب «الطبلخانة» عند بابه مساء وصباحا ، واليه حكم هذه المدينة ولا والي بها سواه . ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره .

وكان النقيب في عهد دخولي اليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوي (نسبة الى بلدة آوة من عراق العجم أهلها رافضة) . وكان قبله جماعة يلي كل واحد منهم بعد صاحبه ، منهم جلال الدين بن الفقيه ، ومنهم قوام الدين ابن طاوس ، ومنهم ناصر الدين مطهر ابن الشريف الصالح شمس الدين محمد الأوهري من عراق العجم ، وهو الآن بأرض

الهند ، من ندماء ملكها . ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنا ابن جماز بن شيحة الحسيني المدني .

حكاية الشريف أبي غرة

كان الشريف أبو غرة قد غلب في أول أمره العبادة ، وتعلم العلم واشتهر بذلك ، وكان ساكنا بالمدينة الشريفة كرمها الله ، في جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة .

ثم انه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة ، فمات النقيب قوام الدين ابن طاوس ، فاتفق أهل العراق على تولية أبي غرة نقابة الأشراف ، وكتبوا بذلك الى السلطان أبي سعيد ، فأمضاه ونفذ له اليرليغ - وهو الظهير بذلك - وبعث له الخلعة والأعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق ، فغلبت عليه الدنيا ، وترك العبادة والزهد ، وتصرف في الأموال تصرفا قبيحا ، فرفع أمره الى السلطان ، فلما علم بذلك أعمل السفر مظهرا أنه يريد خراسان قاصدا زيارة قبر علي بن موسى الرضى بطوس ، وكان قصده الفرار .

فلما زار قبر علي بن موسى قدم هراة -وهي آخر بلاد خراسان - وأعلم أصحابه أنه يريد بلاد الهند ، فرجع أكثرهم عنه ، وتجاوز هو أرض خراسان الى السند .

فلما جاز وادي السند المعروف بينج آب ضرب طبوله وأنقاره ، فراع ذلك أهل القرى وظنوا أن التتر أتوا للاغارة عليهم ، وأجفلوا الى المدينة المسماة بأوجا ، وأعلموا أميرها بما سمعوه ، فركب في عساكره واستعد للحرب ، وبعث الطلايع فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من الرجال والتجار ممن صحب الشريف في طريقه معهم الأطبال والأعلام ، فسألوهم عن شأنهم فأخبروهم أن الشريف نقيب العراق أتى وافدا على ملك الهند ،

فرجع الطلايع الى الأمير وأخبروه بكيفية الحال ، فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول في غير بلاده .

ودخل الشريف مدينة أوجا ، وأقام بها مدة تضرب الأطبال على باب داره غدوة وعشيا ، وكان مولعا بذلك .

ويذكر أنه كان في أيام تقابته بالعراق تضرب الأطبال على رأسه ، فاذا أمسك النقار عن الضرب يقول له : زد نقرة يا نقار .. حتى لقب بذلك .

وكتب صاحب مدينة أوجا الى ملك الهند بخبر الشريف وضربه الأطبال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشيا ، ورفعه الأعلام ، وعادة أهل الهند ألا يرفع علما ولا يضرب طبلا الا من أعطاه الملك ذلك ، ولا يفعله الا في السفر ، وأما في حال الاقامة فلا يضرب الطبل الا على باب الملك خاصة ... بخلاف مصر والشام والعراق ، فان الطبول تضرب على أبواب الأمراء .

فلما بلغ خبره ملك الهند كره فعله وأنكره ، وفعل في نفسه .

ثم خرج الأمير الى حضرة الملك . وكان الأمير كشلي خان ـ والخان عندهم أعظم الأمراء ـ وهو الساكن بملتان كرسي بلاد السند ، وهو عظيم القدر عند ملك الهند يدعوه بالعم ، لأنه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه ... قد قدم على حضرة ملك الهند ، فخرج الملك للقائه ، فاتفق أن كان وصول الشريف في ذلك اليوم ، وكان الشريف قد سبق الأمير بأميال وهو على حاله من ضرب الأطبال ، فلم يرعه الا السلطان في موكبه ، فتقدم الشريف الى السلطان فسلم عليه ، وسأله السلطان عن حاله وما الذي جاء به فأخبره .

ومضى السلطان حتى لقي الأمير كشلي خان وعاد الى حضرته ، ولم

يلتفت الى الشريف ولا أمر له بانزال ولا غيره .

وكان الملك عازما على السفر الى مدينة دولة أباذ ـ وتسمى أيضا بالكتكة ، وتسمى أيضا بالدويجر (دوكير) ـ وهي على مسيرة أربعين يوما من مدينة دهلي حضرة الملك .

فلما شرع في السفر بعث الى الشريف بخمسمائة دينار دراهم ، وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون دينارا . وقال لرسوله اليه : قل له إن أراد الرجوع الى بلاده فهذا زاده ، وان أراد السفر معنا فهي نفقته في الطريق ، وان أراد الاقامة بالحضرة فهي نفقته حتى نرجع .

فاغتنم الشريف لذلك ، وكان قصده أن يجزل له العطاء كما هي عادته مع أمثاله . واختار السفر صحبة السلطان ، وتعلق بالوزير أحمد بن اياس المدعو بخواجه جهان، وبذلك سماه الملك وبه يدعوه هو ، وبه يدعوه سائر الناس ، فان من عادتهم أنه متى سمى الملك أحد باسم مضاف الى الملك (من عماد أو ثقة أو قطب) ، وباسم مضاف الى الجهان (من صدر وغيره) ... فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس ، ومن خاطبه بسوى ذلكلزمته العقوبة ... فأكدت المودة بين الوزير والشريف ، فأحسن اليه ورفع قدره ، ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه وأمر له بقريتين من قرى دولة أباد ، وأمره أن تكون اقامته بها .

وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الأخلاق والمحبة في الغرباء والاحسان اليهم ، وفعل الخير واطعام الطعام وعمارة الزوايا ، فأقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام ، وحصل من ذلك مالا عظيما .

ثم أراد الخروج فلم يمكنه ، فانه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج الا باذنه ، وهو محب في الغرباء ، فقليلا ما يأذن لأحدهم في السراح .

فأراد الفرار من طريق الساحل فرد منه ، وقدم الحضرة ورغب من

الوزير أن يحاول قضية انصرافه . فتلطف الوزير في ذلك حتى أذن له السلطان في الخروج عن بلاد الهند ، وأعطاه عشرة آلاف دزهم من دراهمهم ، وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار . فأتى بها في بدرة ، فجعلها تحت فراشه ونام عليها لمحبته في الدنانير وفرحه بها ، وخوفه أن يتصل لأحد من أصحابه شيء منها فانه كان بخيلا ، فأصابه وجع في جنبه بسبب رقاده عليها ، ولم يزل يتزايد به وهو آخذ في حركة سفره الى أن توفي بعد عشرين يوما من وصول البدرة اليه .

وأوصى بذلك المال للشريف حسن الجراني فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلي من أهل الحجاز والعراق ... وأهل الهند لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء ولا يسألون عنه ولو بلغ ما عسى أن يبلغ ، وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الأبيض ولا يأخذونه ، وإنما يكون عند الكبار من أصحابه حتى يأتي مستحقه .

وهذا الشريف أبو غرة له أخ اسمه قاسم ، سكن غرناطة مدة وبها تزوج بنت الشريف أبي عبد الله بن ابراهيم الشهير بالمكي . ثم انتقل الى جبل طارق فسكنه الى أن استشهد بوادي كرة من نظر الجزيرة الخضراء . وكان بهمة من البهم ، لا يصطلى بناره ، خرق المعتاد في الشجاعة ، وله فيها أخبار شهيرة عند الناس ، وترك ولدين هما في كفالة ربيبهما الشريف الفاضل أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسيني الكربلائي (الشهير ببلاد المغرب بالعراقي) . وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما ، وهو محسن لهما ، جزاه الله خيرا .

ولما تمت لنا زيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام ، سافر الركب الى بغداد ، وسافرت الى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة . وهم من أهل تلك البلاد ، ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ، ولا سبيل للسفر في تلك الأقطار الا في صحبتهم . فاكتريت جملا على يد

أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجي .

وخرجنا من مشهد علي عليه السلام ، فنزلنا الخورنق ، موضع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بني ماء السماء . وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة ، في فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات .

ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقائم الواثق ، وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه الا صومعته .

ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفرات بالموضع المعروف بالعذار ، وهو غابة قصب في وسط الماء ، يسكنها أعراب يعرفون بالمعادى وهم قطاع الطريق رافضية المذهب ، خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتى النعال والكشاكل . وهم يتحصنون بتلك الغابة ويمتنعون بها ممن يريدهم . والسباع بها كثيرة . ورحلنا مع هذا الغدار ثلاث مراحل .

مدينة واسط

ثم وصلنا مدينة واسط . وهي حسنة الأقطار ، كثيرة البساتين والأشجار . وأهلها من خيار أهل العراق ، بل هم خيرهم على الاطلاق ، أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة ، واليهم يأتي أهل بلاد العراق لتعلمه . وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا لتجويد القرآن على من بها من الشيوخ . وبها مدرسة عظيمة حافلة ، فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن ، عمرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي ، وهو من كبار أهلها وفقهائها . ويعطى كل متعلم بها كسوة في السنة ، ويجري له نفقته في كل يوم ، ويقعد هو واخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة ، وقد لقيته وأضافني وزودني تمرا ودراهم .

ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثا بخارجها للتجارة ، فسنح لي زيارة قبر الولي أبي العباس أحمد الرفاعي ، وهو بقرية تعرف بأم عبيدة ، على مسيرة يوم من واسط ، فطلبت من الشيخ تقي الدين أن يبعث معي من يوصلني اليها ، فبعث معي ثلاثة من عرب بني أسد ، وهم قطان تلك الجهة ، وأركبني فرسا له .

وخرجت ظهرا فبت تلك الليلة بحوش بني أسد .

ووصلنا في ظهر اليوم الثاني الى الرواق ، وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء ، وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد قوجك حفيد ولي الله أبي العباس الرفاعي ، الذي قصدنا زيارته . وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم لزيارة قبر جده ، واليه انتهت الشيوخة بالرواق .

ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء في الرقص ، ثم صلوا المغرب وقدموا السماط ، وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر فأكل الناس . ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا في الذكر ، والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده .

ثم أخذوا في السماع ، وقد أعدوا أحمالا من الحطب فأججوها نارا ودخلوا في وسطها يرقصون ، ومنهم من يتمرغ فيها ، ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفؤوها جميعا ، وهذا دأبهم وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا ، وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه .

حكايـة الرقص في النار

كنت مررت بموضع يقال له أفقانبور ، من عمالة هزار أمروها ، وبينها وبين دهلي حضرة الهند مسيرة خمس ، وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر السرور ، وذلك في أوان الشكال (والشكال عندهم هو المطر ،

وينزل في ابان القيظ) . وكان السيل ينحدر في هذا النهر من جبال قراجيل ، فكل من يشرب منه من انسان أو بهيمة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة ، فأقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد .

ووصل الى هناك جماعة من الفقراء في أعناقهم أطواق الحديد وفي أيديهم ، وكبيرهم رجل أسود حالك اللون ، وهم من الطائفة المعروفة بالجيدرية ، فباتوا عندنا ليلة وطلب مني كبيرهم أن آتيه بالحطب ليوقدوه عند رقصهم ، فكلفت والي تلك الجهة ، وهو عزيز المعروف بالخار (وسيأتي ذكره) ، أن يأتي بالحطب ، فوجه منه نحو عشرة أحمال فأضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرا ، وأخذوا في السماع ، ثم دخلوا في تلك النار ، فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها ، وطلب مني كبيرهم قميصا ، فأعطيته قميصا في النهاية من الرقة ، فلبسه وجعل يتمرغ به في النار ويضربها بأكمامه حتى طفئت تلك النار وخمدت ، وجاء الي بالقميص والنار لم تؤثر فيه شيئا ألبته ، فطال عجبي منه .

ولما حصلت لي زيارة الشيخ أبي العباس الرفاعي ، نفع الله به ، عدت الى مدينة واسط ، فوجدت الرفقة التي كنت فيها قد رحلت ، فلحقتها في الطريق ، ونزلنا ماء يعرف بالهضيب .

ثم رحلنا ونزلنا بوادي الكراع ، وليس به ماء .

ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشيرب . ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة .

مدينة البصرة

ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهار الى مدينة البصرة ، فنزلنا بها رباط مالك بن دينار . وكنت رأيت عند قدومي عليها على نحو ميلين منها

بناء عاليا مثل الحصن ، فسألت عنه فقيل لي هو مسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد في وسطها ، وبينه الآن وبينها ميلان ، وكذلك بينه وبين السور الأول المحيط بها نحو ذلك ، فهو متوسط بينهما .

ومدينة البصرة احدى أمهات العراق ، الشهيرة الذكر في الآفاق ، الفسيحة الأرجاء ، المونقة الأفناء ، ذات البساتين الكثيرة ، والفواكه الكثيرة ، توفر قسمها من النضارة والخصب ، لما كانت مجمع البحرين الأجاج والعذب . وليس في الدنيا أكثر نخلا منها ، فيباع التمر في سوقها بحساب أربعة عشر رطلا عراقية بدرهم ، ودرهمهم ثلث النقرة . ولقد بعث الي قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على كتف ؛ فأردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم ، أخذ الحمال منها ثلثها عن أجرة حمله من المنزل الى السوق . ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان ، وهو طيب كأنه الجلاب .

والبصرة ثلاث محلات : احداها محلة هذيل ، وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير ، من الكرماء الفضلاء ، أضافني وبعث الي بثياب ودارهم .

والمحلة الثانية محلة بني حرام ، كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسنى ، ذو مكارم وفواضل ، أضافني وبعث الي التمر والسيلان والدراهم .

والمحلة الثالثة محلة العجم ، كبيرها جمال الدين بن اللوكي .

وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وايناس للغريب وقيام بحقه ، فلا يستوحش فيما بينهم غريب ، وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الذي ذكرته ، ثم يسد فلا يأتونه الا في الجمعة . وهذا المسجد من أحسن المساجد ، وصحنه متناهي الانفساح مفروش بالحصباء

الحمراء التي يؤتى بها من وادي السباع . وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قتل ، وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى : «فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم» .

حكايـة اعتبـار

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة ، فلما قام الخطيب به الى الخطبة وسردها ، لحن فيها لحنا كثيرا جليا ، فعجبت من أمره ، وذكرت ذلك للقاضي حجة الدين ، فقال لي : ان هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئا من علم النحو .

وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، فسبحان مغير الأشياء ومقلب الأمور !

هذه البصرة التي إلى اهلها انتهت رياسة النحو ، وفيها أصله وفرعه ، ومن أهلها امامه الذي لا ينكر سبقه ... لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دؤوبه عليها !

ولهذا المسجد سبع صوامع : احداها الصومعة التي تتحرك بزعمهم عند ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، صعدت اليها من أعلى سطح المسجد ومعي بعض أهل البصرة ، فوجدت في ركن من أركانها مقبض خشب مسمرا فيها ، كأنه مقبض مملسة البناء . فجعل الرجل الذي كان معي يده في ذلك المقبض وقال : بحق رأس أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ... تحركي .

وهز المقبض فتحركت الصومعة !

فجعلت أنا يدي في المقبض وقلت له : وأنا أقول : بحق رأس أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ ... تحركي .

وهززت المقبض ، فتحركت الصومعة ، فعجبوا من ذلك !

وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة ، ويخاف من يفعل مثل

فعلي عندهم . ولو جرى مثل هذا بمشهد علي أو مشهد الحسين ، أو بالحلة ، أو بالبحرين ، أو قم ، أو قاشان ، أو ساوة ، أو آوة ، أو طوس ، لهلك فاعله ، لأنهم رافضة غالية .

قال ابن جزي : قد عاينت بمدينة برشانة ـ من وادي المنصورة من بلاد الأندلس حاطها الله ـ صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم .

ذكر المشاهد المباركة بالبصرة

فمنها مشهد طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضي الله عنهم . وهو بداخل المدينة ، وعليه قبة ومسجد وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر . وأهل البصرة يعظمونه تعظيما شديدا .

ومنها مشهد الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته ، رضي الله عنه . وهو بخارج البصرة ولا قبة عليه . وله مسجد وزاوية فيها الطعام لأبناء السبيل .

ومنها قبر حليمة السعدية ، أم رسول الله ﷺ من الرضاعة رضي الله عنها ، والى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله ﷺ .

ومنها قبر أبي بكر صاحب رسول الله ﷺ وعليه قبة .

وعلى ستة أميال منها ، بقرب وادي السباع ، قبر أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، ولا سبيل لزيارته الا في جمع كثيف ، لكثرة السباع وعدم العمران .

ومنها قبر الحسن بن أبي الحسن البصري ، سيد التابعين ، رضي الله عنه .

ومنها قبر محمد بن سيرين رضي الله عنه .

ومنها قبر محمد بن واسع رضي الله عنه .

ومنها قبر عتبة الغلام رضي الله عنه .
ومنها قبر مالك بن دينار رضي الله عنه .
ومنها قبر حبيب العجمي رضي الله عنه .
ومنها قبر سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه .

وعلى كل قبر منها قبرية مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته . وذلك كله داخل السور القديم . وهي اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال .

وبها سوى ذلك قبور الجم الغفير من الصحابة والتابعين والمستشهدين يوم الجمل .

وكان أمير البصرة حين ورودي عليها يسمى بركن الدين العجمي التوريزي ، أضافني فأحسن الي .

والبصرة على ساحل الفرات ودجلة ، وبها المد والجزر كمثل ما هو بوادي سلا من بلاد المغرب وسواه . والخليج الملح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها . فاذا كان المد غلب الماء المالح على العذب ، واذا كان الجزر غلب الماء الحلو على الملح ، فيستقى أهل البصرة لدورهم ، ولذلك يقال ان ماؤهم زعاق .

قال ابن جزى : وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد ، وألوان أهلها مصفرة كاسفة ، حتى ضرب بهم المثل . وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدي الصاحب أترجة :

لله اترج غدا بيننا
معبرا عن حال ذي عبرة
لما كسا الله ثياب الضنا
أهل الهوى وساكني البصرة

ثم ركبت من ساحل البصرة في «صنبوق» ـ وهو القارب الصغير ـ الى

الأبلة ، وبينها وبين البصرة عشرة أميال ، في بساتين متصلة ونخيل مظللة عن اليمين واليسار ، والباعة في ظلال الأشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه .

وفيما بين البصرة والأبلة متعبد سهل بن عبد الله التستري ، فاذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادي ، ويدعون عند ذلك تبركا بهذا الولي رضي الله عنه .

وكانت الأبلة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس ، فخربت ، وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمها .

ثم ركبنا في الخليج الخارج من بحر فارس في مركب صغير لرجل من أهل الأبلة يسمى بمغامس ـ وذلك فيما بعد المغرب ـ فصبحنا عبادان ، وهي قرية كبيرة في سبخة لا عمارة بها . وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورباطات للصالحين ، وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال .

قال ابن جزى : عبادان كانت بلدا فيما تقدم ، وهي مجدبة لا زرع بها ، وانما يجلب اليها ، والماء أيضا بها قليل . وقد قال فيها بعض الشعراء :

من مبلغ أندلسا أنني
حللت عبادان أقصى الثرى
أوحش ما أبصرت لكنني
قصدت فيها ذكرها في الورى
الخبز فيها يتهادونه
وشربة الماء بها تشترى

وعلى ساحل البحر منها رابطة تعرف بالنسبة الى الخضر والياس عليهما السلام ، وبازائها زاوية يسكنها أربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة والزاوية ، وكل من يمر بهم يتصدق عليهم .

وذكر لي أهل هذه الزاوية أن بعبادان عابدا كبير القدر ولا أنيس له ، يأتي هذا البحر مرة في الشهر فيصطاد فيه ما يقوته شهرا ، ثم لا يرى الا بعد تمام شهر ، وهو على ذلك منذ أعوام . فلما وصلنا عبادان لم يكن لي شأن الا طلبه ، فاشتغل من كان معي بالصلاة في المساجد والمتعبدات ، وانطلقت طالبا له ، فجئت مسجدا خربا ، فوجدته يصلي فيه ، فجلست في جانبه ، فأوجز في صلاته . ولما سلم أخذ بيدي وقال لي : بلغك الله مرادك في الدنيا والآخرة . فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا وهو السياحة في الأرض ، وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيا أعلمه . وبقيت الأخرى ، والرجاء قوي في رحمة الله وتجاوزه ، وبلوغ المراد من دخول الجنة .

ولما أتيت أصحابي أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه ، فذهبوا اليه فلم يجدوه ولا وقعوا له على خبر ، فعجبوا من شأنه .

وعدنا بالعشي الى الزاوية فبتنا بها . ودخل علينا أحد الفقراء الأربعة بعد صلاة العشاء . الآخرة ، ومن عادة ذلك الفقير أن يأتي عبادان كل ليلة فيسرج السرج بمساجدها ، ثم يعود الى زاويته . فلما وصل الى عبادان وجد الرجل العابد ، فأعطاه سمكة طرية ، وقال له : أوصل هذه الى الضيف الذي قدم اليوم .

فقال لنا الفقير عند دخوله علينا : من رأى منكم الشيخ اليوم ؟

فقلت له : أنا رأيته .

فقال : يقول لك : هذه ضيافتك .

فشكرت الله على ذلك . وطبخ لنا الفقير تلك السمكة ، فأكلنا منها كلنا أجمعون . وما أكلت قط سمكا أطيب منها .

وهجس في خاطري الاقامة بقية العمر في خدمة ذلك الشيخ ،ثم صرفتني النفس اللجوج عن ذلك .

ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول . ومن عادتي في سفري ألا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك . وكنت أحب قصد بغداد العراق ، فأشار علي بعض أهل البصرة بالسفر الى أرض اللور ، ثم الى عراق العجم ، ثم الى عراق العرب ،فعملت بمقتضى اشارته .

ووصلنا بعد أربعة أيام الى بلدة ماجول ، وهي صغيرة على ساحل هذا الخليج الذي ذكرنا أنه يخرج من بحر فارس ، وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات ، ولها سوق عظيمة من أكبر الأسواق . وأقمت بها يوما واحدا ، ثم اكتريت دابة لركوبي من الذين يجلبون الحبوب من رامز الى ماجول ، وسرنا ثلاثا في صحراء يسكنها الأكراد في بيوت الشعر ، ويقال ان أصلهم من العرب .

ثم وصلنا الى مدينة رامز ، وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ، ونزلنا بها عند القاضي حسام الدين محمود ، ولقيت عنده رجلا من أهل العلم والدين والورع ، هندي الأصل يدعى بهاء الدين ويسمى اسماعيل ، وهو من أولاد الشيخ بهاء الدين أبي زكريا الملتاني ، وقرأ على مشايخ توريز وغيرها .

وأقمت بمدينة رامز ليلة واحدة . ثم رحلنا منها ثلاثا في بسيط فيه قرى يسكنها الأكراد ، وفي كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء . وحلواؤهم من رب العنب مخلوطا بالدقيق والسمن . وفي كل زاوية الشيخ والامام والمؤذن والخادم للفقراء والعبيد ، والخدم يطبخون الطعام .

ثم وصلت الى مدينة تستر، وهي آخر البسيط من بلاد أتابك، وأول الجبال.

وصف مدينة تستر

مدينة كبيرة رائقة نضرة ، وبها البساتين الشريفة ، والرياض

المنيفة ، ولها المحاسن البارعة ، والأسواق الجامعة . وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد . ووالي هذه المدينة ينسب الى سهل بن عبد الله . ويحيط بها النهر المعروف بالأزرق ، وهو عجيب ، في نهاية من الصفاء ، شديد البرودة في أيام الحر ، ولم أر كزرقته الا نهر بلخشان . ولها باب واحد للمسافرين يسمى دروازه دسبول . والدروازة عندهم : الباب . ولها أبواب غير شارعة الى النهر . وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب . والنهر عميق، وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلة .

قال ابن جزى :

وفي هذا النهر يقول بعضهم :

انظر لشـــــاذروان تستر واعتجب
من جمعـــه مـــاء لري بـــلاده

كمليـــك قـــوم جمعت أمـــوالـــه
فغـــدا يفرقـــه على أجنـــاده

والفواكه بتستر كثيرة ، والخيرات متيسرة غزيرة ، ولا مثل لأسواقها في الحسن . وبخارجها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الأقطار للزيارة ، وينذرون لها النذور ، ولها زاوية بها جماعة من الفقراء ، وهم يزعمون أنها تربة زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

وكان نزولي من مدينة تستر في مدرسة الشيخ الامام الصالح المتفنن شرف الدين موسى ، ابن الشيخ الصالح الامام العالم صدر الدين سليمان ، وهو من ذرية سهل بن عبد الله . وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل ، جامع بين العلم والدين والصلاح والايثار . وله مدرسة وزاوية ، وخدامها فتيان له أربعة : سنبل ، وكافور ، وجوهر ، وسرور . أحدهم موكل بأوقاف الزاوية ، والثاني متصرف فيما يحتاج اليه من النفقات في كل

يوم ، والثالث خادم السماط بين أيدي الواردين ومرتب الطعام لهم ، والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين . فأقمت عنده ستة عشر يوما ، فلم أر أعجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه : يقدم بين يدي الرجل ما يكفي الأربعة من طعام الأرز المفلفل المطبوخ في السمن ، والدجاج المقلي والخبز واللحم والحلواء .

وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة ، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع . ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ، ولم ألق فيمن لقيتهم مثله .

حضرت يوما عنده ببستان له على شاطىء النهر ، وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبراؤها ، وأتى الفقراء من كل ناحية ، فأطعم الجميع . ثم صلى بهم صلاة الظهر ، وقام خطيبا وواعظا بعد أن قرأ القراء أمامه بالتلاحين المبكية ، والنغمات المحركة المهيجة . وخطب خطبة بسكينة ووقار ، وتصرف في فنون العلم من تفسير كتاب الله ، وايراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه .

ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية . ومن عادة الأعاجم أن يكتبوا المسائل في رقاع ويرموها الى الواعظ فيجيب عنها . فلما رمى اليه بتلك الرقاع جمعها في يده وأخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بأبدع جواب وأحسنه . وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا .

وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة . وتبادر التائبون فأخذ عليهم العهد ، وجز نواصيهم ، وكانوا خمسة عشر رجلا من الطلبة قدموا من البصرة لذلك ، وعشرة رجال من عوام تستر .

حكايـة الشيخ السخي

لما دخلت هذه المدينة أصابني مرض الحمى . وهـذه البلاد يحم داخلهـا في زمـان الحر كما يعرض في دمشـق وسـواهـا من البـلاد الكثيرة الميـاه والفواكـه . وأصـابت الحمى أصحـابي أيضـا ، فمـات منهم شيـخ اسمـه يحيى الخراساني ، وقام الشيخ بتجهيزه من كل ما يحتاج اليه الميت وصلى عليه . وتركت بها صاحبا يدعى بهاء الدين الختني ، فمات بعد سفري .

وكنت حين مرضي لا أشتهي الأطعمة التي تصنع لي بمدرسته ، فـذكر لي الفقيه شمس الدين السندي من طلبتها طعاما فـاشتهيتـه ، ودفعت لـه دراهم وطبخ لي ذلك الطعام بالسوق وأتى به الي فأكلت منه . وبلغ ذلـك الشيخ فشق عليه وأتى الي وقال لي : كيف تفعل هـذا وتطبخ الطعـام في السوق ؟ وهلا أمرت الخدام أن يصنعوا لك ما اشتهيته ؟

ثم أحضر جميعهم وقـال لهم : جميع مـا يطلب منكم من أنـواع الطعـام والسكر وغير ذلك فأتوا اليه به ، واطبخوا له مايشاؤه . وأكـد عليهم في ذلك أشد التأكيد ، جزاه الله خيرا .

ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثا في جبال شامخة . وبكل منزل زاويـة كما تقدم ذكر ذلك .

ووصلنـا الى مـدينـة ايـذج ، وهي حضرة السلطـان أتـابـك . وعنـد وصولي اليها اجتمعت بشيخ شيوخهـا العـالم الورع نور الـدين الكرمـاني ، وله النظر في جميع الزوايـا ، وهم يسمونهـا المـدرسـة ، والسلطـان يعظمـه ويقصد زيارته ، وكذلك أربـاب الـدولـة وكبراء الحضرة يزورونـه غـدوا وعشيا . فأكرمني وأضافني وأنزلني بزاوية تعرف بـاسم الـدينوري ، وأقمت بها أياما . وكان وصولي في أيـام القيـظ وكنـا نصلي صلاة الليل ثم ننـام بـأعلى سطحهـا ، ثم ننزل الى الزاويـة ضحوة . وكان في صحبتي اثنـا عشر فقيرا منهم امام وقارئان مجيدان وخادم ، ونحن على أحسن ترتيب .

ذكر ملك ايذج وتستر

وملك ايذج في عهد دخولي اليها السلطان أتابك أفراسياب ، ابن السلطان أتابك أحمد . وأتابك ، عندهم ، سمة لكل من يلي هذه البلاد من ملك . وتسمى هذه البلاد بلاد اللور .

وولي هذا السلطان بعد أخيه أتابك يوسف ، وولي يوسف بعد أبيه أتابك أحمد . وكان أحمد ملكا صالحا ، سمعت من الثقات ببلاده أنه عمر أربعمائة وستين زاوية ببلاده ، منها بحضرة ايذج أربع وأربعون . وقسم خراج بلاده أثلاثا : فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس ، والثلث منه لمرتب العساكر ، والثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه . ويبعث منه هدية لملك العراق في كل سنة ، وربما وفد عليه بنفسه .

وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده أن أكثرها في جبال شامخة ، وقد نحتت الطرق في الصخور والحجارة وسويت ووسعت ، بحيث تصعدها الدواب بأحمالها . وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر في عرض عشرة ، وهي شاهقة متصل بعضها ببعض ، تشقها الأنهار ، وشجرها البلوط ، وهم يصنعون من دقيقه الخبز .

وفي كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة ، فاذا وصل المسافر الى مدرسة منها أتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته ، سواء طلب ذلك أو لم يطلبه ، فان عادتهم أن يأتي خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس ، ويعطي كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحما وحلواء . وكل ذلك من أوقاف السلطان عليها .

وكان السلطان أتابك أحمد زاهدا صالحا كما ذكرناه ، يلبس تحت ثيابه مما يلي جسده ثوب شعر .

حكايــة عادة اهل ايذج في مآتم امرائهم

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبي سعيـد ، فقـال لـه بعض خواصه : ان أتابك يدخل عليك وعليـه الـدرع (وظن ثوب الشرع الذي تحت ثيابه درعا) ، فأمرهم بـاختبـار ذلـك على جهـة من الانبسـاط ليعرف حقيقته ، فدخل عليه يوما فقـام اليـه الأمير الجوبـان عظيم أمراء العراق ، والأمير سويتـه أمير ديـار بكر ، والشيـخ حسن الـذي هـو الآن سلطان العراق ، وأمسكوا بثيابه كأنهم يمازحونـه ويضـاحكونـه ، فوجـدوا تحت ثياب ثوب الشعر ، ورآه السلطـان أبو سعيـد ، وقـام اليـه وعـانقـه وأجلسه الى جانبه ، وقال له : سن آطـا (ومعنـاهـا بـالتركيـة أنت أبي) ، وعوضه عن هديته بأضعافها ، وكتب لـه ألا يطـالبـه بهـديـة بعـدهـا هو ولا أولاده .

وفي تلك السنة توفي ، وولي ابنه أتـابـك يوسف عشرة أعوام ، ثم ولي أخوه أفراسياب .

ولما دخلت مدينة ايذج أردت رؤيـة السلطـان أفراسيـاب المـذكور ، فلم يتأتى لي ذلك بسبب أنه لا يخرج الا يوم الجمعة لادمانه الخمر .

وكان له ابن هو ولي عهده وليس لـه سواه ، فمرض في تلـك الأيـام . ولما كان في احدى الليالي أتـاني أحـد خـدامـه وسألني عن حـالي فعرفتـه وذهب عني ثم جـاء بعـد صلاة المغرب ومعـه طيفوران كبيران : أحـدهمـا بالطعام ، والآخر بالفـاكهـة ، وخريطـة فيهـا دراهم ، ومعـه أهل السماع بآلاتهم ، فقال : اعملوا السماع حتى يرهج الفقراء ويدعوا لابن السلطان .

فقلت له : ان أصحابي لا يدرون بالسماع ولا بالرقص .

ودعونا للسلطان ولولده ، وقسمت الدراهم على الفقراء .

ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ والنواح وقد مات المريض .

ولـما كان من الغـد دخل علي شيخ الزاويـة وأهل البلـد وقـالـوا : ان

كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والأشراف والأمراء قد ذهبوا الى دار السلطان للعزاء ، فينبغي لك أن تذهب في جملتهم ، فأبيت ذلك ، فعزموا علي فلم يكن لي بد من المسير ، فسرت معهم ، فوجدت «مشور» دار السلطان ممتلئا رجالا وصبيانا من المماليك وأبناء الملوك والوزراء والأجناد ، وقد لبسوا التلاليس وجلال الدواب ، وجعلوا فوق رؤوسهم التراب والتبن ، وبعضهم قد جز ناصيته ، وانقسموا فرقتين : فرقة بأعلى «المشور» وفرقة بأسفله ، وتزحف كل فرقة الى جهة الأخرى ، وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلون : خوند كارما . ومعناه : مولاي أنا (مولانا) ...

فرأيت من ذلك أمرا هائلا ومنظرا فظيعا لم أعهد مثله .

حكاية مأتم ابن السلطان

ومن غريب ما اتفق لي يومئذ اني دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا الى حيطان «المشور» ، وهو غاص بهم من جميع جهاته ، وهم بين باك ومتباك ومطرق ، وقد لبسوا فوق ثيابهم ثيابا من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها الى أعلى ووجوهها مما يلي أجسادهم ، وعلى رأس كل واحد منهم قطعة خرقة أو مئزر أسود . وهكذا يكون فعلهم الى تمام أربعين يوما ، وهي نهاية الحزن عندهم . وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة .

فلما رأيت جهات «المشور» غاصة بالناس نظرت يمينا وشمالا أرتاد موضعا لجلوسي ، فرأيت هناك سقيفة مرتفعة عن الأرض بمقدار شبر ، وفي احدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد ، عليه ثوب صوف شبه اللبد ، يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفي الأسفار . فتقدمت الى حيث الرجل ، وانقطع عني أصحابي لما رأوا اقدامي نحوه ،

وعجبوا مني وأنا لا علم عندي بشيء من حاله ، فقصدت السقيفة وسلمت على الرجل ، فرد السلام وارتفع عن الأرض كأنه يريد القيام ـ وهم يسمون ذلك نصف القايم ـ وقعدت في الركن المقابل له . ثم نظرت الى الناس وقد رموني بابصارهم جميعا ، فعجبت منهم ، ورأيت الفقهاء والمشايخ والأشراف مستندين الى الحائط تحت السقيفة . وأشار الي أحد القضاة أن أنحط الى جانبه فلم أفعل . وحينئذ شعرت أنه السلطان .

فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكرماني الذي ذكرناه قبل ، فصعد الى السقيفة وسلم على الرجل ، فقام اليه وجلس فيما بيني وبينه ، فحينئذ علمت أن الرجل هو السلطان .

ثم جيء بالجنازة وهي بين أشجار الأترج والليمون والنارنج ، وقد ملؤوا أغصانها بثمارها ، والأشجار بأيدي الرجال ، فكأن الجنازة تمشي في بستان ، والمشاعل في رماح طوال بين يديها ، والشمع كذلك ، فصلى عليها ، وذهب الناس معها الى مدفن الملوك ، على أربعة أميال من المدينة .

وهنالك مدرسة عظيمة يشقها النهر ، وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة ، وبخارجها حمام ، ويحف بها بستان عظيم ، وبها الطعام للوارد والصادر .

ولم أستطع أن أذهب معهم الى مدفن الجنازة لبعد الموضع ، فعدت الى المدرسة .

فلما كان بعد أيام بعث الي السلطان رسوله الذي أتاني بالضيافة أولا ، يدعوني اليه ، فذهبت معه الى باب يعرف بباب السر ، وصعدنا في درج كثيرة ، الى أن انتهينا الى موضع لا فرش به ، لأجل ما هم فيه من الحزن ، والسلطان جالس فوق مخدة وبين يديه آنيتان قد غطيتا : احداهما من الذهب والأخرى من الفضة .

وكانت بالمجلس سجادة خضراء ، ففرشت لي بالقرب منه وقعدت عليها . وليس بالمجلس الا حاجبه الفقيه محمود ، ونديم له لا أعرف اسمه . فسألني عن حالي وبلادي ، وسألني عن الملك الناصر وبلاد الحجاز ، فأجبته عن ذلك .

ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد ، فقال لي السلطان : هذا مولانا فضيل (والفقيه ببلاد الأعاجم كلها انما يخاطب بمولانا ، وبذلك يدعوه السلطان وسواه) . ثم أخذ في الثناء على الفقيه المذكور ، وظهر لي أن السكر غالب عليه ، وكنت قد عرفت ادمانه على الخمر .

ثم قال لي باللسان العربي (وكان يحسنه) : تكلم !

فقلت : ان كنت تسمع مني أقل لك .. أنت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالصلاح والزهد ، وليس فيك ما يقدح في سلطنتك غير هذا (وأشرت الى الآنيتين) . فخجل من كلامي وسكت .

وأردت الانصراف فأمرني بالجلوس ، وقال لي : الاجتماع مع أمثالك رحمة .

ثم رأيته يتمايل ويريد النوم فانصرفت .

وكنت تركت نعلي بالباب فلم أجدها ، فنزل الفقيه محمود في طلبها ، وصعد الفقيه فضيل يطلبها في داخل المجلس ، فوجدها في طاق هنالك ، فأتى الي بها فأخجلني بره ، واعتذرت اليه ، فقبل نعلي حينئذ ووضعها على رأسه ، وقال لي : بارك الله فيك ، هذا الذي قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له غيرك ، والله اني لأرجو أن يؤثر ذلك فيه .

ثم كان رحيلي من حضرة ايذج بعد أيام ، فنزلت بمدرسة السلاطين التي بها قبورهم ، وأقمت بها أياما ، وبعث الي السلطان بجملة دنانير وبعث بمثلها لأصحابي .

وسافرنا في بلاد هذا السلطان عشرة أيام في جبال شاخة ، وفي كل

ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام ، فمنها ما هو في العمارة ، ومنها ما لا عمارة حوله ، ولكن يجلب اليها جميع ما تحتاج اليه .

وفي اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كريو الرخ (وهي آخر بلاد هذا الملك) .

وسافرنا منها في بسيط من الأرض كثير المياه من عمالة مدينة أصفهان .

ثم وصلنا الى بلدة أشتركان ، وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ، ولها مسجد بديع يشقه النهر .

ثم رحلنا الى مدينة فيروزان ، واسمها كأنه تثنية فيروز ، وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين . وصلناها بعد صلاة العصر ، فرأينا أهلها قد خرجوا لتشييع جنازة ، وقد أوقدوا خلفها وأمامها المشاعل ، وأتبعوها بالمزامير والمغنين بأنواع الأغاني المطربة ، فعجبنا من شأنهم .

وبتنا بها ليلة ، ومررنا بالغد بقرية يقال لها نبلان ، وهي كبيرة على نهر عظيم ، والى جانبه مسجد في النهاية من الحسن ، يصعد اليه في درج وتحفه البساتين .

وسرنا يوما فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان الكثيرة أبراج الحمام ، ووصلنا بعد العصر الى مدينة أصفهان من عراق العجم .

وصف مدينة أصفهان

ومدينة أصفهان من كبار المدن واحسنها الا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بها بين أهل السنة والروافض ، وهي متصلة بينهم حتى الآن ، فلا يزالون في قتال . وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذي لا نظير له ، يسمونه بقمر الدين ، وهم ييبسونه ويدخرونه ، ونواه ينكسر عن لوز حلو ، ومنها السفرجل الذي لا مثيل

لـه في طيب المطعم وعظم الجرم ، والأعنـاب الطيبـة ، والبطيخ العجيب الشأن الـذي ليس في الـدنيـا مثلـه ، الا مـا كان من بطيـخ بخـاري وخـوارزم ، وقشره أخضر وداخلـه أحمر ، ويـدخر كما تـدخر الشريحـة بالمغرب ، وله حلاوة شديدة ، ومن لم يكن ألف أكلـه فـانـه في أول أمره يسهله ، وكذلك اتفق لي لما أكلته بأصفهان .

وأهل أصفهان حسـان الصور ، وألوانهم بيض زاهرة مشوبـة بـالحمرة ، والغالب عليهم الشجاعة والنجدة ، وفيهم كرم وتنـافس عظيم فيما بينهم في الأطعمة ، تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة ، وربما دعا أحدهم صاحبـه فيقول له : اذهب معي لتأكل نـانـا ومـاسـا (والنـان بلسـانهم : الخبز ، والمـاس : اللبن) ، فاذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مباهيا له بذلك .

وأهل كل صنـاعـة يقـدمون على أنفسهم كبيرا منهم ، يسمونـه الكلو ، وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات .

وتتكون الجمـاعـة من الشبـان الأعزاب ، وتتفـاخر تلـك الجمـاعـات ، ويضيف بعضهم بعضا ، مظهرين لما قدروا عليه من الامكان ، محتفلين في الأطعمة وسواها الاحتفال العظيم .

ولقد ذكر لي أن طـائفـة منهم أضـافت أخرى فطبخوا طعـامهم بنـار الشمع ، ثم أضافتها الأخرى فطبخوا طعامهم بالحرير .

وكان نزولي بـأصفهـان في زاويـة تنسب للشيـخ علي بن سهـل تلميـذ الجنيد ، وهي معظمة يقصدهـا أهل تلـك الآفـاق ويتبركون بزيـارتهـا ، وفيهـا الطعـام للـوارد والصـادر ، وبهـا حمـام عجيب مفروش بـالرخـام وحيطـانـه بـالقـاشـاني ، وهـو موقـوف في السبيـل ، لا يلـزم أحـدا في دخوله شيء .

وشيخ هـذه الزاويـة الصـالح العـابـد الورع قطب الـدين حسين ابن الشيـخ الصـالـح ولي الله شمس الـدين محمـد بن محمـود بن علي المعروف

بالرجاء . وأخوه العالم المفتي شهاب الدين أحمد . أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يوما ، فرأيت من اجتهاده في العبادة وحبه في الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب ، وبالغ في اكرامي وأحسن ضيافتي وكساني كسوة حسنة .

وساعة وصولي الزاوية بعث الي بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذي وصفناه آنفا ، ولم أكن رأيته قبل ولا أكلته .

كرامة لهذا الشيخ

دخل علي يوما بموضع نزولي من الزاوية ، وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ ، وكانت ثيابه قد غسلت في ذلك اليوم ونشرت في البستان . ورأيت في جلتها جبة بيضاء مبطنة ، تدعى عندهم هزرميخى ، فأعجبتني وقلت في نفسي : مثل هذه كنت أريد .

فلما دخل علي الشيخ نظر في ناحية البستان وقال لبعض خدامه : ائتني بذلك الثوب . فأتوا به فكساني اياه ، فأهويت الى قدميه اقبلهما ، وطلبت منه أن يلبسني «طاقية» من رأسه ويجيزني في ذلك بما أجازه والده عن شيوخه . فألبسني اياها في الرابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وسبعمائة بزاويته المذكورة ، كما لبس من والده شمس الدين ، ولبس والده من أبيه تاج الدين محمود ، ولبس محمود من أبيه شهاب الدين علي الرجاء ، ولبس علي من الامام شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي ، ولبس عمر من الشيخ الكبير ضياء الدين أبي النجيب السهروردي ، ولبس أبو النجيب من عمه الامام وحيد الدين عمر ، ولبس عمر من والده محمد بن عبد الله المعروف بعمويه ، ولبس محمد من الشيخ أخي فرج الزنجاني ، ولبس أخو فرج من الشيخ أحمد الدينوري ، ولبس أحمد من الامام ممشاد الدينوري ، ولبس ممشاد

من الشيخ المحقق علي ابن سهل الصوفي ، ولبس علي من أبي القاسم الجنيد ، ولبس الجنيد من سرى السقطي ، ولبس سرى السقطي من داود الطائي ، ولبس داود من الحسن بن أبي الحسن البصري ، ولبس الحسن بن أبي الحسن البصري ، ولبس الحسن بن أبي الحسن البصري من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

قال ابن جزى : هكذا أورد الشيخ أبو عبد الله هذا السند . والمعروف فيه أن سريا السقطي صحب معروفا الكرخي ، وصحب معروف داود الطائي ، وكذلك داود الطائي بينه وبين الحسن حبيب العجمي . وأخو فرج الزنجاني انما المعروف أنه صحب أبا العباس النهاوندي ، وصحب النهاوندي أبا عبد الله بن خفيف ، وصحب ابن خفيف أبا محمد رويما ، وصحب رويم أبا القاسم الجنيد . وأما محمد ابن عبد الله عمويه فهو الذي صحب الشيخ أحمد الدينوري الأسود ، وليس بينهما أحد ، والله أعلم . والذي صحب أخا فرج الزنجاني هو عبد الله بن محمد بن عبد الله والد أبي النجيب ..

ثم سافرنا من أصفهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز ، وبينهما مسيرة عشرة أيام ، فوصلنا الى بلدة كليل ، وبينها وبين أصفهان مسيرة ثلاثة . وهي بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين وفواكه : رأيت التفاح يباع في سوقها خمسة عشر رطلا عراقية بدرهم ، ودرهمهم ثلث النقرة .

ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافي ، وله مال عريض قد أعانه الله على انفاقه في سبيل الخيرات ، من الصدقة وعمارة الزوايا واطعام الطعام لأبناء السبيل .

ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا الى قرية كبيرة تعرف بصرماء ، وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، عمرها خواجه كافي أيضا .

ثم سرنا منها الى يزدخاص ، بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة

السوق ، والمسجد الجامع بها عجيب مبني بالحجارة مسقوف بها ، والبلدة على ضفة خندق فيه بساتينها ومياهها . وبخارجها رباط ينزل به المسافرون عليه باب حديد ، وهو في النهاية من الحصانة والمنعة . وبداخله حوانيت يباع فيها كل ما يحتاج اليه المسافرون . وهذا الرباط عمره الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي اسحق ملك شيراز .

وفي يزدخاص يصنع الجبن اليزدخاصي ، ولا نظير له في طيبه ، ووزن الجبنة منه أوقيتين الى أربع .

ثم سرنا منها على طريق دشت الروم ، وهي صحراء يسكنها الاتراك .

ثم سافرنا الى مايين ، وهي بلدة صغيرة كثيرة الأنهار والبساتين حسنة الأسواق ، وأكثر أشجارها الجوز .

ثم سافرنا منها الى مدينة شيراز .

وصف شيراز

وهي مدينة أصيلة البناء ، فسيحة الأرجاء ، شهيرة الذكر ، منيفة القدر ، لها البساتين المونقة ، والأنهار المتدفقة ، والأسواق البديعة ، والشوارع الرفيعة . وهي كثيرة العمارة ، متقنة المباني ، عجيبة الترتيب ، وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم ، وأهلها حسان الصور نظاف الملابس ، وليس في المشرق بلد تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها الا شيراز .

وهي في بسيط من الأرض تحف بها البساتين من جميع الجهات ، وتشقها خمسة أنهار : أحدها النهر المعروف بركن آباد ، وهو عذب الماء شديد البرودة في الصيف ، سخن في الشتاء ، فينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمى القليعة .

ومسجدها الأعظم يسمى بالمسجد العتيق ، وهو من أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء ، وصحنه متسع مفروش بالمرمر ، ويغسل في أوان الحر كل ليلة ، ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كل عشية ، ويصلون به المغرب والعشاء .

وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضي الى سوق الفاكهة ، وهي من أبدع الأسواق ، وأنا أقول بتفضيلها على سوق باب البريد من دمشق .

وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف ، وخصوصا نساءها ، وهن يلبسن الخفاف ويخرجن ملتحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شيء ، ولهن الصدقات والايثار . ومن غريب حالهن أنهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم ، فربما اجتمع منهن الألف والألفان ، بأيديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر . ولم أر اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد .

وعند دخولي الى مدينة شيراز لم يكن لي هم الا قصد الشيخ القاضي الامام قطب الأولياء ، فريد الدهر ، ذي الكرامات الظاهرة مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداداد ، ومعنى خداداد : عطية الله . فوصلت الى المدرسة المجدية المنسوبة اليه ، وبها سكناه ، وهي من عمارته . فدخلت اليه رابع أربعة من أصحابي ، ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة في انتظاره ، فخرج الى صلاة العصر ، ومعه محب الدين وعلاء الدين ابنا أخيه شقيقه ، روح الدين : أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله . وهما نائباه في القضاء لضعف بصره وكبر سنه . فسلمت عليه وعانقني وأخذ بيدي الى أن وصل الى مصلاه ، فأرسل يدي ، وأومأ إلي أن أصلي إلى جانبه ففعلت ، وصلى صلاة العصر ، ثم قرىء بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الأنوار للصاغاني . وطالعه نائباه بما جرى لديهما عن القضايا . وتقدم كبار المدينة للسلام عليه ، وكذلك عادتهم معه صباحا

ومساء . ثم سألني عن حالي وكيفية قدومي ، وسألني عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك . وأمر خدامه فأنزلوني بدويرة صغيرة بالمدرسة .

وفي غد ذلك اليوم وصل اليه رسول ملك العراق السلطان أبي سعيد ، وهو ناصر الدين الدرقندي من كبار الأمراء ، خراساني الأصل ، فعند وصوله اليه نزع «شاشيته» عن رأسه ، وقبل رجل القاضي ، وقعد بين يديه ممسكا أذن نفسه بيده . وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم . وكان هذا الأمير قد قدم في نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ، ونزل خارج المدينة . ودخل الى القاضي في خمسة نفر ، ودخل مجلسه وحده منفردا تأدبا .

حكاية هي السبب في تعظيم هذا الشيخ وهي من الكرامات الباهرة

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده ، قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الامامية يسمى جمال الدين بن مطهر . فلما أسلم السلطان وأسلمت باسلامه التتر ، زاد في تعظيم هذا الفقيه ، فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره ، وشرح له حال الصحابة والخلافة ، وقرر لديه أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله ، وأن عليا ابن عمه وصهره هو وارث الخلافة ، ومثل له ذلك بما هو مألوف عنده من أن الملك الذي بيده انما هو ارث عن أجداده وأقاربه ، مع حدثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين ، فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض ، وكتب بذلك الى العراقين وفارس وأذربيجان وأصفهان وكرمان وخراسان ، وبعث الرسل الى البلاد ، فكان أول بلاد وصل اليها ذلك بغداد وشيراز وأصفهان .

فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الأزج منهم ، وهم أهل السنة ، وأكثرهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل ، وقالوا : لا سمع ولا طاعة ! وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة فيس في السلاح وبه رسول السلطان . فلما صعد الخطيب المنبر قاموا اليه ، وهم نحو اثني عشر ألفا في سلاحهم ، وهم حماة بغداد والمشار اليهم فيها ، فحلفوا له أنه ان غير الخطبة المعتادة أو زاد فيها أو نقص منها فانهم قاتلوه وقاتلو رسول الملك ، ومستسلمون بعد ذلك لما شاء الله . وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ، ولا يذكر الا اسم علي ومن تبعه كعمار رضي الله عنهم . فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة .

وفعل أهل شيراز وأصفهان كفعل أهل بغداد . فرجعت الرسل الى الملك فأخبروه بما جرى في ذلك ، فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث ، فكان أول من أتى به منهم القاضي مجد الدين قاضي شيراز ، والسلطان إذ ذاك في موضع يعرف بقراباغ ، وهو موضع مصيفه . فلما وصل القاضي أمر أن يرمى به الى الكلاب التي عنده ، وهي كلاب ضخام في أعناقها السلاسل معدة لأكل بني آدم . فاذا أتى بمن يسلط عليه الكلاب جعل في رحبة كبيرة مطلقا غير مقيد ، ثم بعثت تلك الكلاب عليه ، فيفر امامها ولا مفر له ، فتدركه فتمزقه وتأكل لحمه .

فلما أرسلت الكلاب على القاضي مجد الدين ووصلت اليه ، بصبصت اليه وحركت أذنابها بين يديه ، ولم تهجم عليه بشيء . فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافي القدمين ، فأكب على رجلي القاضي يقبلها ، وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب . وهي أعظم كرامات السلطان عندهم . واذا خلع ثيابه كذلك على أحد كانت شرفا له ولبنيه وأعقابه يتوارثونه ، ما دامت تلك الثياب أو شيء منها . وأعظمها في ذلك السراويل .

ولما خلع السلطان ثيابه على القاضي مجد الدين أخذ بيده وأدخله الى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به . ورجع السلطان عن مذهب الرفض ، وكتب الى بلاده أن يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأجزل العطاء للقاضي وصرفه الى بلاده مكرما معظما ، وأعطاه في جملة عطاياه مائة قرية من قرى جمكان ، وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخا يشقه نهر عظيم ، والقرى منتظمة بجانبيه ، وهو أحسن موضع بشيراز .

ومن قراه العظيمة التي تضاهي المدن ، قرية ميمن ، وهي للقاضي المذكور .

ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان : أن نصفه مما يلي شيراز ، وذلك مسافة اثنى عشر فرسخا ، شديد البرد ، وينزل فيه الثلج ، وأكثر شجره الجوز ، والنصف الآخر مما يلي بلاد هنج وبال وبلاد اللار ، في طريق هرمز ، شديد الحر وفيه شجر النخيل .

وقد تكرر لي لقاء القاضي مجد الدين ثانية حين خروجي من الهند ،قصدته من هرمز متبركا بلقائه ، وذلك سنة ثمان وأربعين . وبين هركز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما ، فدخلت عليه ، وهو قد ضعف عن الحركة ، فسلمت عليه فعرفني ، وقام الي فعانقني ، ووقعت يدي على مرفقه ، وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينهما . وأنزلني بالمدرسة حيث أنزلني أول مرة .

وزرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا اسحاق (وسيقع ذكره) قاعدا بين يديه ممسكا بأذن نفسه ، وذلك هو غاية الأدب عندهم ، ويفعله الناس اذا قعدوا بين يدي الملك .

واتيته مرة أخرى الى المدرسة فوجدت بابها مسدودا ، فسألت عن سبب ذلك فأخبرت أن أم السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة في

ميراث ، فصرفهما الى القاضي مجد الدين ، فوصلتا اليه الى المدرسة وتحاكتا عنده ، وفصل بينهما بواجب الشرع .

وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضي ، وانما يقولون له : مولانا أعظم ، وكذلك يكتبون في التسجيلات والعقود التي تفتقر الى ذكر اسمه فيها . وكان آخر عهدي به في شهر ربيع الثاني من عام ثمانية وأربعين وسبعمائة . ولاحت على أنواره وظهرت لي بركاته ، نفع الله به وبأمثاله .

ذكر سلطان شيراز

وسلطان شيراز في عهد قدومي عليها الملك الفاضل أبو اسحاق بن محمد شاه ينجو ، سماه أبوه باسم الشيخ أبي اسحاق الكازروني نفع الله به .

وهو من خيار السلاطين ، حسن الصورة والسيرة والهيئة ، كريم النفس جميل الأخلاق متواضع ، صاحب قوة وملك كبير ، وعسكره ينيف على خمسين ألفا من الترك والأعاجم .

وبطانته الأدنون اليه أهل أصفهان . وهو لا يأتمن أهل شيراز على نفسه ، ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لأحد منهم حمل السلاح ، لأنهم أهل نجدة وبأس شديد ، وجراءة على الملوك . ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب . ولقد شاهدت مرة رجلا تجره «الجنادرة» ـ وهم الشرط ـ الى الحاكم ، وقد ربطوه في عنقه ، فسألت عن شأنه فأخبرت أنه وجدت في يده قوس بالليل . فذهب السلطان المذكور الى قهر أهل شيراز وتفضيل الأصفهانيين عليهم ، لأنه يخافهم على نفسه .

وكان أبوه محمد شاه ينجو واليا على شيراز من قبل ملك العراق ، وكان حسن السيرة محببا الى أهلها . فلما توفي ولي السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسينا ، وهو ابن الجوبان أمير الأمراء (وسيأتي ذكره) ، وبعث معه العساكر الكثيرة ، فوصل الى شيراز وملكها وضبط مجابيها .

وهي من أعظم بلاد الله مجبى . ذكر لي الحاج قوام الدين الطمغجي ـ وهو والي الجبى بها ـ أنه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم في كل يوم (وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار ذهبا) .

وأقام بها الأمير حسين مدة ، ثم أراد القدوم على ملك العراق فقبض على أبي اسحاق بن محمد شاه ينجو ، وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك ، وعلى والدته طاش خاتون ، وأراد حملهم الى العراق ليطالبوا بأموال أبيهم . فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقعة حياء أن ترى في تلك الحال ، فان عادة نساء الأتراك ألا يغطين وجوههن ، واستغاثت بأهل شيراز ، وقالت : أهكذا يا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان ؟

فقام رجل من النجارين يسمى بهلوان محمود ، وقد رأيته بالسوق حين قدومي على شيراز ، فقال : لا نتركها تخرج من بلادنا ولا نرضى بذلك .

فتابعه الناس على قوله ، وثارت عامتهم ودخلوا في السلاح وقتلوا كثيرا من العسكر ، وأخذوا الأموال وخلصوا المرأة وأولادها .

وفر الأمير حسين ومن معه ، وقدم على السلطان أبي سعيد مهزوما ، فأعطاه العساكر الكثيفة ، وأمره بالعود الى شيراز والتحكم في أهلها بما شاء . فلما بلغ أهلها ذلك علموا أنهم لا طاقة لهم به . فقصدوا القاضي مجد الدين وطلبوا منه أن يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح ، فخرج الى الأمير حسين ، فترجل له الأمير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح .

ونزل الأمير حسين ذلك اليوم خارج المدينة . فلما كان من الغد برز أهلها للقائه في أجمل ترتيب ، وزينوا البلد وأوقدوا الشمع الكثير . ودخل الأمير حسين في أبهة وحفل عظيم ، وسار فيهم بأحسن سيرة .

فلما مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه وتغلب كل أمير على ما

بيده ، خافهم الأمير حسين على نفسه وخرج عنهم . وتغلب السلطان أبو اسحاق عليها وعلى أصفهان وبلاد فارس ، وذلك مسيرة شهر ونصف شهر .

واشتدت شوكته ، وطمحت همته الى تملك ما يليه من البلاد . فبدأ بالأقرب منها وهي مدينة يزد ، مدينة حسنة نظيفة عجيبة الأسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة . وأهلها تجار شافعية المذهب ، فحاصرها وتغلب عليها ، وتحصن الأمير مظفر شاه ابن الأمير محمد شاه ابن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة تحدق بها الرمال ، فحاصره بها ، فظهر من الأمير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ولم يسمع بمثله . فكان يضرب على عسكر السلطان أبي اسحاق ليلا ، ويقتل ما شاء ويحرق المضارب والفساطيط ، ويعود الى قلعته فلا يقدر على النيل منه .

وضرب ليلة على دوار السلطان ، وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة ، وعاد الى قلعته . فأمر السلطان أن تركب في كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعوا له الكمائن ، ففعلوا ذلك . وخرج على عادته في مائة من أصحابه فضرب على العسكر ، وأحاطت به الكمائن وتلاحقت العساكر، فقاتلهم وخلص الى قلعته ، ولم يصب من أصحابه الا واحد ، أتي به الى السلطان أبي اسحاق فخلع عليه وأطلقه ، وبعث معه أمانا لمظفر لينزل اليه فأبى ذلك .

ثم وقعت بينهما المراسلة ، ووقعت له محبة في قلب السلطان أبي اسحاق،لما رأى من شجاعته، فقال: أريد أن أراه، فاذا رأيته انصرفت عنه.

فوقف السلطان في خارج القلعة ، ووقف هو ببابها وسلم عليه ، فقال له السطان : انزل على الأمان .

فقال له مظفر : اني عاهدت الله ألا أنزل اليك حتى تدخل أنت قلعتي ، وحينئذ أنزل اليك .

فقـال لـه : أفعـل ذلـك .

فدخل اليه السلطان في عشرة من أصحابه الخواص . فلمـا وصل بـاب القلعة ترجل مظفر ، وقبل ركابـه ، ومشى بين يـديـه مترجلا . فـأدخلـه داره وأكل من طعامه ، ونزل معه الى المحلة راكبا ، فأجلسه السلطـان الى جانبه وخلع عليـه ثيـابـه وأعطـاه مـالا عظيمـا ، ووقع الاتفـاق بينهما أن تكون الخطبة بـاسم السلطـان أبي اسحـاق ، وتكون البلاد لمظفر وأبيـه . وعاد السلطان الى بلاده .

وكان السلطـان أبو اسحـاق طمـح ذات مرة الى بنـاء ايـوان كايـوان كسرى ، وأمر أهل شيراز أن يتولوا حفر أساسه ، فأخذوا في ذلك . وكان أهل كل صناعة يباهون كل من عداهم ، فانتهوا في المبـاهـاة الى أن صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلـد وكسوهـا ثيـاب الحرير المزركش . وفعلوا نحـو ذلـك في براذع الـدواب وأخراجهـا . وصنـع بعضهم الفـؤوس من الفضة ، وأوقدوا الشمع الكثير .

وكانوا حين الحفر يلبسون أجمـل ثيـابهم ويربطـون فـوط الحرير على أوساطهم ، والسلطان يشاهد أفعالهم من منظرة له . وقـد شـاهـدت هـذا المبنى وقد ارتفع عن الأرض نحو ثلاث أذرع .

ولما بنى أساسه رفع عن أهل المدينـة التخـديم فيـه ، وصـارت الفعلـة تخدم فيـه بـالأجرة ، ويحشر لـذلـك آلاف منهم . وسمعت والي المـدينـة يقول : ان معظم مجباها ينفق في ذلك البناء . وقـد كان الموكل بـه الأمير جلال الدين ابن الفلكي التوريزي ، وهو من الكبار ، كان أبوه نائبـا عن وزير السلطان أبي سعيد المسمى علي شاه جيلان .

ولهـذا الأمير جلال الـدين الفلكي أخ فـاضل اسمـه هبـة الله ، ويلقب بهاء الملك ، وفد على ملـك الهنـد حين وفودي عليـه ، ووفـد معنـا شرف الملك أمير بخت ، فخلع ملك الهند علينا جميعا ، وقدم كل واحد في شغل

يليق به ، وعين لنا المرتب والاحسان (وسنذكر ذلك) .

وهذا السلطان أبو اسحاق يريد التشبه بملك الهند في الايثار واجزال العطايا ، ولكن أين الثريا من الثرى ؟ اذ أعظم ما تعرفناه من عطيات أبي اسحاق أنه أعطى الشيخ زاده الخراساني ، الذي أتاه رسولا عن ملك هراة ، سبعين ألف دينار . وأما ملك الهند فلم يزل يعطي أضعاف ذلك لمن لا يحصى كثرة من أهلّ خراسان وغيرهم .

حكاية ملك الهند وكرمه

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين أنه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان ، هروى الدار من سكان خوارزم ، يسمى بالأمير عبد الله ، بعثته الخاتون ترابك زوج الأمير قطلودمور ، صاحب خوارزم ، بهدية الى ملك الهند المذكور ، فقبلها وكافأ عنها بأضعافها ، وبعث ذلك اليها .

واختار رسولها الاقامة عنده فصيره في ندمائه . فلما كان ذات يوم قال له : ادخل الى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب ، فذهب الى داره فأتى بثلاث عشرة خريطة ، وجعل في كل خريطة قدر ما وسعته ، وربط كل خريطة بعضو من أعضائه ـ وكان صاحب قوة ـ وقام بها . فلما خرج من الخزانة وقع ولم يستطع النهوض ، فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملته ثلاثة عشر منا بأمنان دهلى ، والمن الواحد خمسة وعشرون رطلا مصرية . فأمره أن يأخذ جميع ذلك فأخذه وذهب به .

حكاية تناسبها

اشتكى مرة أمير بخت الملقب بشرف الملك الخراساني ، وهو الذي تقدم

ذكره آنفا ، بحضرت ملك الهند ، فأتاه الملك عائدا . ولما دخل عليه أراد القيام ، فحلف له الملك ألا ينزل عن كته (والكت هو السرير) ، ووضع للسلطان متكأة فقعد عليها ، ثم دعا بالذهب والميزان فجيء بذلك ، وأمر المريض أن يقعد في احدى كفتي الميزان ، فقال : يا خوند عالم لو علمت انك تفعل هذا للبست علي ثيابا كثيرة .

فقال له : البس الآن جميع ما عندك من الثياب .

فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن ، وقعد في كفة الميزان ، ووضع الذهب في الكفة الأخرى حتى رجحه الذهب . وقال له : خذ هذا فتصدق به على رأسك . وخرج عنه .

حكايـة تناسبـها

وفد عليه الفقير عبد العزيز الأردويلي ، وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق وتفقه فيه ، فجعل مرتبه مائة دينار دراهم في اليوم (وصرف ذلك خمسة وعشرون دينارا ذهبا) .

وحضر مجلسه يوما فسأله السلطان عن حديث فسرد له أحاديث كثيرة في ذلك المعنى ، فأعجبه حفظه ، وحلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه .

ثم نزل الملك عن مجلسه فقبل قدميه وأمر باحضار صينية من ذهب - وهي مثل الطيفور الصغير - وأمر أن يأتى فيها ألف دينار من الذهب ، وأخذها السلطان بيده فصبها عليه وقال : هي لك مع الصينية ...

ووفد عليه مرة رجل خراساني يعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الاسفرايني ، وكان أبوه نزل بغداد ، فأعطاه خمسين ألف دينار دراهم وخيلا وعبيدا وخلعا .

وسنذكر كثيرا من أخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند ، وانما ذكرنا

هذا لما قدمناه من أن السلطان أبا اسحاق يريد التشبه به في العطايا . وهو ، وإن كان كريما فاضلا ، فلا يلحق بطبقة ملك الهند في الكرم والسخاء .

ذكر بعض المشاهد بشيراز

فنها مشهد أحمد بن موسى أخي علي الرضا ابن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله تعالى عنهم . وهو مشهد معظم عند أهل شيراز ، يتبركون به ويتوسلون الى الله تعالى بفضله . وبنت عليه طاش خاتون أم السلطان أبي اسحاق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر. والقراء يقرؤون القرآن على التربة دائما ومن عادة الخاتون أنها تأتي إلى هذا المشهد في كل ليلة اثنين ، ويجتمع في تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء بسمعت من الثقات أن الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء ألف وأربعمائة ونيف ، بين صغير وكبير ، ونقيبهم عضد الدين الحسيني .

فاذا حضر القوم بالمشهد المبارك ختموا القرآن قراءة في المصاحف ، وقرأ القراء بالأصوات الحسنة ، وأتى بالطعام والفواكه والحلواء . فاذا أكل القوم وعظ الواعظ . ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر الى العشى ، والخاتون في غرفة مطلة على المسجد لها شباك . ثم تضرب الطبول والأنفار والبوقات على باب التربة كما يفعل عند أبواب الملوك .

ومن المشاهد بها مشهد الامام القطب الولي أبي عبد الله بن خفيف ، المعروف عندهم بالشيخ ، وهو قدوة بلاد فارس كلها ، ومشهده معظم عندهم يأتون اليه بكرة وعشيا ويتمسحون به . وقد رأيت القاضي مجد الدين أتاه زائرا واستلمه .

وتأتي الخاتون الى هذا المسجد في كل ليلة جمعة . وعليه زاوية

ومدرسة ، ويجتمع به القضاة والفقهاء ، ويفعلون به كفعلو
بن موسى . وقد حضرت الموضعين جميعا . وتربة الأمير
والد السلطان أبي اسحاق متصلة بهذه التربة .

والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر في الأولياء
وهو الذي أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أر

كرامة لهذا الشيخ

يحكى أنه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين .
فأصابتهم مجاعة في طريق الجبل حيث لا عمارة ، وتاهوا عن
وطلبوا من الشيخ أن يأذن لهم في القبض على بعض الفيلة الص
في ذلك المحل كثيرة جدا ، ومنه تحمل الى حضرة ملك الهند
الشيخ عن ذلك ، فغلب عليهم الجوع ، فتعدوا قول الشيخ وقب
فيل صغير منها، وذكوه وأكلوا لحمه ، وامتنع الشيخ عن أكله .

فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت
فكانت تشم الرجل منهم وتقتله ، حتى أتت على جميعهم ، وشمت
ولم تتعرض له .

وأخذه فيل منها ولف عليه خرطومه ورمى به على ظهره ، و
الموضع الذي فيه العمارة . فلما رآه أهل تلك الناحية عجبوا منه واس
ليتعرفوا أمره . فلما قرب منهم أمسكه الفيل بخرطومه ووضعه عن
الى الأرض بحيث يرونه ، فجاءوا اليه وتمسحوا به ، وذهبوا به الى م
فعرفوه خبره (وهم كفار) ، وأقام عندهم أياما .

وذلك الموضع على خور يسمى خور الخيزران (والخور هو النهر
وبذلك الموضع مغاص الجوهر .

ويذكر أن الشيخ غاص في بعض تلك الأيام بحضر ملكهم وخر

وقد ضم يديه معا ، وقال للملك : اختر ما في احداهما . فاختار ما في اليمنى ، فرمى اليه بما فيها ، وكانت ثلاثة أحجار من الياقوت لا مثيل لها ، وهي عند ملوكهم في التاج يتوارثونها .

وقد دخلت جزيرة سيلان هذه . وهم مقيمون على الكفر ، الا أنهم يعظمون فقراء المسلمين ويأوونهم الى دورهم ، ويطعمونهم الطعام ، ويكونون في بيوتهم بين أهليهم وأولادهم ، خلافا لسائر كفار الهند ، فانهم لا يقربون المسلمين ولا يطعمونهم في آنيتهم ولا يسقونهم فيها ، مع أنهم لا يؤذونهم ولا يهجونهم . ولقد كنا نضطر الى أن يطبخ لنا بعضهم اللحم فيأتون به في قدورهم ويقعدون على بعد منا ، ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الأرز (وهو طعامهم) ، ويصبون عليه الكوشان (وهو الادام) ويذهبون ، فنأكل منه ، وما فضل عنا تأكله الكلاب والطير . وان أكل منه الولد الصغير الذي لا يعقل ضربوه وأطعموه روث البقر ، وهو الذي يطهر في زعمهم .

ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روزجهان القبلي . من كبار الأولياء ، وقبره في مسجد جامع يخطب فيه . وبذلك المسجد يصلي القاضي مجد الدين الذي تقدم ذكره رضي الله عنه .

وبهذا المسجد سمعت عليه كتاب مسند الامام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي ، قال : أخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا ، قالت : أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أبي بكر بن المبارك الزبيدي ، قال : أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي ، قال : أخبرنا أبو الحسن المكي بن محمد بن منصور ابن علان العرضي ، قال : أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن الحرشي ، عن أبي العباس بن يعقوب الأصم ، عن الربيع بن سليمان المرادي ، عن الامام أبي عبد الله الشافعي .

وسمعت أيضا عن القاضي مجد الدين بهذا المسجد المذكور كتاب

مشارق الأنوار للامام رضى الدين أبي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني ، بحق سماعه له من الشيخ جلال الدين أبي هاشم محمد بن أحمد الهاشمي الكوفي ، بروايته عن الامام نظام الدين محمود بن محمد بن عمر الهروي ، عن المصنف .

ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب وعليه زاوية لاطعام الطعام .

وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة ، وكذلك معظم قبور أهلها ، فان الرجل منهم يموت ولده أو زوجه ، فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هناك ، ويفرش البيت بالحصر والبسط ، ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ، ويصنع للبيت بابا الى ناحية الزقاق ، وشباكا من حديد ، فيدخل منه القراء يقرؤون بالأصوات الحسان . وليس في معمور الأرض أحسن أصواتا بالقرآن من أهل شيراز . ويقوم أهل الدار بالتربة ويفرشونها ، ويوقدون السرج بها ، فكأن الميت لم يبرح . وذكر لي أنهم يطبخون في كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه .

حكاية الفقيه الجواد

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز ، فرأيت بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش ، وفيه مصاحف موضوعة في خرائط حرير موضوعة فوق كرسي . وفي الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتوح الى جهة السوق ، وهنالك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف يقرأ فيه . فسلمت عليه وجلست اليه ، فسألني عن مقدمي فأخبرته ، وسألته عن شأن هذا المسجد ، فأخبرني أنه هو الذي عمره ووقف عليه أوقافا كثيرة للقراء وسواهم ، وأن تلك الزاوية التي جلست اليه فيها هي موضع

قبره ان قضى الله موته بتلك المدينة . ثم رفع بساطا كان تحته ، والقبر مغطى عليه ألواح خشب ، وأراني صندوقا كان بازائه فقال : في هذا الصندوق كفني وحنوطي ، ودراهم كنت أستأجرت بها نفسي في حفر بئر لرجل صالح ، فدفع لي هذه الدارهم ، فتركتها لتكون نفقة مواراتي ، وما فضل منها يتصدق به .

فعجبت من شأنه ، وأردت الانصراف ، فحلف علي وأضافني بذلك الموضع .

ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدي ، وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي ، وربما ألمع في كلامه بالعربي . وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة ، بداخلها بستان مليح . وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن آباد . وقد صنع الشيخ هنالك أحواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب ، فيخرج الناس من المدينة لزيارته ، ويأكلون من سماطه ، ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون . وكذلك فعلت عنده رحمه الله .

وبمقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بها مدرسة وهما مبنيتان على قبر شمس الدين السمناني ، وكان من الأمراء الفقهاء ، ودفن هنالك بوصية منه بذلك .

وبمدينة شيراز من كبار الفقهاء الشريف مجيد الدين ، وأمره في الكرم عجيب ، وربما جاد بكل ما عنده ، وبالثياب التي كانت عليه . ويلبس مرقعة له ، فيدخل عليه كبراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه ، ومرتبه في كل يوم من السلطان خمسون دينارا دراهم .

ثم كان خروجي من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبي اسحاق الكازروني بكازرون ، وهي على مسيرة يومين من شيراز ، فنزلنا أول يوم

بيـلاد الشـول ، وهم طـائفـة من الأعـاجم يسكنـون البريـة ، وفيهم الصالحون .

كرامـة لبعضهـم

كنت يوما ببعض المساجد بشيراز ، وقد قعدت أتلو كتاب الله عز وجل اثر صلاة الظهر ، فخطر بخاطري أنه لو كان لي مصحف كريم لتلوت فيه ، فدخل علي في أثناء ذلك شاب وقال لي بكلام قوي : خذ ! فرفعت رأسي اليه ، فألقى في حجري مصحفا كريما وذهب عني ، فتخمته ذلك اليوم قراءة ، وانتظرته لأرده له فلم يعد إلي ، فسألت عنه فقيل لي ذلك بهلول الشولي ، ولم أره بعد .

ووصلنا في عشى اليوم الثاني الى كازرون ، فقصدنا زاوية الشيخ أبي اسحاق نفع الله به ، وبتنا بها تلك الليلة .

ومن عادتهم أن يطعموا الوارد كائنا من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن ، وتؤكل بالرقاق . ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتى يقيم في الضيافة ثلاثة أيام ، ويعرض على الشيخ الذي بالزاوية حوائجه ، ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية ، وهم يزيدون على مائة ، منهم المتزوجون ومنهم الأعزاب المتجردون ، فيختمون القرآن ويذكرون الذكر ، ويدعون له عند ضريح الشيخ أبي اسحاق ، فتقضى حاجته باذن الله .

وهذا الشيخ أبو اسحاق معظم عند أهل الهند والصين . ومن عادة ركاب بحر الصين أنهم اذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لأبي اسحاق نذورا وكتب كل منهم على نفسه ما نذره ، فاذا وصلوا بر السلامة صعد خدام الزاوية الى المركب وأخذوا الزمام وقبضوا من كل ناذر نذره .

وما من مركب يأتي من الصين أو الهند الا وفيه آلاف من الدنانير، فيأتي الوكلاء من جهة خادم الزاوية فيقبضون ذلك . ومن الفقراء من يأتي طالبا صدقة الشيخ ، فيكتب له أمر بها ، وفيه علامة الشيخ منقوشة في قالب من الفضة ، فيضعون القالب في صبغ أحمر ويلصقونه بالأمر ، فيبقى أثر الطابع فيه ، ويكون مضمنه أن من عنده نذر للشيخ أبي اسحاق فليعط منه فلانا كذا ، فيكون الأمر بالألف والمائة ، وما بين ذلك ودونه ، على قدر الفقير . فاذا وجد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسما في ظهر الأمر بما قبضه .

ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبي اسحاق عشرة آلاف دينار ، فبلغ خبرها فقراء الزاوية فأتى أحدهم الى الهند وقبضها وانصرف بها الى الزاوية .

مدينة الزيدين

ثم سافرنا من كازرون الى مدينة الزيدين . وسميت بذلك لأن فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الأنصاريين ، صاحبي رسول الله ﷺ تسليما ورضي الله عنهما .

وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه ، مليحة الأسواق عجيبة المساجد ، ولأهلها صلاح وأمانة وديانة .

ومن أهلها القاضي نور الدين الزيداني ، وكان ورد على أهل الهند فولى القضاء منها بذيبة المهل ، وهي جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح ، وتزوج بأخت هذا الملك (وسيأتي ذكره وذكر بنته خديجة التي تولت الملك بعده بهذه الجزائر) . وبها توفي القاضي نور الدين المذكور .

ثم سافرنا منها الى الحويزاء ، وهي مدينة صغيرة يسكنها العجم ،

بينها وبين البصرة مسيرة أربع ، وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس .

ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزائي ، شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة .

ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة في برية لا ماء بها الا في موضع واحد يسمى الطرفاوي ، وردناه في اليوم الثالث من سفرنا ، ثم وصلنا بعد اليوم الثاني من ورودنا عليه الى مدينة الكوفة .

مدينة الكوفة

وهي احدى أمهات البلاد العراقية ، المتميزة فيها بفضل المزية ، مثوى الصحابة والتابعين ، ومنزل العلماء والصالحين ، وحضرة علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، الا أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدوان التي امتدت اليها ، وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها ، فانهم يقطعون طريقها .

ولا سور عليها ، وبناؤها بالآجر ، وأسواقها حسان ، وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك .

وجامعها الأعظم جامع كبير شريف ، بلاطاته سبعة قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة ، قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض ، وأفرغت بالرصاص ، وهي مفرطة الطول .

وبهذا المسجد آثار كريمة : فمنها بيت ازاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة ، يقال ان الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع ، وعلى مقربة منه محراب محلق عليه بأعواد الساج مرتفع ، وهو محراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهنالك ضربه الشقي ابن ملجم ، والناس يقصدون الصلاة به .

وفي الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضا بأعواد

الساج ، يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام . وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام . وازاءه بيت يزعمون أنه متعبد ادريس عليه السلام . ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد يقال انه موضع انشاء سفينة نوح عليه السلام . وفي آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والبيت الذي غسل فيه . ويتصل به بيت يقال أيضا أنه بيت نوح عليه السلام . والله أعلم بصحة ذلك كله .

وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد اليه ، فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه . وبمقربة منه خارج المسجد قبرعاتكة وسكينة بنتى الحسين عليه السلام .

وأما قصر الامارة بالكوفة ، الذي بناه سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه ، فلم يبق منه الا أساسه .

والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها ، وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض .

ورأيت بغربي جبانة الكوفة موضعا مسودا شديد السواد في بسيط أبيض ، فأخبرت أنه قبر الشقي ابن ملجم ، وأن أهل الكوفة يأتون في كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام . وعلى قرب منه قبة أخبرت أنها على قبر المختار بن أبي عبيد .

ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحة ، وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل . ونزلت بخارجها وكرهت دخولها ، لأن أهلها روافض .

مدينة الحلة

ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة ، وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ، ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات ،

وهي كثيرة العمارة ، وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجا ، ودورها بين الحدائق ، ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين ، تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة في كلا الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل .

وأهل هذه المدينة كلها امامية اثنا عشرية ، وهم طائفتان : احداهما تعرف بالأكراد ، والأخرى تعرف بأهل الجامعين . والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم أبدا .

وبمقربة من السوق الأعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول . وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان .

ومن عاداتهم أنه يخرج في كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلاح وبأيديهم سيوف مشهورة ، فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر ، فيأخذون منه فرسا مسرجا ملجما أو بغلة كذلك ، ويضربون الطبول والأنقار والبوقات أمام تلك الدابة ، ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ، ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ، ويأتون مشهد صاحب الزمان ، فيقفون بالباب ويقولون : باسم الله يا صاحب الزمان ، باسم الله اخرج ! قد ظهر الفساد وكثر الظلم ، وهذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل .

ولا يزالون كذلك وهم يضربون الأبواق والأطبال والأنقار الى صلاة المغرب .

وهم يقولون : ان محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه ، وانه سيخرج . وهو الامام المنتظر عندهم .

وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الأمير أحمد بن رميثة بن أبي نمي أمير مكة ، وحكمها أعواما ، وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق الى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه

وقتله ، وأخذ الأموال والذخائر التي كانت عنده .

مدينة كربلاء

ثم سافرنا منها الى مدينة كربلاء ، مشهد الحسين بن علي عليهما السلام . وهي مدينة صغيرة تحف بها حدائق النخل ، ويسقيها ماء الفرات .

والروضة المقدسة داخلها ، وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر . وعلى باب الروضة الحجاب والقومة ، لا يدخل أحد الا عن اذنهم ، فيقبل العتبة الشريفة ، وهي من الفضة .

وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب أستار الحرير .

وأهل هذه المدينة طائفتان : أولاد رخيك ، وأولاد فائز ، وبينهما القتال أبدا . وهم جميعا امامية ، يرجعون الى أب واحد . ولأجل فتنتهم تخربتِ هذه المدينة ...

ثم سافرنا منها الى بغداد .

مدينة بغداد

مدينة دار الاسلام ، وحضرة السلام ، ذات القدر الشريف ، والفضل المنيف ، مثوى الخلفاء ، ومقر العلماء .

قال أبو الحسين بن جبير رضي الله عنه : وهذه المدينة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية ، ومثابة الدعوة الامامية القرشية ، فقد ذهب رسمها ، ولم يبق الا اسمها . وهي بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها ، والتفات أعين النوائب اليها ، كالطلل الدارس . أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويستدعى من

المستوفز النظر ، الا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين ، او العقد المنتظم بين لبتين ، فهي تردها ولا تظمأ ، وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ ، والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ ...

قال ابن جزى : وكأن أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل اليه أمرها حين قال فيها :

لقد أقام على بغداد ناعيها فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها ـ والحرب موقدة والنار تطفأ ـ حسنا في نواحيها
ترجى لها عودة في الدهر صالحة فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التي ولت شبيبتها وبان عنها جمال كان يحظيها

وقد نظم الناس في مدحها وذكر محاسنها فأطنبوا ، ووجدوا مكان القول ذا سعة فأطالوا وأطابوا . وفيها قال الامام القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي ، وأنشدنيه والدي رحمه الله مرات :

طيب الهواء ببغداد يشوقني قربا اليها ، وان عاقت مقادير
وكيف أرحل عنها اليوم اذ جمعت طيب الهواءين : ممدود ومقصور

وفيها يقول أيضا ، رحمه الله تعالى ورضي عنه :

سلام على بغداد في كل موطن وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها واني بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي برحبها ولم تكن الأقدار فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه وأخلاقه تنأى به وتخالف

وفيها يقول أيضا مغاضبا لها : وأنشدنيه والدي ، رحمه الله ، غير ما مرة :

بغداد دار لأهل المال واسعة ... وللصعاليك دار الضنك والضيق
ظللت أمشي مضاعا في أزقتها ... كأنني مصحف في بيت زنديق

وفيها يقول القاضي أبو الحسن علي بن النبيه من قصيدة :

آنست بالعراق بدرا منيرا ... فطوت غيبا وخاضت هجيرا
واستطابت ريا نسائم بغدا ... د فكادت لولا البرى أن تطيرا
ذكرت من مسارح الكرخ روضا ... لم يزل ناضرا وماء نميرا
واجتنت من ربا الحول نورا ... واجتلت من مطالع التاج نورا

ولبعض نساء بغداد في ذكرها :

آها على بغدادها وعراقها ... وظبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه ... تبدو أهلتها على أطواقها
متبخرات في النعيم كأنما ... خلق الهوى العذري من أخلاقها
نفسي الفداء لها فأي محاسن ... في الدهر تشرق من سنا اشراقها

ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التي ذكرناها في جسر مدينة الحلة ، والناس يعبرونها ليلا ونهارا رجالا ونساء . فهم في ذلك في نزهة متصلة .

وببغداد من المساجد التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا ، منها بالجانب الغربي ثمانية ، وبالجانب الشرقي ثلاثة . والمساجد سواها كثيرة جدا ، وكذلك المدارس الا أنها خربت .

وحمامات بغداد كثيرة ، وهي من أبدع الحمامات . وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به ، فيخيل لرائيه أنه رخام أسود . وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبدا به ، ويصير في جوانبها كالصلصال فيجرف منها ويجلب الى بغداد .

وفي كل حمام منها خلوات كثيرة ، كل خلوة منها مفروشة بالقار ، مطلى نصف حائطها مما يلي الأرض به ، والنصف الأعلى مطلى بالجص

الأبيض الناصع ، فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما .

وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبان ، أحدهما يجري بالماء الحار والآخر بالماء البارد ، فيدخل الانسان الخلوة منها منفردا لا يشاركه أحد الا اذا أراد ذلك .

وفي زاوية كل خلوة أيضا حوض آخر للاغتسال ، فيه أيضا أنبوبان يجريان بالحار والبارد .

وكل داخل يعطي ثلاثا من الفوط : احداها يتزر بها عند دخوله ، والأخرى يتزر بها عند خروجه ، والأخرى ينشف بها الماء عن جسده .

ولم أر هذا الاتقان كله في مدينة سوى بغداد ، وبعض البلاد تقاربها في ذلك .

ذكر الجانب الغربي من بغداد

والجانب الغربي منها هو الذي عمر أولا ، وهو الآن خراب أكثره . وعلى ذلك فقد بقي منه ثلاث عشرة محلة ، كل محلة كأنها مدينة بها الحامان والثلاثة . وفي ثمان منها المساجد الجامعة .

ومن هذه المحلات محلة باب البصرة ، وبها جامع الخليفة أبي جعفر المنصور رحمه الله .

والمارستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على دجلة ، وهو قصر كبير خرب ، بقيت منه الآثار .

وفي هذه الجانب الغربي من المشاهد قبر معروف الكرخي رضي الله عنه ، وهو في محلة باب البصرة .

وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء في داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب : هذا قبر عون ، من أولاد علي بن أبي طالب ...

وفي هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، والد علي بن

موسى الرضا ، والى جانبه قبر الجواد . والقبران داخل الروضة ، عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة .

ذكر الجانب الشرقي منها

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء ، كل صناعة فيه على حدة .

وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها . وفي آخره المدرسة المستنصرية ، ونسبتها الى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر . وبها المذاهب الأربعة ، لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس ، وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط .

ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار ، لابسا ثياب السواد معتما ، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه ، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة .

وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ، ودار الوضوء .

وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة : أحدها جامع الخليفة ، وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم . وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل .

لقيت بهذا المسجد الشيخ الامام العالم الصالح مسند العراق ، سراج الدين أبا حفص عمر بن علي بن عمر القزويني . وسمعت عليه فيه جميع مسند أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي ، وذلك في شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة . قال : أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة ، بنت الملوك ، فاطمة بنت العدل تاج الدين

أبي الحسن علي بن علي بن أبي البدر ، قالت : أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود ابن بهروز الطبيب المارستاني ، قال : أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن شعيب السنجري الصوفي ، قال : أخبرنا الامام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودي ، قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي ، عن أبي عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي ، عن أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي .

والجامع الثاني جامع السلطان ، وهو خارج البلد ، وتتصل به قصور تنسب للسلطان .

والجامع الثالث جامع الرصافة ، وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل .

ذكر قبور الخلفاء ببغداد
وقبور بعض العلماء و الصالحين بها

وقبور الخلفاء العباسيين ، رضي الله عنهم ، بالرصافة . وعلى كل قبر منها اسم صاحبه ، فمنهم قبر المهدي ، وقبر الهادي ، وقبر الأمين ، وقبر المعتصم ، وقبر الواثق ، وقبر المتوكل ، وقبر المنتصر ، وقبر المستعين ، وقبر المعتز ، وقبر المهتدي ، وقبر المعتمد ، وقبرالمعتضد ، وقبر المكتفي ، وقبرالمقتدر ، وقبر القاهر ، وقبر الراضي ، وقبر المتقي ، وقبر المستكفي ، وقبر المطيع لله ، وقبر الطائع ، وقبر القائم ، وقبر القادر ، وقبر المستظهر ، وقبر المسترشد ، وقبر الراشد ، وقبر المقتفي ، وقبر المستنجد ، وقبر المستضيء ، وقبر الناصر ، وقبر الظاهر ، وقبر المستنصر ، وقبر المستعصم . وهو آخرهم ، وعليه دخل التتر بغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم ، وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية ، وذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة .

ويقرب الرصافة قبرالامام أبي حنيفة رضي اللهعنه ، وعليه قبة عظيمة ، وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ما عدا هذه الزاوية ، فسبحان مبيد الأشياء ومغيرها .

وبالقرب منها قبر الامام أبي عبد الله أحمد ابن حنبل رضي الله عنه ، ولا قبة عليه . ويذكر أنها بنيت على قبره مرارا فتهدمت بقدرة الله تعالى . وقبره عند أهل بغداد معظم ، وأكثرهم على مذهبه .

وبالقرب منه قبر أبي بكر الشبلي ، من أئمة المتصوفة رحمه الله ، وقبر سري السقطي ، وقبر بشر الحافي ، وقبر داود الطائي ، وقبر أبي القاسم الجنيد ، رضي الله عنهم أجمعين .

وأهل بغداد لهم يوم في كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ، ويوم آخر يليه ، هكذا الى آخر الأسبوع .

وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء ، رضي الله تعالى عنهم .

وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه ، وانما تجلب اليها من الجهة الغربية ، لأن فيها البساتين والحدائق .

ووافق وصولي الى بغداد كون ملك العراق بها ، فلنذكره ها هنا .

ذكر سلطان العراقين وخراسان

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بهادر خان (وخان عندهم الملك) ، ابن السلطان الجليل محمد خدا بنده ، وهو الذي أسلم من ملوك التتر . وضبط اسمه مختلف فيه ، فمنهم من قال أن اسمه خذا بنده (بخاء معجمة مضمومة وذال معجم مفتوح) ،وبنده لم يختلف فيه ، (وهو بباء موحدة مفتوحة ونون مسكنة ودال مهمل مفتوح وهاء استراحة) . وتفسيره على هذا القول عبد الله ، لأن «خذا» بالفارسية اسم الله عز وجل ، و«بنده» غلام

أو عبد أو ما في معناها . وقيل انما هو خربنده (بفتح الخاء المعجم وضم الراء المهمل) . وتفسير «خر» بالفارسية الحمار . فمعناه على هذا غلام الحمار ... فشذ ما بين القولين من الخلاف ، على أن هذا الأخير هو المشهور ، وكان الأول غيره اليه من تعصب . وقيل ان سبب تسميته بهذا الأخير هو أن التتر يسمون المولود باسم أول داخل على بيت عند ولادته ، فلما ولد هذا السلطان وكان أول داخل الزمال ، وهم يسمونه خربنده ، فسمي به .

وأخو خربنده هو قازغان ، الذي يقول فيه الناس قازان .

وقازغان هو القدر ، وقيل سمي بذلك لأنه لما ولد دخلت الجارية ومعها القدر .

وخذا بنده هو الذي أسلم وقدمنا قصته ، وكيف أراد أن يحمل الناس لما أسلم على الرفض ، وقصة القاضي مجد الدين معه .

ولما مات ولي الملك ولده أبو سعيد بهادر خان ، وكان ملكا فاضلا كريما ، ملك وهو صغير السن ، ورأيته ببغداد وهو شاب أجمل خلق الله صورة ، لا نبات بعارضيه ، ووزيره اذ ذاك الأمير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد . وكان أبوه من مهاجرة اليهود واستوزره السلطان محمد خذا بنده والد أبي سعيد .

رأيتهما يوما بحراقة في الدجلة (وتسمى عندهم الشبارة ، وهي شبه سلورة) ، وبين يديه دمشق خواجه ابن الأمير جوبان المتغلب على أبي سعيد ، وعن يمينه وشماله شبارتان فيهما أهل الطرب والغناء ، ورأيت من مكارمه في ذلك اليوم أنه تعرض له جماعة من العميان ، فشكوا ضعف حالهم ، فأمر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده ونفقة تجرى عليه .

ولما ولي السلطان أبو سعيد وهو صغير كما ذكرناه ، استولى على أمره

أمير الأمراء الجوبان ، وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك الا الاسم . ويذكر أنه احتاج في بعض الأعياد الى نفقة ينفقها ، فلم يكن له سبيل اليها ، فبعث الى أحد التجار فأعطاه من المال ما أحب .

ولم يزل كذلك الى أن دخلت عليه يوما زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له : لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه .

فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام ، فقالت له : لقد انتهى أمر دمشق خواجه بن الجوبان أن يفتك بحريم أبيك ، وأنه بات البارحة عند طغى خاتون ، وقد بعث الي وقال لي : الليلة أبيت عندك ...

وما الرأي الا أن تجمع الأمراء والعساكر ، فاذا صعد الى القلعة مختفيا برسم المبيت أمكنك القبض عليه ... وأبوه يكفي الله أمره .

وكان الجوبان اذ ذلك غائبا بخراسان ، فغلبته الغيرة وبات يدبر أمره . فلما علم أن دمشق خواجه بالقلعة أمر الأمراء والعساكر أن يطيفوا بها من كل ناحية . فلما كان بالغد وخرج دمشق ومعه جندي يعرف بالحاج المصري ، فوجد سلسلة معرضة على باب القلعة وعليها قفل فلم يمكنه الخروج راكبا ، فضرب الحاج المصري السلسة بسيفه فقطعها وخرجا معا ، فأحاطت بهما العساكر . ولحق أمير من الأمراء الخاصكية يعرف بمصر خواجه ، وفتى يعرف بلؤلؤ ، دمشق خواجه فقتلاه وأتيا الملك أبا سعيد برأسه ، فرموا به بين يدي فرسه ... وتلك عادتهم أن يفعلوا برأس كبار أعدائهم .

وأمر السلطان بنهب داره ، وقتل من قاتل من خدامه ومماليكه .

واتصل الخبر بأبيه الجوبان ، وهو بخراسان ومعه أولاده : أمير حسن وهو الأكبر ، وطالش ، وجلوخان وهو أصغرهم ، وهو ابن أخت السلطان أبي سعيد ، أمه سباطى بك بنت السلطان خدا بنده ، ومعه عساكر التتر

وحاميتها ، فاتفقوا على قتال السلطان أبي سعيد وزحفوا اليه .

فلما التقى الجمعان هرب التتر الى سلطانهم وأفردوا الجوبان ، فلما رأى ذلك نكص على عقبيه ، وفر الى صحراء سجستان وأوغل فيها وأجمع على اللحاق بملك هراة غياث الدين مستجيرا ومتحصنا بمدينته ، وكانت له عليه أياد سابقة ، فلم يوافقه ولداه حسن وطالش على ذلك ، وقالا له انه لا يفي بالعهد ، وقد غدر فيروز شاه بعد أن لجأ اليه وقتله .

فأبى الجوبان الا أن يلحق به ، ففارقه ولداه وتوجه ومعه ابنه الأصغر جلوخان ، فخرج غياث الدين لاستقباله ، وترجل له وأدخله المدينة على الأمان ، ثم غدره بعد أيام وقتله وقتل ولده وبعث برأسيهما الى السلطان أبي سعيد .

وأما حسن وطالش فانهما قصدا خوارزم وتوجها الى السلطان محمد أوزبك ، فأكرم مثواهما وأنزلهما الى أن صدر منهما ما أوجب قتلهما فقتلهما .

وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدمرطاش ، فهرب الى ديار مصر فأكرمه الملك الناصر وأعطاه الاسكندرية ، فأبى من قبلوها وقال : انما أريد العساكر لأقاتل أبا سعيد .

وكان متى بعث اليه الملك الناصر بكسوة أعطى هو للذي يوصلها اليه أحسن منها ازراء على الملك الناصر . وأظهر أمورا أوجبت قتله فقتله ، وبعث برأسه الى أبي سعيد ، وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقور فيما قدم .

ولما قتل الجوبان جيء به وبولده ميتين ، فوقف بهما على عرفات ، وحملا الى المدينة ليدفنا في التربة التي اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله ﷺ ، فمنع من ذلك ودفن بالبقيع .

والجوبان هو الذي جلب الماء الى مكة شرفها الله تعالى .

ولما استقل السلطان أبو سعيد بالملك أراد أن يتزوج بنت الجوبان ، وكانت تسمى بغداد خاتون ، وهي من أجمل النساء ، وكانت تحت الشيخ حسن الذي تغلب بعد موت أبي سعيد على الملك ، وهو ابن عمته ، فأمره فنزل عنها وتزوجها أبو سعيد ، وكانت أحظى النساء لديه .

والنساء لدى الأتراك والتتر لهن حظ عظيم ، وهم اذا كتبوا أمرا يقولون فيه : عن أمر السلطان والخواتين . ولكل خاتون من البلاد والولايات والجابي العظيمة ، واذا سافرت مع السلطان تكون في محلة على حدة . وغلبت هذه الخاتون على أبي سعيد ، وفضلها على سواها ، وأقامت على ذلك مدة أيام .

ثم أنه تزوج امرأة تسمى بدلشاد ، فأحبها حبا شديدا وهجر بغداد خاتون ، فغارت لذلك وسمته في منديل مسحته به بعد الجماع ، فمات وانقرض عقبه ، وغلبت أمراؤه على الجهات كما سنذكره .

ولما عرف الأمراء أن بغداد خاتون هي التي سمته أجمعوا على قتلها ، وبدر لذلك الفتى الرومي خواجه لؤلؤ - وهو من كبار الأمراء وقدمائهم - فأتاها وهي في الحمام فضربها بدبوسه وقتلها ، وطرحت هنالك أياما مستورة العورة بقطعة تليس . واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب ، وتزوج دلشاد امرأة السلطان أبي سعيد ، كمثل ما كان أبو سعيد فعله من تزوج امرأته .

ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان أبي سعيد

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذي ذكرناه آنفا ، تغلب على عراق العرب جميعا .

ومنهم ابراهيم شاه ابن الأمير سنيته ، تغلب على الموصل وديار بكر .

ومنهم الأمير أرتنا ، تغلب على بلاد التركان المعروفة أيضا ببلاد الروم .

ومنهم حسن خواجه بن الدمرطاش بن الجوبان ، تغلب على تبريز والسلطانية وهمدان ، وقم وقاشان والرى ورامين وفرغان والكرج .

ومنهم الأمير طغيتمور ، تغلب على بعض بلاد خراسان .

ومنهم الأمير حسن ابن الأمير غياث الدين ، تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان .

ومنهم ملك دينار ، تغلب على بلاد مكران وبلاد كيج .

ومنهم محمد شاه بن مظفر ، تغلب على يزد وكرمان وورقو .

ومنهم الملك قطب الدين تمهتن ، تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلهات .

ومنهم السلطان أبو اسحاق الذي تقدم ذكره ، تغلب على شيراز وأصفهان وملك فارس ، وذلك مسيرة خمس وأربعين .

ومنهم السلطان افراسياب أتابك ، تغلب على ايذج وغيرها من البلاد ، وقد تقدم ذكره .

ترتيب ملك العراق في رحيله

ولنعد الى ما كنا بسبيله ... ثم خرجت من بغداد في محلة السلطان أبي سعيد ، وغرضي أن أشاهد ترتيب ملك العراق في رحيله ونزوله ، وكيفية تنقله وسفره .

وعادتهم أنهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى . وترتيبهم أنه يأتي كل أمير من الأمراء بعسكره وطبوله وأعلامه ، فيقف في موضع لا يتعداه ، قد عين له اما في الميمنة أو الميسرة . فاذا توافوا جميعا وتكاملت صفوفهم ، ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته

وأنقاره ، وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد الى موقفه .

ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ، ثم يليهم أهل الطرب ، وهم نحو مائة رجل ، عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان .

وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول ، وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات ، وهي تسمى عندنا بالغيطات ، فيضربون تلك الأطبال والصرنايات ،ثم يمسكون .

ويغني عشرة من أهل الطرب نوبتهم . فاذا قضوها ضربت تلك الأطبال والصرنايات ، ثم أمسكوا ، وغنى عشرة آخرون نوبتهم ... هكذا الى أن تتم عشر نوبات ، فعند ذلك يكون النزول .

ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الأمراء وهم نحو خمسين ، ومن ورائه أصحاب الأعلام والأطبال والأنقار والبوقات ، ثم مماليك السلطان ، ثم الأمراء على مراتبهم .

وكل أمير له أعلام وطبول وبوقات ، ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جندر وله جماعة كبيرة .

وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته أن يؤخذ تماقه فيملأ رملا ويعلق في عنقه ، ويمشي على قدميه حتى يبلغ المنزل ، فيؤتى به الى الأمير ، فيبطح على الأرض ويضرب خمسا وعشرين مقرعة على ظهره ، سواء كان رفيعا أو وضيعا ، لا يحاشون من ذلك أحدا .

واذا نزلوا ينزل السلطان ومماليكه في محلة على حدة ، وتنزل كل خاتون من خواتينه في محلة على حدة ، ولكل واحدة منهن الامام والمؤذنون والقراء والسوق . وينزل الوزراء والكتاب وأهل الأشغال على حدة ، وينزل كل أمير على حدة ، ويأتون جميعا الى الخدمة بعد العصر ، ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة . والمشاعل بين أيديهم .

فاذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير ، ثم يضرب طبل الخاتون

الكبرى التي هي الملكة ، ثم أطبال سائر الخواتين ، ثم طبل الوزير ، ثم أطبال الوزراء دفعة واحدة ، ثم يركب أمير المقدمة في عسكره ، ثم يتبعه الخواتين ، ثم أثقال السلطان وزاملته وأثقال الخواتين ، ثم أمير ثان في عسكر له يمنع الناس من الدخول فيا بين الأثقال والخواتين ، ثم سائر الناس .

مدينة تبريز

وسافرت في هذه المحلة عشرة أيام ، ثم صحبت الأمير علاء الدين محمدا الى بلدة تبريز . وكان من الأمراء الكبار الفضلاء ، فوصلنا بعد عشرة أيام الى مدينة تبريز ، ونزلنا بخارجها في موضع يعرف بالشام ، وهنالك قبر قازان ملك العراق ، وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، من الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء . وأنزلني الأمير بتلك الزاوية ، وهي ما بين أنهار متدفقة وأشجار مورقة .

وفي غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ، ووصلنا الى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان ، أحسن سوق رأيتها في بلاد الدنيا ، كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى .

واجتزت بسوق الجوهريين ، فحار بصري مما رأيته من أنواع الجواهر ، وهي بأيدي مماليك حسان الصور ، عليهم الثياب الفاخرة ، وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير ، وهم بين أيدي التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك ، وهن يشترينه كثيرا ويتنافسن فيه ، فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها .

ودخلنا سوق العنبر والمسك ، فرأينا مثل ذلك أو أعظم .

ثم وصلنا الى المسجد الجامع الذي عمره الوزير علي شاه المعروف

بجيلان ، وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة ، وعن يساره زاوية ، وصحنه مفروش بالمرمر ، وحيطانه بالقاشاني ، وهو شبه الزليج ويشقه نهر ماء ، وبه أنواع الأشجار ودوالي العنب وشجر ياسمين .

ومن عادتهم أنهم يقرؤون به كل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة النبأ بعد صلاة العصر في صحن المسجد ، ويجتمع لذلك أهل المدينة .

وبتنا ليلة بتبريز . ثم وصل بالغد أمر السلطان أبي سعيد الى الأمير علاء الدين بأن يصل اليه ، فعدت معه .

ولم ألق بتبريز أحدا من العلماء .

ثم سافرنا الى أن وصلنا محلة السلطان ، فأعلمه الأمير المذكور بمكاني ، وأدخلني عليه فسألني عن بلادي وكساني وأركبني . وأعلمه الأمير أني أريد السفر الى الحجاز الشريف ، فأمر لي بالزاد والركوب في السبيل مع المحمل ، وكتب لي بذلك الى أمير بغداد خواجه معروف .

العودة الى بغداد

وعدت الى مدينة بغداد ، واستوفيت ما أمر لي به السلطان ، وكان قد بقي لأوان سفر الركب أزيد من شهرين ، فظهر لي أن أسافر الى الموصل وديار بكر ، لأشاهد تلك البلاد وأعود الى بغداد في حين سفر الركب ، فأتوجه الى الحجاز الشريف .

فخرجت من بغداد الى منزل على نهر دجيل ، وهو يتفرع عن دجلة فيسقي قرى كثيرة .

ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة ، مخصبة فسيحة .

ثم رحلنا فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق ، وهو مبني على دجلة . وفي العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة «سر من رأى» ، وتسمى أيضا «سامرا» . ويقال لها «سام راه» ،

ومعناه بالفارسية : طريق سام . و«راه» هو الطريق . وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها الا القليل ، وهي معتدلة الهواء رائقة الحسن على بلائها ودروس معالمها . وفيها أيضا مشهد صاحب الزمان كما بالحلة .

مدينة تكريت

ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا مدينة تكريت ، وهي مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الأسواق كثيرة المساجد ، وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق . ودجلة في الجهة الشمالية منها ، ولها قلعة حصينة على شط دجلة ، والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها .

ثم رحلنا منها مرحلتين ، ووصلنا الى قرية تعرف بالعقر على شط دجلة ، وبأعلاها ربوة كان بها حصن ، وبأسفلها الخان المعروف بخان الحديد ، له أبراج وبناؤه حافل، والقرى والعمارة متصلة من هنالك الى الموصل .

ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالقيارة ، بمقربة من دجلة . وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ، ويصنع له أحواض ويجتمع فيها ، فتراه شبه الصلصال على وجه الأرض حالك اللون صقيلا رطبا . وله رائحة طيبة . وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق ، فتقذفه الى جوانبها فيصير أيضا قارا . وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة ، فاذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار ، فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ، ثم يقطعونه قطعا وينقلونه .

وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو .

ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما الى الموصل .

مدينة الموصل

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب ، وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن ، شهيرة الامتناع ، عليها سور محكم البناء مشيد البروج ، وتتصل بها دور السلطان ، وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى أسفله .

وعلى البلد سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة ، وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجدراه ، وقد تمكن فتحها فيه لسعته . ولم أر في أسوار البلاد مثله الا السور الذي على مدينة دهلى حضرة ملك الهند .

وللموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق ، وبه مسجد جامع على شط دجلة ، تدور به شبابيك حديد ، وتتصل به مصاطب تشرف على دجلة ، في النهاية من الحسن والاتقان ، وأمامه مارستان .

وبداخل المدينة جامعان ، أحدهما قديم ، والآخر حديث . وفي صحن الحديث منهما قبة في داخلها خصة رخام مثمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة وانزعاج ، فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن .

و«قيسارية» الموصل مليحة لها أبواب حديد ، ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء .

وبهذه المدينة مشهد جرجس النبي عليه السلام ، وعليه مسجد ، والقبر في زاوية منه عن يمين الداخل اليه . وهو فيما بين الجامع الجديد وباب الجسر ، وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده ، والحمد لله تعالى .

وهنالك تل يونس عليه السلام ، وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة

اليه ، يقال انه أمر قومه بالتطهر فيها ، ثم صعدوا التل ودعا ودعوا ، فكشف الله عنهم العذاب .

وبقربة منه قرية كبيرة بقرب منها خراب ، يقال انه موضع المدينة المعروف بنينوى مدينة يونس عليه السلام ، وأثر السور المحيط بها ظاهر ، ومواضع الأبواب التي به متبينة .

وفي التل بناء عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات ، يضم الجميع باب واحد . وفي وسط الرباط بيت عليه ستر حرير ، وله باب مرصع ، يقال أنه الموضع الذي به موقف يونس عليه السلام . ومحراب المسجد الذي بهذا الرباط يقال أنه كان بيت متعبده عليه السلام . وأهل الموصل يخرجون في كل ليلة جمعة الى هذا الرباط يتعبدون فيه .

وأهل الموصل لهم مكارم أخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه . وكان أميرها حين قدومي عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين علي بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر . وهو من الكرماء الفضلاء ، أنزلني بداره وأجرى علي الإنفاق مدة مقامي عنده . وله الصدقات والايثار المعروف . وكان السلطان أبو سعيد يعظمه ، وفوض اليه أمر هذه المدينة وما يليها .

ويركب في موكب عظيم من مماليكه وأجناده . ووجوه أهل المدينة وكبراؤها يأتون للسلام عليه غدوا وعشيا ، وله شجاعة ومهابة .

وولده ـ في حين كتب هذا ـ في حضرة فاس ، مستقر الغرباء ، ومأوى الفرق ومحط رجال الوفود ، زادها الله ـ بسعادة مولانا أمير المؤمنين ـ بهجة واشراقا ، وحرس أرجاءها ونواحيها .

ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد ، وهي على نهر عليه جسر مبني ، وبها خان كبير .

ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحة .

ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر ، وهي مدينة كبيرة حسنة ، محيط بها الوادي ، ولذلك سميت جزيرة . وأكثرها خراب ، ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبني بالحجارة ، محكم العمل ، وسورها مبني بالحجارة أيضا ، وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء . ويوم نزولنا بها رأينا جبل الجودى ، المذكور في كتاب الله عز وجل ، الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، وهو جبل عال مستطيل .

مدينة نصيبين

ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين ، وهي مدينة عتيقة متوسطة ، قد خرب أكثرها ، وهي في بسيط أفيح فسيح ، فيه المياه الجارية ، والبساتين الملتفة ، والأشجار المنتظمة ، والفواكه الكثيرة ، وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في الطيب . ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار ، منبعه من عيون في جبل قريب منها ، وينقسم انقساما فيتخلل بساتينها ، ويدخل منه نهر الى المدينة فيجري في شوارعها ودورها ،ويخترق صحن مسجدها الأعظم ، وينصب في صهريجين ، أحدهما في وسط الصحن ، والآخر عند الباب الشرقي . وبهذه المدينة مارستان ، ومدرستان ، وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة . ولقد صدق أبو نواس في قوله :

طابت نصيبين لي يوما وطبت لها
يا ليت حظي من الدنيا نصيبين

قال ابن جزى : والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة .

وفيها يقول بعض الشعراء :

لنصيبين قد عجبت وما في دارها لي داع الى العلات
يعدم الورد أحمرا في ذراها لسقام حتى من الوجنات

مدينة سنجار

ثم رحلنا الى مدينة سنجار ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار والعيون المطردة والأنهار ، مبنية في سفح جبل ، تشبه بدمشق في كثرة أنهارها وبساتينها . ومسجدها الجامع مشهور البركة ، يذكر أن الدعاء به مستجاب ، ويدور به نهر ماء ويشقه . وأهل سنجار أكراد ولهم شجاعة وكرم .

وممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكردي ، أحد المشايخ الكبار ، صاحب كرامات ، يذكر عنه أنه لا يفطر الا بعد أربعين يوما ، ويكون افطاره على نصف قرص من الشعير . لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ، ودعا لي وزودني بدراهم لم تزل عندي الى أن سلبني كفار الهنود اياها .

مدينتا دارا وماردين

ثم سافرنا الى مدينة دارا ، وهي عتيقة كبيرة ، بيضاء المنظر ، لها قلعة مشرفة . وهي الآن خراب لا عمارة بها . وفي خارجها قرية معمورة بها كان نزولنا .

ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة ماردين ، وهي عظيمة في سطح جبل ، من أحسن مدن الاسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقا . وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز ، ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع في قمة جبلها .

قال ابن جزى : قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء ، واياها عني شاعر

العراق صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلي بقوله في سمطه :

فدع ربوع الحلة الفيحاء وأزور بالعيس عن الزوراء
ولا تقف بالموصل الحدباء ان شهاب القلعة الشهباء
محرق شيطان صروف الدهر

وقلعة حلب تسمى الشهباء أيضا . وهذه المسمطة بديعة ، مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين ، وكان كريما شهير الصيت ، ولى الملك بها نحو خمسين سنة ، وأدرك أيام قازان ملك التتر ، وصاهر السلطان خذابنده بابنته دنيا خاتون .

ذكر سلطان ماردين في عهد دخولي اليها

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذي ذكرناه آنفا ، ورث الملك عن أبيه ، وله المكارم الشهيرة ، وليس بأرض العراق والشام ومصر أكرم منه . يقصده الشعراء والفقهاء فيجزل لهم العطايا جريا على سنن أبيه .

قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي المروى الكفيف مادحا فأعطاه عشرين ألف درهم . وله الصدقات والمدارس والزوايا لاطعام الطعام .

وله وزير كبير القدر ، وهو الامام العالم وحيد الدهر ، وفريد العصر ، جمال الدين السنجاري ، قرأ بمدينة تبريز وأدرك العلماء الكبار .

وقاضي قضاته الامام الكامل برهان الدين الموصلي . وهو ينتسب الى الشيخ الولي فتح الموصلي ، وهذا القاضي من أهل الدين والورع والفضل ، يلبس الخشن من ثياب الصوف الذي لا تبلغ قيمته عشرة دراهم ، ويعتم بنحو ذلك . وكثيرا ما يجلس للأحكام بصحن مسجد خارج المدرسة ، كان يتعبد فيه ، فاذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضي وأعوانه .

حكايـة

ذكر لي أن امرأة أتت هذا القاضي وهو خـارج من المسجـد ، ولم تكن تعرفه ، فقالت له : يا شيخ ، أين يجلس القاضي ؟

فقال لها : وما تريدين منه ؟

فقالت لـه : ان زوجي ضربني ، ولـه زوجـة ثـانيـة ، وهو لا يعـدل بيننا في القسم . وقد دعوته الى القاضي فأبى ، وأنـا فقيرة ليس عنـدي مـا أعطيه لرجال القاضي حتى يحضروه بمجلسه .

فقال لها : وأين منزل زوجك ؟

فقالت : بقرية الملاحين خارج المدينة .

فقال لها : أنا أذهب معك اليه .

فقالت : والله ما عندي شيء أعطيك اياه .

فقال لها : وأنا لا آخذ منك شيئا .

ثم قـال لهـا : اذهبي الى القريـة وانتظريني خـارجهـا ، فـاني على أثرك .

فذهبت كما أمرها وانتظرتـه ، فوصل اليهـا وليس معـه أحـد ، وكانت عادته ألا يدع أحدا يتبعه ، فجاءت به الى منزل زوجهـا ، فلمـا رآه قـال لها : ما هذا الشيخ النحس الذي معك ؟

فقال له : نعم والله ، أنا كذلك . ولكن أرض زوجتك .

فلما طـال الكلام جـاء النـاس فعرفوا القـاضي وسلموا عليـه ، وخـاف ذلك الرجل وخجل ، فقال لـه القـاضي : لا عليـك ... أصلح مـا بينـك وبين زوجتك .

فـأرضـاهـا الرجل من نفسـه ، وأعطـاهـا القـاضي نفقـة ذلـك اليـوم وانصرف .

لقيت هذا القاضي وأضافني بداره .

الرجوع الى بغداد

ثم رحلت عائدا الى بغداد ، فوصلت الى مدينة الموصل التي ذكرناها ، فوجدت ركبها بخارجها متوجهين الى بغداد ، وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة ، وهي من ذرية الخلفاء ، حجت مرارا وهي ملازمة الصوم . سلمت عليها وكنت في جوارها ، ومعها جملة من الفقراء يخدمونها . وفي هذه الوجهة توفيت ، رحمة الله عليها . وكانت وفاتها بزرود ، ودفنت هنالك .

ثم وصلنا الى مدينة بغداد فوجدت الحاج في أهبة الرحيل ، فقصدت أميرها معروف خواجه ، فطلبت منه ما أمر لي به السلطان ، فعين لي شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم ، وكتب لي بذلك ، ووجهه الى أمير الركب ، وهو البهلوان محمد الحويج فأوصاه بي . وكانت المعرفة بيني وبينه متقدمة فزادها تأكيدا . ولم أزل في جواره وهو يحسن الي ويزيدني على ما أمر لي به .

وأصابني عند خروجنا من الكوفة اسهال ، فكانوا ينزلونني من أعلى المحمل مرات كثيرة في اليوم ، والأمير يتفقد حالي ويوصي بي ، ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى ، زادها الله شرفا وتعظيما .

وطفت بالبيت الحرام ، كرمه الله تعالى ، طواف القدوم ، وكنت ضعيفا بحيث أؤدي المكتوبة قاعدا ، فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكبا على فرس الأمير الحويج .

ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين ، فلما نزلنا منى أخذت في الراحة والابلال من مرضي .

ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة تلك السنة . وكان بها الأمير علاء الدين بن هلال ، مشيد الدواوين ، مقيما لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب شيبة .

وجاور في تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم ، منهم : تاج الدين بن الكويك ، ونور الدين القاضي ، وزين الدين بن الأصيل ، وابن الخليلي ، وناصر الدين الأسيوطي :

وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية ، وعافاني الله من مرضي فكنت في أنعم عيش ، وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار .

وأتى في أثناء تلك السنة حجاج الصعيد ، وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الأصفوني (وهي أول حجة حجها) ، والأخوان علاء الدين علي وسراج الدين عمر ، ابنا القاضي الصالح نجم الدين البالسي قاضي مصر ، وجماعة غيرهم .

وفي منتصف ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين يلملك ، وهو من الفضلاء ، ووصل في صحبته جماعة من أهل طنجة ، بلدي حرسها الله ، منهم : الفقيه أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي العباس ابن القاضي الخطيب أبي القاسم الجراوي ، والفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله ، والفقيه أبو محمد عبد الله الحضري ، والفقيه أبو عبد الله المرسى ، وأبو العباس بن الفقيه أبي علي البلنسي ، وأبو محمد بن القابلة ، وأبو الحسن البياري ، وأبو العباس ابن نافوت ، وأبو الصبر أيوب الفخار ، وأحمد بن حكامة .

ومن أهل قصر المجاز ، الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن القاضي أبي العباس بن خلوف .

ومن أهل القصر الكبير : الفقيه أبو محمد ابن مسلم ، وأبو اسحاق ابراهيم بن يحي وولده .

ووصل في تلك السنة الأمير سيف الدين تقز دمور من الخاصكية ، والأمير موسى بن قرمان ، والقاضي فخر الدين ناظر الجيش كاتب المماليك ، والتاج أبو اسحاق ، والست حدق مربية الملك الناصر ... وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف، وأكثرهم صدقة القاضي فخر الدين.

وكانت وقفتنا في تلك السنة في يوم الجمعة من عام ثمانية وعشرين .

ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة ، حرسها الله ، سنة تسع وعشرين .

وفي هذه السنة وصل أحمد ابن الأمير رميثة ومبارك ابن الأمير عطيفة ، من العراق ، في صحبة الأمير محمد الحويج والشيخ زاده الحرباوي والشيخ دانيال . وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق . وفي تلك السنة ذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ، ودعوا له بأعلى قبة زمزم ، وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين . ولم يوافق الأمير عطيفة على ذلك ، وبعث شقيقه منصورا ليعلم الملك الناصر بذلك ، فأمر رميثة برده ، فرد ، فبعثه ثانية على طريق جدة حتى أعلم الملك الناصر بذلك .

ووقفنا تلك السنة - وهي سنة تسعة وعشرين - يوم الثلاثاء .

ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة حرسها الله سنة ثلاثين .

وفي موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين آيدمور أمير جندار الناصري . وسبب ذلك أن تجارا من أهل اليمن سرقوا ، فتشكوا الى آيدمور بذلك ، فقال آيدمور لمبارك ابن الأمير عطيفة : ايت بهؤلاء السراق .

فقال : لا أعرفهم ، فكيف نأتي بهم ؟ وبعد ، فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم عليهم لك . ان سرق لأهل مصر والشام شيء فاطلبني به .

فشتمه آيدمور ، وقال له : يا قواد ، تقول لي هكذا ؟

وضربه على صدره ، فسقط ووقعت عمامته عن رأسه ، وغضب له عبيده . وركب آيدمور يريد عسكره ، فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده .

ووقعت الفتنة بالحرم ، وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر ،

ورمى الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل أنها كانت تحرض أهل مكة على القتال . وركب من بالركب من الأتراك وأميرهم «خاص ترك» ، فخرج اليهم القاضي والأئمة والمجاورون ، وفوق رؤوسهم المصاحف ، وحاولوا الصلح ، ودخل الحجاج مكة فأخذوا ما لهم بها وانصرفوا الى مصر .

وبلغ الخبر الملك الناصر فشق عليه ، وبعث العساكر الى مكة ، ففر الأمير عطيفة وابنه مبارك ، وخرج أخوه رميثة وأولاده الى وادي نخلة . فلما وصل العسكر الى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان ولولده فأمنوا . وأتى رميثة وكفنه في يده الى الأمير فخلع عليه ، وسلمت اليه مكة ، وعاد العسكر الى مصر . وكان الملك الناصر ، رحمه الله ، حليما فاضلا .

فخرجت في تلك الأيام من مكة شرفها الله تعالى قاصدا بلاد اليمن ، فوصلت الى حدة ، وهي نصف الطريق ما بين مكة وجدة .

ثم وصلت الى جدة ، وهي بلدة قديمة على ساحل البحر ، يقال أنها من عمارة الفرس ، وبخارجها مصانع قديمة ، وبها جباب للماء منقورة في الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض ، تفوت الأحصاء كثرة . وكانت هذه السنة قليلة المطر ، وكان الماء يجلب الى جدة على مسيرة يوم ، وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت .

حكاية الاعمى والخاتم

ومن غريب ما اتفق لي بجدة أنه وقف على بابي سائل أعمى يطلب الماء ، يقوده غلام ، فسلم علي وسماني باسمي وأخذ بيدي ، ولم أكن عرفته قط ولا عرفني ، فعجبت من شأنه . ثم أمسك أصبعي بيده وقال : أين الفتخة ؟ (وهي الخاتم) وكنت حين خروجي من مكة قد لقيني بعض الفقراء وسألني ، ولم يكن عندي في ذلك الحين شيء ، فدفعت له خاتمي .

فلما سألني عنه هذا الأعمى ، قلت له : أعطيته فقيرا .

فقال ارجع في طلبه ، فان فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الأسرار .

فطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك كله ، والله أعلم بحاله .

وبجدة جامع يعرف بجامع الأبنوس ، معروف بالبركة يستجاب فيه الدعاء .

وكان الأمير بها أبا يعقوب بن عبد الرزاق ، وقاضيها وخطيبها الفقيه عبد الله من أهل مكة ، شافعي المذهب . واذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة ، أتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها ، فان كملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة ، وان لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهرا أربعا . ولا يعتبر من ليس من أهلها ، وان كانوا عددا كثيرا .

ثم ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة ، وكان لرشيد الدين الألفي اليمني الحبشي الأصل ، وركب الشريف منصور بن أبي نمى في جلبة أخرى ، ورغب مني أن أكون معه ، فلم أفعل ، لكونه كان معه في جلبته الجمال ، فخفت من ذلك ، ولم أكن ركبت البحر قبلها . وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم في «الجلب» وهم متأهبون للسفر .

حكاية الدراهم المخبوءة بالعديلة

ولما ركبنا البحر أمر الشريف منصور أحد غلمانه أن يأتيه «بعديلة» دقيق (وهي نصف حمل) ، و«بطة» سمن ، يأخذهما من «جلب» أهل اليمن ، فأخذهما وأتى بها اليه ، فأتاني التجار باكين ، وذكروا لي أن في جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة ، ورغبوا مني أن أكلمه في ردها وأن يأخذ سواها . فأتيته وكلمته في ذلك وقلت له : أن للتجار في جوف هذه «العديلة» شيئا .

فقال : ان كان سكرا فلا أرده اليهم ، وان كان سوى ذلك فهو لهم . ففتحوها فوجدوا الدراهم فردها عليهم ، وقال لي : لو كان عجلان ما ردها .

وعجلان هو ابن أخيه رميثة ، وكان قد دخل في تلك الأيام دار تاجر من أهل دمشق كان قاصدا لليمن ، فذهب بمعظم ما كان فيها . وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد ، وقد صلح حاله وأظهر العدل والفضل .

ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين ، وتغيرت الريح بعد ذلك ، وصدتنا عن السبيل التي قصدناها ، ودخلت أمواج البحر معنا في المركب واشتد الميد بالناس . ولم نزل في أهوال حتى خرجنا في مرسى يعرف برأس دوائر ، فيما بين عيذاب وسواكن ، فنزلنا به ، ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد ، وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء ، فشربنا منه وطبخنا . ورأيت بذلك المرسى عجبا : وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر ، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكا ، كل سمكة منها قدر الذراع ، ويعرفونه بالبوري . فطبخ منه الناس كثيرا واشتووا .

وقصدت الينا طائفة من البجاة ، وهم سكان تلك الأرض ، سود الألوان ، لباسهم الملاحف الصفر ، ويشدون على رؤوسهم عصائب حمرا في عرض الأصبع . وهم أهل نجدة وشجاعة ، وسلاحهم الرماح والسيوف ، ولهم جمال يسمونها الصهب ، يركبونها بالسروج . فاكترينا منهم الجمال وسافرنا معهم في برية كثيرة الغزلان ، والبجاة لا يأكلونها ، فهي تأنس بالادمي ولاتنفر منه .

وبعد يومين من مسيرنا وصلنا الى حي من العرب يعرفون بأولاد كاهل ، مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم .

وفي ذلك اليوم وصلنا الى جزيرة سواكن ، وهي على نحو ستة أميال من البر ، ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر ، والماء يجلب اليها في القوارب ، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر . وهي جزيرة كبيرة ، وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش . والمعزى عندهم كثير ، والألبان والسمن ، ومنها يجلب الى مكة ، وحبوبهم «الجرجور» وهو نوع من الذرة كبير الحب ، يجلب منها أيضا الى مكة .

ذكر سلطانها

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي اليها الشريف زيد بن أبي نمى ، وأبوه أمير مكة ، وأخواه أميرها بعده ، وهما عطيفة ورميثة اللذان تقدم ذكرهما ... وصارت اليه من قبل البجاة ، فانهم أخواله ، ومعه عسكر من البجاة وأولاد كاهل وعرب جهينة .

وركبنا البحر من كزيرة سواكن نريد أرض اليمن ، وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره ، وانما يسافرون فيه من طلوع الشمس الى غروبها ، ويرسون وينزلون الى البر ، فاذا كان الصباح صعدوا الى المركب . وهم يسمون رئيس المركب الربان ، ولا يزال أبدا في مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الأحجار ، وهم يسمونها النبات.

مدينة حلى

وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا الى مدينة حلى ، وتعرف باسم ابن يعقوب ، وكان من سلاطين اليمن ساكنا بها قديما . وهي كبيرة حسنة العمارة ، يسكنها طائفتان من العرب وهم : بنو حرام ، وبنو كنانة .

وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع ، وفيه جماعة من الفقراء

المنقطعين الى العبادة ، منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي ، من كبار الصالحين ، لباسه مرقعة وقلنسوة لبد ، وله خلوة متصلة بالمسجد ، فرشها الرمل ، لا حصير بها ولا بساط . ولم أر بها حين لقائي له شيئا الا ابريق الوضوء ، وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة ، وصحيفة فيها ملح وسعتر ، فاذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك ، من غير تكلف شيء .

واذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدي الشيخ الى صلاة المغرب . واذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنفل ، فلا يزالون كذلك الى صلاة العشاء الآخرة . فاذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر الى ثلث الليل ، ثم انصرفوا . ويعودون في أول الثلث الثالث الى المسجد فيتهجدون الى الصبح ، ثم يذكرون الى أن تحين صلاة الاشراق فينصرفون بعد صلاتها . ومنهم من يقيم الى أن يصلي صلاة الضحى بالمسجد ، وهذا دأبهم أبدا .

ولقد كنت أردت الاقامة معهم باقي عمري فلم أوفق لذلك ، والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه .

ذكر سلطان حلى .

وسلطانها عامر بن ذؤيب من بني كنانة ، وهو من الفضلاء الأدباء الشعراء ، صحبته من مكة الى جدة وكان قد حج في سنة ثلاثين .

ولما قدمت مدينته أنزلني وأكرمني ، وأقمت في ضيافته أياما . وركبت البحر في مركب له ، فوصلت الى بلدة السرجة ، بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهبي ، وهم طائفة من تجار اليمن ، أكثرهم ساكنون بصعداء ، ولهم فضل وكرم واطعام لأبناء السبيل . ويعينون الحجاج ويركبونهم في مراكبهم ويزودونهم من أموالهم ، وقد عرفوا بذلك

واشتهروا به . وكثرالله أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير .

وليس بالأرض من يماثلهم في ذلك الا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القحمة ، فله مثل ذلك من المآثر والايثار .

وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة في ضيافة المذكورين . ثم رحلنا الى مرسى «الحادث» ولم ننزل به ، ثم الى مرسى «الأبواب» .

مدينة زبيد

ثم الى مدينة زبيد ، مدينة عظيمة باليمن ، بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا . وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منهخا ولا أغنى من أهلها ، واسعة البساتين ، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره . وهي برية لا شطية ، احدى قواعد بلاد اليمن ، مدينة كبيرة كثيرة العمارة ، بها النخل والبساتين والمياه ، أملح بلاد اليمن وأجملها ، ولأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور ، ولنسائها الحسن الفائق الفائت . وهي وادي الحصيب الذي يذكر في بعض الآثار أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ في وصيته : «يامعاذ ، اذا جئت وادي الحصيب فهرول» .

ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة ، وذلك أنهم يخرجون في أيام البسر والرطب في كل سبت الى حدائق النخل ، ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ، ويخرج أهل الطرب ، وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات . ويخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل ، ولهن - مع ما ذكرناه من الجمال الفائت - الأخلاق الحسنة والمكارم . وللغريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوجه كما تفعله نساء بلادنا . فاذا أراد السفر خرجت معه وودعته ، وان كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له الى أن يرجع أبوه ، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها . واذا كان مقيما فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن

لا يخرجن عن بلدهن أبدا ، ولو أعطيت احداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل .

وعلماء تلك البلاد وفقاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق . لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعاني ، والفقيه الصوفي المحقق أبا العباس الأبياني ، والفقيه المحدث أبا علي الزبيدي ، ونزلت في جوارهم فأكرموني وأضافوني ، ودخلت حدائقهم .

واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضي العالم أبي زيد عبد الرحمن الصوفي ، أحد فضلاء اليمن ، ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمني ، وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات .

كرامة له

ذكروا أن فقهاء الزبيدية وكبراءهم أتوا مرة الى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل ، فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ، ولم يبرح الشيخ موضه ، فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم ، ووقع بينهم الكلام في مسألة القدر ، وكانوا يقولون أن لا قدر ، وأن المكلف يخلق أفعاله . فقال لهم الشيخ : فان كان الأمر على ما تقولون فقوموا عن مكانكم هذا . فأرادوا القيام فلم يستطيعوا .

وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية ، وأقاموا كذلك ، واشتد بهم الحر ، ولحقهم وهج الشمس ، وضجوا مما نزل بهم ، فدخل أصحاب الشيخ اليه وقالوا له : ان هؤلاء القوم قد تابوا الى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد . فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم ، وعاهدهم على الرجوع الى الحق وترك مذهبهم السيء ، وأدخلهم زاويته فأقاموا في ضيافته ثلاثا ، وانصرفوا الى بلادهم .

وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح ، وهو بقرية يقال لها غسانة

خارج زبيد ، ولقيت ولده الصالح أبا الوليد اسماعيل ، فأضافني وبت عنده ، وزرت ضريح الشيخ وأقمت عنده ثلاثا .

وسافرت في صحبته الى زيارة الفقيه أبي الحسن الزيلعي ، وهو من كبار الصالحين ، وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه . فوصلنا الى جبلة ، وهي بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار ، فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعي بقدوم الشيخ أبي الوليد استقبله وأنزله بزاويته . وسلمت عليه معه ، وأقمنا عنده ثلاثة أيام في خير مقام .

مدينة تَعِز

ثم انصرفنا ، وبعث معنا احد الفقراء ، فتوجهنا الى مدينة تعز ، حضرة ملك اليمن ، وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها ، وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة ، وكذلك الغالب على البلاد التي يسكنها الملوك .

وهي ثلاث محلات : احداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته ، وتسمى باسم لا أذكره . والثانية يسكنها الأمراء والأجناد وتسمى عدينة . والثالثة يسكنها عامة الناس ، وبها السوق العظمى وتسمى المحالب .

ذكر سلطان اليمن

وهو السلطان المجاهد نور الدين علي ، ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود ، ابن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول . شهر جده برسول لأن أحد خلفاء بني العباس أرسله الى اليمن ليكون بها أميرا ، ثم استقل أولاده بالملك .

وله ترتيب عجيب في قعوده وركوبه . وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذي بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعي في صحبتي، قصد بي

الى قاضي القضاة الامام المحدث صفى الدين الطبري المكي ، فسلمنا عليه ورحب بنا ، وأقمنا بداره في ضيافته ثلاثا .

فلما كان في اليوم الرابع ـ وهو يوم الخميس ـ وفيه يجلس السلطان لعامة الناس ، دخل بي عليه ، فسلمت عليه .

وكيفية السلام عليه أن يمس الانسان الأرض بسبابته ، ثم يرفعها الى رأسه ويقول : أدام الله عزك !

ففعلت كمثل ما فعله القاضي ، وقعد القاضي عن يمين الملك ، وأمرني فقعدت بين يديه ، فسألني عن بلادي وعن مولانا أمير المسلمين جواد الأجواد أبي سعيد رضي الله عنه ، وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور ، فأجبته عما سأل من أحوالهم . وكان وزيره بين يديه فأمره باكرامي وانزالي .

وترتيب قعود هذا الملك : أنه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير ، وعن يمينه ويساره أهل السلاح ، ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ، ويليهم أصحاب القسى ، وبين يديه في الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السر ، وأمير «جندار» على رأسه ، و«الشاوشية» ـ وهم من «الجنادرة» ـ وقوف على بعد . فاذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة : باسم الله ، فاذا قام فعلوا مثل ذلك ، فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده . فاذا استوى قاعدا دخل كل من عادته أن يسلم عليه ، فسلم ووقف حيث رسم له في الميمنة أو الميسرة ، لا يتعدى أحد موضعه ، ولا يقعد الا من أمر بالقعود : يقول السلطان للأمير «جندار» : مر فلانا يقعد ، فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلا ، ويقعد على بساط هنالك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة .

ثم يؤتى بالطعام ، وهو طعامان : طعام العامة ، وطعام الخاصة . فأما طعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من

الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف ، وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد .

ويجلس كل انسان للطعام معين لا يتعداه ، ولا يزاحم أحد منهم أحدا . وعلى مثل هذا الترتيب سواء ، ترتيب ملك الهند في طعامه ، فلا أعلم أسلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن ، أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند ؟

وأقمت في ضيافة سلطان اليمن أياما ، وأحسن الي وأركبني .

مدينة صنعاء

وانصرفت مسافرا الى مدينة صنعاء ، وهي قاعدة بلاد اليمن الأولى ، مدينة كبيرة حسنة العمارة ، بناؤها بالآجر والجص ، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع ، معتدلة الهواء طيبة الماء .

ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة انما ينزل في أيام القيظ ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان ، فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر ، وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة .

ومدينة صنعاء مفروشة كلها ، فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها .

وجامع صنعاء من أحسن الجوامع ، وفيه قبر نبي من الأنبياء عليهم السلام .

مدينة عدن

ثم سافرت منها الى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم ، والجبال تحف بها ، ولا مدخل اليها الا من جانب واحد . وهي

مدينة كبيرة ، ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء ، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر . والماء على بعد منها ، فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب .

وهي شديدة الحر . وهي مرسى أهل الهند ، تأتي اليها المراكب العظيمة من كنبايت ، وتانه ، وكولم ، وقالقوط ، وفندراينه ، والشاليات ، ومنجرور ، وفاكنور ، وهنور ، وسندابور ، وغيرها . وتجار الهند ساكنون بها ، وتجار مصر أيضا .

وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك . وللتجار منهم أموال عريضة ، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه ، لا يشاركه فيه غيره ، لسعة ما بين يديه من الأموال ، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة .

حكاية كبش يعتق عبدا

ذكر لي أن بعضهم بعث غلاما له ليشتري له كبشا ، وبعث آخر منهم غلاما له برسم ذلك أيضا ، فاتفق أنه لم يكن بالسوق في ذلك اليوم الا كبش واحد ، فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين ، فانتهى ثمنه الى أربعمائة دينار ، فأخذه أحدهما وقال : ان رأس مالي أربعمائة دينار ، فإن أعطاني مولاي ثمنه فحسن ، والا دفعت فيه رأس مالي ، ونصرت نفسي وغلبت صاحبي .

وذهب بالكبش الى سيده . فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار ... وعاد الآخر الى سيده خائبا ، فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه .

ونزلت في عند تاجر يعرف بناصر الدين الفاري ، فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار، وله غلمان وخدام أكثر من ذلك.

ومع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق ، يحسنون الى الغريب ويؤثرون الفقير ، ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب .

ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندي ، وكان والده من العبيد الحمالين ، واشتغل ابنه بالعلم فرأس وساد . وهو من خيار القضاة وفضلائهم ، أقمت في ضيافته أياما .

وسافرت من مدينة عدن في البحر أربعة أيام ووصلت الى مدينة زيلع .

مدينة زيلع

وهي مدينة البرابرة ، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب ، وبلادهم صحراء مسيرة شهرين ، أولها زيلع وآخرها مقدشو . ومواشيهم الجمال ، ولهم أغنام مشهورة السمن .

وأهل زيلع سود الألوان ، وأكثرهم رافضة .

وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة ، الا أنها أقذر مدينة في المعمورة وأوحشها وأكثرها نتنا وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الابل التي ينحرونها في الأزقة . ولما وصلنا اليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ، ولم نبت بها لقذرها .

مدينة مَقْدَشُوْ

ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو ، وهي مدينة متناهية في الكبر ، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم . ولهم أغنام كثيرة ، وهم تجار أقوياء . وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها التي لا نظير لها ، ومنها تحمل الى ديار مصر وغيرها .

ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب الى المرسى تصعد الصنابق ـ وهي القوارب الصغار ـ اليه ، ويكون في كل «صنبوق» جماعة من شبان أهلها ، فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام ، فيقدمه لتاجر من تجار المركب ، ويقول : هذا نزيلي وكذلك يفعل كل واحد منهم .

ور ينزل التاجر من المركب الا الى دار نزيله من هؤلاء الشبان ، الا من كان كثير التردد الى البلد وعرف أهله ، فانه ينزل حيث شاء . فاذا نزل عند نزيا ،باع له ما عنده واشترى له . ومن اشترى منه ببخس ، أو باع منه بغير حضور نزيله ، فذلك البيع مردود عندهم ، ولهم منفعة في ذلك .

ولما صعد الشبان الى المركب الذي كنت فيه جاء الي بعضهم فقال له أصحابي : ليس هذا بتاجر ، وانما هو فقيه .

فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضي .

وكان فيهم أحد أصحاب القاضي ، فعرفه بذلك ، فأتى الى ساحل البحر في جملة من الطلبة ، وبعث الي أحدهم ، فنزلت أنا وأصحابي ، وسلمت على القاضي وأصحابه ، وقال لي : باسم الله نتوجه للسلام على الشيخ .

فقلت : ومن الشيخ .

فقال : السلطان .

وعادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ .

فقلت له : اذا نزلت توجهت اليه .

فقال لي : ان العادة اذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح ألا ينزل حتى يرى السلطان .

فذهبت معهم اليه كما طلبوا .

ذكــر سلطــان مقدشــو

وسلطان مقدشو ، كما ذكرناه ، انما يقولون له الشيخ ، واسمه أبو بكر ابن الشيخ عمر . وهو في الأصل من البرابرة ، وكلامه بالمقدشي ، ويعرف اللسان العربي . ومن عاداته أنه متى وصل مركب يصعد اليه صنبوق السلطان ، فيسأل عن المركب من أين قدم ؟ ومن صاحبه ؟ ومن ربانه (وهو الرئيس) ؟ وما وسقه ؟ ومن قدم فيه من التجار وغيرهم ؟ فيعرف بذلك كله ، ويعرض على السلطان ، فمن استحق أن ينزله عنده أنزله .

ولما وصلت مع القاضي المذكور (وهو يعرف بابن البرهان المصري الأصل) الى دار السلطان ، خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي ، فقال : بلغ الأمانة ، وعرف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز ، فبلغ .

ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق التانبول والفوفل ، فأعطاني عشر أوراق مع قليل من الفوفل ، وأعطى القاضي كذلك ، وأعطى أصحابي وطلبة القاضي ما بقي في الطبق ، وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقي فسكب علي وعلى القاضي ، وقال : ان مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة (وهي دار معدة لضيافة الطلبة) .

فأخذ القاضي بيدي وجئنا الى تلك الدار ، وهي بمقربة من دار الشيخ ، مفروشة مرتبة بما تحتاج . ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه ، وهو الموكل بالضيوف ، فقال : مولانا يسلم عليكم ويقول لكم : قدمتم خير مقدم .

ثم وضع الطعام فأكلنا . وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن ، يجعلونه في صحفة خشب كبيرة ، ويجعلون فوقه صحاف «الكوشان» وهو الادام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ، ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن الحليب ، ويجعلونه في صحفة ، ويجعلون اللبن الرائب في صحفة ،

ويجعلون عليه الليمون المصبر، وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح، والزنجبيل الأخضر والعنب، وهي مثل التفاح ولكن لها نواة. وهي ـ اذا نضجت ـ شديدة الحلاوة، وتؤكل كالفاكهة، وقبل نضجها حامضة كالليمون، يصبرونها في الخل. وهم اذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات.

والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة، وهم في نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها.

ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضي. وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى الينا بالطعام ثلاث مرات في اليوم: وتلك عادتهم.

فلما كان اليوم الرابع، وهو يوم الجمعة، جاءني القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة. وكسوتهم فوطة خز يشدها الانسان في وسطه عوض السراويل، فانهم لا يعرفونها، ودراعة من المقطع المصري معلمة، وفرجية من القدسي مبطنة، وعمامة مصرية معلمة. وأتوا لأصحابي بكسى تناسبهم. وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة، فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضي، فرحب، وتكلم بلسانهم مع القاضي، ثم قال باللسان العربي: قدمت خير مقدم، وشرفت بلادنا وآنستنا.

وخرج الى صحن المسجد، فوقف على قبر والده (وهو مدفون هناك) فقرأ ودعا، ثم جاء الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فسلموا. وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن: يضع سبابته في الأرض ثم يجعلها على رأسه ويقول: أدام الله عزك!

ثم خرج الشيخ من باب المسجد، فلبس نعليه، وأمر القاضي أن ينتعل، وأمرني أن أنتعل، وتوجه الى منزله ماشيا وهو بالقرب من المسجد، ومشى الناس كلهم حفاة.

ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون ، وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب ، وكان لباسه في ذلك اليوم فرجية قدسية خضراء ، وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان ، وهو متقلد بفوطة حرير ، ومعتم بعمامة كبيرة . وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنقار ، وأمراء الأجناد أمامه وخلفه ، والقاضي والفقهاء والشرفاء معه .

ودخل الى «مشوره» على تلك الهيئة ، وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد في سقيفة هنالك ، وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه ، والفقهاء والشرفاء معه .

ولم يزالوا كذلك الى صلاة العصر . فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الأجناد ووقفوا صفوفا على قدر مراتبهم ، ثم ضربت الأطبال والأنقار والأبواق والصرنايات . وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتزحزح من مقامه ، ومن كان ماشيا وقف فلم يتحرك الى خلف ولا الى أمام .

فاذا فرغ من ضرب «الطبلخانة» سلموا بأصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا . وتلك عادة لهم في كل يوم جمعة .

واذا كان يوم السبت يأتي الناس الى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار ، ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج الى «المشور» الثاني ، فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك . ويكون القاضي على دكان وحده ، وكل صنف على دكان لا يشاركهم فيه سواهم .

ثم يجلس الشيخ بمجلسه ، ويبعث الى القاضي فيجلس عن يساره . ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ، وسائرهم يسلمون وينصرفون . ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ، ويسلم سائرهم وينصرفون ، وان كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه . ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ، ويسلم سائرهم وينصرفون . ثم يدخل الوزراء ثم الأمراء ثم

وجوه الأجناد : طائفة بعد طائفة أخرى ، فيسلمون وينصرفون .

ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعدا بالمجلس ، ويأكل الشيخ معهم . وان أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث اليه فأكل معه ، ويأكل سائر الناس بدار الطعام . وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم في الدخول على الشيخ .

ثم يدخل الشيخ الى داره ، ويقعد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل السكايات ، فما كان متعلقا بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي ، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى ، وهم الوزراء والأمراء ، وما كان مفتقرا الى مشاورة السلطان كتبوا اليه فيه ، فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره . وتلك عادتهم دائما .

ثم ركبت البحر من مدينة مقدشو متوجها الى بلاد السواحل قاصدا مدينة كلوا من بلاد الزنوج .

مدينـة كَلْـوا

فوصلنا الى جزيرة منبسي ، وهي جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ، ولا بر لها ، وأشجارها الموز والليمون والأترج ، ولهم فاكهة يسمونها الجمون ، وهي شبه الزيتون ولها نوى كنواه ، الا أنها شديدة الحلاوة .

ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة ، وانما يجلب اليهم من السواحل ، وأكثر طعامهم الموز والسمك .

وهم شافعية المذهب ، أهل دين وعفاف وصلاح . ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان ، وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان ، وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان ، فيستقون منها الماء

بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق في طول الذراع .

والأرض حول البئر والمسجد مسطحة ، فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ، وعلى بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه . ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه وتوضأ . وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام .

وبتنا بهذه الجزيرة ليلة ، وركبنا البحر الى مدينة كلوا ، وهي مدينة عظيمة ساحلية ، أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ، ولهم شرطات في وجوههم كما هي في وجوه الليميين من جنادة .

وذكر لي بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا ، وأن بين سفالة يوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر ومن يوفى يؤتى بالتبر الى سفالة .

ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وكلها بالخشب ، وسقف بيوتها الديس ، والأمطار بها كثيرة . وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح . وهم شافعية المذهب .

ذكر سلطان كلوا

وكان سلطانها في عهد دخولي اليها أبو المظفر حسن ، ويكنى أيضا «أبو المواهب» ، لكثرة مواهبه ومكارمه . وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج ، يغير عليهم ، ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ، ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة ، فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم . وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة ، منهم : محمد بن جماز ، ومنصور بن لبيدة بن أبي نمى ، ومحمد بن شميلة بن أبي

نمى . ولقيت بمقدشو أتيل بن كبيش بن جماز وهو يريد القدوم عليه .

وهذا السلطان له تواضع شديد ، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ، ويعظم أهل الدين والشرف .

حكاية من مكارمه

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصدا الى داره ، فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له : يا أبا المواهب ؟

فقال : لبيك يا فقير ، ما حاجتك ؟

قال : أعطني هذه الثياب التي عليك .

فقال له : نعم أعطيكها .

قال : الساعة ؟

قال : نعم الساعة .

فرجع الى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب ، وقال للفقير : ادخل فخذها .

فدخل الفقير وأخذها وربطها في منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف . فعظم شكر الناس للسلطان على ماظهر من تواضعه وكرمه ، وأخذ ابنه ولي عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد . وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك ، فأمر للفقير أيضا بعشرة رؤوس من الرقيق ، وحملين من العاج . ومعظم عطاياهم العاج ، وقلما يعطون الذهب .

ولما توفي هذا السلطان الفاضل الكريم ، رحمة الله عليه ، ولي أخوه داود ، فكان على الضد من ذلك ، اذا أتاه سائل يقول له : مات الذي كان يعطي ولم يترك من بعده ما يعطي . ويقيم الوفود عند الشهور الكثيرة ، وحينئذ يعطيهم القليل ، حتى انقطع الوافدون عن بابه .

مدينـــة ظفــار

وركبنا البحر من مدينـة كلوا الى مـدينـة ظفـار الحموض ، وهي آخر بـلاد اليمن على سـاحـل البحر الهنـدي ، ومنهـا تحمـل الخيـل العتـاق الى الهند . ويقطع فيا بينها وبين بلاد الهنـد ـ مع مسـاعـدة الريح ـ في شهر كامل ، قـد قطعتـه مرة من قـالقوط لمن بلاد الهنـد الى ظفـار في ثمـانيـة وعشرين يوما بالريح الطيبة ، لم ينقطع لنا جرى بالليل ولا بالنهار .

وبين ظفــار وعـــدن في البر مسيرة شهر في صحراء ، وبينهـــا وبين حضرموت ستة عشر يوما ، وبينها وبين عمان عشرون يوما .

ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها .

والسـوق خـارج المـدينـة بربض يعرف بـالحرجــاء ، وهي من أقـــذر الأسواق وأشدها نتنا ، وأكثرهـا ذبـابـا ، لكثرة مـا يبـاع بهـا من الثمرات والسمك . وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين ، وهو بها في النهايـة من السمن .

ومن العجـائب أن دوابهم انما علفهـا من هـــذا السردين ، وكـــذلــك غنمهم ، ولم أر ذلك في سواها .

وأكثر باعتها الخدم ، وهن يلبسن السواد . وزرع أهلهـا الـذرة ، وهم يسقونهـا من آبـار بعيـدة المـاء . وكيفيـة سقيهم أنهم يصنعون دلـوا كبيرة ويجعلون لها حبـالا كثيرة ، ويتحزم بكل حبل عبـد أو خـادم ، ويجرون الـدلـو على عـود كبير مرتفـع عن البئر ، ويصبـونهـا في صهريـج يسقـون منه .

ولهم قمح يسمونـه العلس ، وهـو في الحقيقـة نـوع من السلت . والأرز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم .

ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصـدير ولا تنفق في سواهـا . وهم أهل تجـارة لا عيش لهم الا منهـا . ومن عـادتهم أنـه اذا وصل مركب من

بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا في «صنبوق» الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله ، وللربان وهو الرئيس ، وللكراني وهو كاتب المركب . ويؤتى اليهم بثلاثة أفراس فيركبونها . وتضرب أمامهم الأطبال والأبواق من ساحل البحر الى دار السلطان ، فيسلمون على الوزير وأمير جندار . وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا ، وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان ، وهم يفعلون ذلك استجلابا لأصحاب المراكب .

وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء . ولباسهم القطن ، وهو يجلب اليهم من بلاد الهند ، ويشدون الفوط في أوساطهم عوض السراويل ، وأكثرهم يشد فوطة في وسطه ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر . ويغتسلون مرات في اليوم .

وهي كثيرة المساجد ، ولهم في كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال . ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا . والغالب على أهلها رجالا ونساء المرض المعروف بداء الفيل ، وهو انتفاخ القدمين . وأكثر رجالهم مبتلون بالأدرة والعياذ بالله .

ومن عاداتهم الحسنة التصافح في المسجد اثر صلاة الصبح والعصر ، يستند أهل الصف الأول الى القبلة ويصافحهم الذين يلونهم ، وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة ، يتصافحون أجمعين .

ومن خواص هذه المدينة وعجائبها أنه لا يقصدها أحد بسوءالا عاد عليه مكره ، وحيل بينه وبينها . وذكر لي أن السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه ، صاحب هرمز ، نازلها مرة في البر والبحر ، فأرسل الله عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ، ورجع عن حصارها وصالح ملكها .

وكذلك ذكر لي أن الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عم له بعسكر

كبير لانتزاعها من يد ملكها (وهو أيضا ابن عمه) ، فلما خرج ذلك الأمير عن داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعا ، ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها .

ومن الغرائب أن أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شؤونهم نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم - وهو عيسى بن علي ، كبير القدر كريم النفس - فكان له جوار مسميات بأسماء خدم المغرب ، احداهن اسمها بخيتة ، والأخرى زاد المال .... ولم أسمع هذه الأسماء في بلد سواها .

وأكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم . وفي كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت ، يصلي عليها صاحب البيت ، كما يفعل أهل المغرب . وأكلهم الذرة .

وهذا التشابه كله مما يقوي القول بأن صنهاجة ، وسواهم من قبائل المغرب ، أصلهم من حمير .

ويقرب من هذه المدينة - بين بساتينها - زاوية الشيخ الصالح العابد أبي محمد بن أبي بكر بن عيسى ، من أهل ظفار . وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون اليها غدوا وعشيا ويستجيرون بها ، فاذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه . رأيت بها شخصا ذكر لي أن له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان . وفي الأيام التي كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح .

أتيت هذه الزاوية فبت بها في ضيافة الشيخين أبي العباس أحمد وأبي عبد الله محمد ابني الشيخ أبي بكر المذكور ، وشاهدت لهما فضلا عظيما . ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذي غسلنا به فشرب منه ، وبعث الخادم بباقيه الى أهله وأولاده فشربوه ، وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم .

وكذلك أضافني قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الملك الزبيدي ، وكان يتولى خدمتي وغسل يدي بنفسه ، ولا يكل ذلك الى غيره .

وبقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث ، وهي معظمة عندهم ، ويستجير بها من طلب حاجة فتقضي له . ومن عادة الجند أنه اذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم ، استجاروا بهذه التربة ، وأقاموا في جوارها الى أن يعطوا أرزاقهم .

وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف ، وهي منازل عاد . وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر ، وحوله قرية لصيادي السمك . وفي الزاوية قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام . وقد ذكرت أن بمسجد دمشق موضعا مكتوبا عليه : هذا قبر هود بن عابر ، والأشبه أن يكون قبره بالأحقاف لأنها بلاده ، والله أعلم .

ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم ، وزنت بحضري حبة منه فكان وزنها اثنتى عشرة أوقية ، وهو طيب الطعم شديد الحلاوة . وبها أيضا التانبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ، ولا يكونان الا ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه لشبهها بالهند وقربها منها ، اللهم الا أن في مدينة زبيد في بستان السلطان شجيرات من النارجيل وإذ قد وقع ذكر التانبول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصها .

ذكر التانبول

والتانبول شجر يغرس كما تغرس دوالي العنب ، ويصنع له معرشات من القصب كما يصنع لدوالي العنب ، أو يغرس في مجاورة شجرة النارجيل ، فيصعد فيها كما تصعد الدوالي ، وكما يصعد الفلفل . ولا ثمر للتانبول ، وانما المقصود منه ورقه ، وهو يشبه ورق العليق .

وأطيبه الأصفر ، وتجني أوراقه في كل يوم .

وأهل الهند يعظمون التانبول تعظيما شديدا ، واذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها ، ولا سيما ان كان أميرا أو كبيرا . واعطاؤه عندهم أعظم شأنا وأدل على الكرامة من اعطاء الفضة والذهب .

وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل ـ وهو شبه جوز الطيب ـ فيكسر حتى يصير أطرافا صغارا ، ويجعله الانسان في فمه ويعلكه ، ثم يأخذ ورق التانبول فيجعل عليها شيئا من النورة ويضغها مع الفوفل .

وخاصته أنه يطيب النكهة ، ويذهب بروائح الفم ، ويهضم الطعام ، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ؛ ويفرح آكله .

ويجعله الانسان عند رأسه ليلا ، فاذا استيقظ من نومه أخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة . ولقد ذكر لي أن جواري السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره . وسنذكره عند ذكر بلاد الهند .

ذكر النارجيل

وهو جوز الهند ، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأنا وأعجبها أمرا .

وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما الا أن هذه تثمر جوزا وتلك تثمر تمرا . وجوزها يشبه رأس ابن آدم ، لأن فيها شبه العينين والفم ، وداخلها شبه الدماغ اذا كانت خضراء ، وعليها ليف يشبه الشعر ، وهم يصنعون به حبالا يخيطون بها المراكب عوضا عن مسامير الحديد ، ويصنعون منه الحبال للمراكب .

فالجوزة منها ـ وخصوصا التي بجزائر ذيبة المهل ـ تكون بمقدار رأس الآدمي .

ويزعمون أن حكيما من حكماء الهند في غابر الزمان كان متصلا بملك

من الملوك ومعظما لديه ، وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة ، فقال الحكيم للملك : ان رأس هذا الوزير اذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر ثمرا عظيما يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا .

فقال له الملك : فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته ؟

قال : ان لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه .

فأمر الملك برأس الوزير فقطع ، وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرة ، وأثمرت هذا الجوز .

وهذه الحكاية من الأكاذيب ، ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم .

ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه . وأما الاعانة على الباءة ، ففعله فيها عجيب . ومن عجائبه : أنه يكون في ابتداء أمره أخضر ، فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة ، شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة . ومزاجه حار معين على الباءة ، فاذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما في داخل الجوزة من الطعم ، فيكون طعمها كطعم البيضة اذا شويت ولم يتم نضجها كل التمام ، ويتغذى به ، ومنه كان غذائي أيام اقامتي بجزائر ذيبة المهل مدة عام ونصف عام .

وعجائبه أنه يصنع منه الزيت والحليب والعسل .

فأما كيفية صناعة العسل منه فان خدام النخل ، ويسمون الفازانية ، يصعدون الى النخلة غدوا وعشيا ، اذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل ، فيقطعون العذق الذي يخرج منه الثمر ، ويتركون منه مقدار أصبعين ، ويربطون عليه قدرا صغيرا ، فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العذق . فاذا ربطها غدوة صعد اليها عشيا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور ، أحدهما مملوء ماء ، فيصب ما اجتمع من ماء العذق في أحد القدحين ، ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر ، وينجر من العذق

قليلا ، ويربط عليه القدر ثانية ، ثم يفعل غدوة كفعله عشيا . فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب اذا صنع منه الرب ، فيصير عسلا عظيم النفع طيبا ، فيشتريه تجار الهند واليمن والصين ، ويحملونه الى بلادهم ويصنعون منه الحلواء .

وأما كيفية صنع الحليب منه فان بكل دار شبه الكرسي ، تجلس فوقه المرأة ، ويكون بيدها عصا في أحد طرفيها حديدة مشرفة ، فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ، ويجرشون ما في بطن الجوزة ، وكل ما ينزل منها يجتمع في صحفة حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء . ثم يمرس ذلك الجريش بالماء ، فيصير كلون الحليب بياضا ، ويكون طعمه كطعم الحليب ، ويأتدم به الناس .

وأما كيفية صنع الزيت فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره ، ويقطعونه قطعا ويجعل في الشمس ، فاذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيته ، وبه يستصبحون ويأتدمون ، وتجعله النساء في شعورهن ، وهو عظيم النفع .

ذكر سلطان ظفار

وهو السلطان الملك المغيث ، ابن الملك الفائز ، ابن عم ملك اليمن . وكان أبوه أميرا على ظفار من قبل صاحب اليمن ، وله عليه هدية يبعثها له في كل سنة . ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من ارسال الهدية . وكان من عزم ملك اليمن على محاربته ، وتعيين ابن عمه لذلك ، ووقوع الحائط عليه ما ذكرناه آنفا .

وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن ، عظيم فسيح ، والجامع بازائه . ومن عادته أن تضرب الطبول والبوقات والأنقار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر . وفي كل يوم اثنين وخميس تأتي

العساكر الى بابه فيقفون خارج «المشور» ساعة وينصرفون .

والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد الا في يوم الجمعة ، فيخرج للصلاة ثم يعود الى داره . ولا يمنع أحدا من دخول «المشور» ، وأمير «جندار» قاعد على بابه ، واليه ينتهي كل صاحب حاجة أو شكاية ، وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين .

واذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومماليكه الى خارج المدينة ، وأتى بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب ، فيركب السلطان ونديه في المحمل بحيث لا يرى ، واذا خرج إلى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل .

وعادته ألا يعارضه أحد في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكاية ولا غيرها ، ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب . فتجد الناس اذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاشوها .

ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العدني ، وكان معلم صبيان ، فعلم هذا السلطان القراءة والكتابة ، وعاهده على أن يستوزره ان ملك ، فلما ملك استوزره ، فلم يكن يحسنها ، فكان الاسم له والحكم لغيره .

ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان في مركب صغير لرجل يعرف بعلي بن ادريس المصيري ، من أهل جزيرة مصير .

وفي الثاني لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك ، وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك . وعندهم شجر الكندر ، وهو رقيق الورق ، واذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغا ، وذلك الصمغ هو اللبان ، وهو كثير جدا هنالك .

ولا معيشة لأهل ذلك المرسى الا من صيد السمك . وسمكهم يعرف باللخم ، وهو شبيه كلب البحر ، يشرح ويقدد ويقتات به . وبيوتهم من عظام السمك ، وسقفها من جلود الجمال .

وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيام ووصلنا الى جبل لمعان ، وهو في وسط البحر ، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة ، وسقفها من عظام السمك ، وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر .

ذكر ولي لقيناه بهذا الجبل

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه الى هذه الرابطة ، فوجدنا بها شيخا نائما ، فسلمنا عليه فاستيقظ وأشار برد السلام ، فكلمناه فلم يكلمنا ، وكان يحرك رأسه ، فأتاه أهل المركب بطعام فأبى أن يقبله ، فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ، ولا نعلم ما يقول ، وعليه مرقعة وقلنسوة لبد ، وليس معه ركوة ولا ابريق ولا عكاز ولا نعل . وقال أهل المركب انهم ما رأوه قط بهذا الجبل .

وأقمنا تلك الليلة بساحل هذا الجبل وصلينا معه العصر والمغرب ، وجئناه بطعام فرده ، وأقام يصلي الى العشاء الآخرة ، ثم أذن وصليناها معه . وكان حسن الصوت بالقراءة مجيدا لها .

ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أومأ الينا بالانصراف . فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره . ثم أني أردت الرجوع اليه لما انصرفنا ، فلما دنوت منه هبته وغلب علي الخوف .

ورجعت الى أصحابي وانصرفت معهم وركبنا البحر ، ووصلنا بعد يومين الى جزيرة الطير ، وليست بها عمارة ، فأرسينا وصعدنا اليها ، فوجدناها ملأى بطيور تشبه الشقاشق الا أنها أعظم منها ، وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها ، واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها وكان يجالسني تاجر من أهل جزيرة مصيرة ساكن بظفار اسمه مسلم ، فرأيته يأكل معهم تلك الطيور ، فأنكرت ذلك عليه ، فاشتد خجله وقال لي : ظننت أنهم ذبحوها ،

وانقطع عني بعد ذلك من الخجل ، فكان لا يقربني حتى أدعوه .

وكان طعامي في تلك الأيام بذلك المركب التمر والسمك . وكانوا يصطادون بالغدوة والعشى سمكا يسمى بالفارسية «شير ماهي» ، ومعناه : أسد السمك ، لأن «شير» هو الأسد ، و «ماهي» السمك . وهم يقطعونه قطعا ويشوونه ويعطون كل من في المركب قطعة ، لا يفضلون أحدا على أحد ، ولا صاحب المركب ولا سواه ، ويأكلونه بالتمر .

وكان عندي خبز وكعك استصحبتها من ظفار ، فلما نفدا كنت أقتات من ذلك السمك في جملتهم .

وعيدنا عيد الأضحى على ظهر البحر ، وهبت علينا في يومه ريح عاصفة بعد طلوع الفجر ، ودامت الى طلوع الشمس وكادت تغرقنا .

حكاية للحاج خضر

وكان معنا في المركب حاج من أهل الهند يسمى بخضر ، يدعى بمولانا ، لأنه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة . فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم ، فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له : يامولانا خضر ، كيف رأيت ؟

قال : كنت عند الهول أفتح عيني أنظر هل أرى الملائكة الذين يقبضون الأرواح جاءوا ؟ فلا أراهم ، فأقول : الحمد لله ، لو كان الغرق لأتوا لقبض الأرواح ، ثم أغلق عيني ثم أفتحها فأنظر كذلك ، الى أن فرج الله عنا .

وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغرق ولم ينج منه الا رجل واحد ، خرج عوما بعد جهد شديد .

وأكلت في ذلك المركب نوعا من الطعام لم آكله قبله ولا بعده ، صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة ، طبخها من غير طحن ، وصب عليها عسل التمر وأكلناه .

ثم وصلنا الى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب الذي كنا فيه . وهي جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها الا من السمك ، ولم ننزل اليها لبعد مرساها عن الساحل ، وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة . وأقمنا بها يوما ، وتوجه صاحب المركب الى داره وعاد الينا .

ثم سرنا يوما وليلة فوصلنا الى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور ، ورأينا منها مدينة قلهات في سفح جبل ، فخيل لنا أنها قريبة ، وكان وصولنا الى المرسى وقت الزوال أو قبله .

فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشي اليها والمبيت بها ، وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب ، فسألت عن طريقها ، فأخبرت أني أصل اليها عند العصر ، فاكتريت أحد البحريين ليدلني على طريقها .

وصحبني خضر الهندي الذي تقدم ذكره ، وتركت أصحابي مع ما كان لي بالمركب ليلحقوا بي في غد ذلك اليوم . وأخذت أثوابا كانت لي فدفعتها لذلك الدليل ليكفيني مئونة حملها ، وحملت في يدي رمحا ، فاذا ذلك الدليل يحب أن يستولى على أثوابي ، فأتى بنا الى خليج يخرج من البحر ، فيه المد والجزر ، فأراد عبوره بالثياب فقلت له : انما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا ، فان قدرنا على الجواز جزنا والا صعدنا نطلب المجاز ، فرجع .

ثم رأينا رجالا جازوه عوما ، فتحققنا أنه كان قصده أن يغرقنا ويذهب بالثياب . فحينئذ أظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشددت وسطى ، وكنت أهز الرمح ، فهابني ذلك الدليل .

وصعدنا حتى وجدنا مجازا ، ثم خرجنا الى صحراء لا ماء بها ، وعطشنا واشتد بنا الأمر ، فبعث الله لنا فارسا في جماعة من أصحابه وبيد أحدهم ركوة ماء فسقاني وسقى صاحبي . وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا ، وبيننا وبينها خنادق نمشي فيها الأميال الكثيرة . فلما كان

من العشى أراد الدليل أن يميل بنا الى ناحية البحر ، وهو لا طريق له لأن ساحله حجارة ، فأراد أن ننشب فيها ويذهب بالثياب ، فقلت له : انما نمشي على هذه الطريق التي نحن عليها ، وبينها وبين البحر نحو ميل .

فلما أظلم الليل قال لنا : ان المدينة قريبة منا ، فتعالوا نمش حتى نبيت بخارجها الى الصباح ، فخفت أن يتعرض لنا أحد في طريقنا ، ولم أحقق مقدار ما بقي اليها ، فقلت له : انما الحق أن نخرج عن الطريق فننام ، فاذا أصبحنا أتينا المدينة ان شاء الله .

وكنت قد رأيت جملة من الرجال في سفح جبل هنالك ، فخفت أن يكونوا لصوصا ، وقلت التستر أولى .

وغلب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك ، فخرجت عن الطريق ، وقصدت شجرة من شجر أم غيلان ، وقد أعييت وأدركني الجهد ، لكني أظهرت قوة وتجلدا خوف الدليل .

وأما صاحبي فمريض لا قوة له ، فجعلت الدليل بيني وبين صاحبي وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي ، وأمسكت الرمح بيدي ، ورقد صاحبي ورقد الدليل ، وبقيت ساهرا ، فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته أني مستيقظ .

ولم نزل كذلك حتى أصبحنا ، فخرجنا الى الطريق ، فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق الى المدينة ، فبعثت الدليل ليأتينا بماء ، وأخذ صاحبي الثياب ، وكان بيننا وبين المدينة مهاو وخنادق ، فأتانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحر .

ثم وصلنا الى مدينة قلهات ، فأتيناها ونحن في جهد عظيم ، وكنت قد ضاقت نعلي على رجلي حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها .

فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة أن قال لنا الموكل بالباب

لابد لك أن تذهب معي الى أمير المدينة ليعرف قضيتك ، ومن أين قدمت ؟ فذهبت معه اليه فرأيته فاضلا حسن الأخلاق ، وسألني عن حالي وأنزلني . وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لي فيها على النهوض على قدمي لما لحقها من الآلام .

مدينة قلهات

ومدينة قلهات على الساحل ، وهي حسنة الأسواق ، ولها مسجد من أحسن المساجد ، حيطانه بالقاشاني ، وهو شبه الزليج ، وهو مرتفع ينظر منه الى البحر والمرسى . وهو من عمارة الصالحة بيبي مريم ، ومعنى بيبي عندهم الحرة .

وأكلت بهذه المدينة سمكا لم آكل مثله في اقليم من الأقاليم ، وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه . وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الأرز ويأكلونه . والأرز يجلب اليهم من أرض الهند .

وهم أهل تجارة ، ومعيشتهم مما يأتي اليهم في البحر الهندي . واذا وصل اليهم مركب فرحوا به أشد الفرح . وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب ، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بـ «لا» ، فيقولون مثلا : تأكل لا ، تمشي لا ، تفعل كذا لا .

وأكثرهم خوارج ، لكنهم لا يقدرون على اظهار مذهبهم ، لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز ، وهو من أهل السنة .

وبمقربة من قلهات قرية «طيبي» ، واسمها على نحو اسم الطيب اذا أضافه المتكلم لنفسه . وهي من أجمل القرى وأبدعها حسنا ، ذات أنهار جارية ، وأشجار ناضرة ، وبساتين كثيرة ، ومنها تجلب الفواكه الى قلهات . وبها الموز المعروف بالمرواري ، والمرواري بالفارسية هو الجوهري (المروار : الجوهر) ، وهو كثير بها ، ويجلب منها الى هرمز وسواها ، وبها

أيضا التانبول لكن ورقته صغيرة، والتمر يجلب الى هـذه الجهـات من عمـان.

بـلاد عمـان

ثم قصدنا بلاد عمان فسرنا ستة أيام في صحراء ، ثم وصلنـا بلاد عمـان في اليوم السابع . وهي خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحـدائق نخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس .

ووصلنا الى قاعـدة هـذه البلاد وهي مـدينـة نزوا ، مـدينـة في سفح جبل ، تحف بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنـة ومسـاجـد معظمـة نقية . وعادة أهلها أنهم يأكلون في صحون المساجـد ، يـأتي كل انسـان بما عنده ، ويجتمعون للأكل في صحن المسجد ، ويأكل معهم الوارد والصـادر . ولهم نجدة وشجاعة ، والحرب قائمة فيما بينهم أبدا .

وهم اباضية المذهب ، ويصلون الجمعـة ظهرا أربعـا ، فـاذا فرغوا منهـا قرأ الإمام آيات من القرآن ، ونثر كلاما شبـه الخطبـة يرضى فيـه عن أبي بكر وعمر ، ويسكت عن عثمان وعلي . وهم اذا أرادوا ذكر علي رضي الله عنـه كنوا عنـه بـالرجل ، فقـالوا : ذكر عن الرجـل ، أو قـال الرجـل . ويرضون عن الشقي اللعين ابن ملجم ، ويقـولـون فيـه : العبـد الصـالـح قامع الفتنة .

ونساؤهم يكثرن الفساد ، ولا غيرة عندهم ولا انكار لذلـك ، وسنـذكر حكاية اثر هذا مما يشهد بذلك .

ذكر سلطان عمان

وسلطـانهـا عربي من قبيلـة الأزد بن الغـوث ، ويعرف بـأبي محمـد بن نبهان ، وأبو محمود عندهم سمة لكل سلطان يلي عمان ، كما هي أتابك عنـد ملوك اللور .

وعادته أن يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ، ولا حاجب له ولا وزير، ولا يمنع أحدا من الدخول إليه من غريب أو غيره ويكرم الضيف على عادة العرب . ويعين له الضيافة ، ويعطيه على قدره . وله أخلاق حسنة . ويؤكل على مائدته لحم الحمار الانسى ، ويباع بالسوق ، لأنهم قائلون بتحليله ، ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بحضره .

ومن مدن عمان مدينة زكى ، لم أدخلها ، وهي على ما ذكر لي مدينة عظيمة .

ومنها : القريات ، وشبا ، وكلبا وخور فكان ، وصحار ، وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار نخل ، وأكثر هذه البلاد في عمالة هرمز .

حكاية السلطان حامي الفساد

كنت يوما عند هذا السلطان أبي محمد بن نبهان ، فأتته امرأة صغيرة السن ، حسنة الصورة ، بادية الوجه ، فوقفت بين يديه وقالت له : يا أبا محمد ، طغى الشيطان في رأسي .

فقال لها : اذهبي واطردي الشيطان .

فقالت له : لا أستطيع ، وأنا في جوارك يا أبا محمد .

فقال لها : اذهبي ، فافعلي ماشئت !

فذكر لي ـ لما انصرفت عنه ـ أن هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان ، وتذهب للفساد ، ولا يقدر أبوها ولا ذوو قرابتها أن يغيروا عليها ، وان قتلوها قتلوا بها ، لأنها في جوار السلطان .

السفر الى هرمز

ثم سافرت من بلاد عمان الى بلاد هرمز . وهرمز مدينة على ساحل

البحر ، وتسمى أيضا موغ استان ، وتقابلها في البحر هرمز الجديدة ، وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ .

ووصلنا الى هرمز الجديدة ، وهي جزيرة مدينتها تسمى جرون ، وهي مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافل ، وهي مرسى الهند والسند ، ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان .

وبهذه المدينة سكنى السلطان . والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم . وأكثرها سباخ وجبال ملح وهو الملح الداراني ، ومنه يصنعون الأواني للزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها .

وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان .

والماء في هذه الجزيرة له قيمة ، وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر : وهي على بعد من المدينة ، ويأتون اليها بالقرب فيملأونها ويرفعونها على ظهورهم الى البحر ، يوسقونها في القوارب ويأتون بها الى المدينة .

ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق ، رأس سمكة كأنه رابية ، وعيناه كأنهما بابان ، فترى الناس يدخلون من احداهما ويخرجون من الأخرى .

ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الأقصاراني وأصله من بلاد الروم فأضافني وزارني وألبسني ثوبا ، وأعطاني كر الصحبة ، وهو يحتبي به فيعين الجالس فيكون كأنه مستند . وأكثر فقراء العجم يتقلدونه .

وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب الى الخضر والياس عليهما السلام ، ويذكر أنهما يصليان فيه ، وظهرت له بركات وبراهين .

وهنالك زاوية يسكنها أحد المشايخ ، يخدم بها الوارد والصادر ، وأقمنا عنده يوما .

وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع في آخر هذه الجزيرة قد نحت غارا لسكناه ، فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له فيها جارية ، وله عبيد خارج الغار يرعون بقرا له وغنما . وكان هذا الرجل من كبار التجار ، فحج البيت وقطع العلائق ، وانقطع هنالك للعبادة ، ودفع ماله لرجل من اخوانه يتجر له به ، وبتنا عنده ليلة فأحسن القرى وأجمل ، رضي الله تعالى عنه ، وسمة الخير والعبادة لائحة عليه .

ذكر سلطان هرمز

وهو السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه . وهو من كرماء السلاطين ، كثير التواضع حسن الأخلاق . وعادته أن يأتي لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ، ويقوم بحقه .

ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهيأ للحرب مشغولا بها مع ابني أخيه نظام الدين ، والغلاء مستول على الجزيرة . فأتى الينا وزيره شمس الدين محمد بن علي وقاضيه عماد الدين الشونكاري وجماعة من الفضلاء ، فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب .

وأقمنا عندهم ستة عشر يوما ، فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الأصحاب : كيف ننصرف ولا نرى هذا السلطان ؟

فجئنا دار الوزير وكانت في جوار الزاوية التي نزلت بها ، فقلت له : اني أريد السلام على الملك .

فقال : باسم الله .

وأخذ بيدي فذهب بي الى داره وهي على ساحل البحر ، فاذا شيخ عليه أقبية ضيقة دنسة ، وعلى رأسه عمامة ، وهو مشدود الوسط بمنديل . فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ، ولم أعرف أنه الملك . وكان الى جانبه ابن أخته ، وهو علي شاه بن جلال الدين الكيجى ، وكان بيني وبينه

معرفة ، فأنشأت أحادثه وأنا لا أعرف الملك ، فعرفني الوزير بذلك ، فخجلت منه لاقبالي بالحديث على ابن أخته دونه ، واعتذرت اليه .

ثم قام فدخل داره وتبعه الأمراء والوزراء وأرباب الدولة ، ودخلت مع الوزير ، فوجدناه قاعدا على سرير ملكه وثيابه عليه لم يبدلها ، وفي يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلها ، لأن مغاصات الجوهر تحت حكمه . فجلس أحد الأمراء الى جانبه ، وجلست الى جانب ذلك الأمير ، وسألني عن حالي ومقدمي وعمن لقيته من الملوك ، فأخبرته بذلك .

وحضر الطعام فأكل الحاضرون ولم يأكل معهم . ثم قام فودعته وانصرفت .

وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه أنه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة للنزهة في هرمز القديمة وبساتينها ، وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ ، كما قدمناه ، فخالف عليه أخوه نظام الدين ودعا لنفسه ، وبايعه أهل الجزيرة وبايعته العساكر ، فخاف قطب الدين على نفسه ، وركب البحر الى مدينة قلهات التي تقدم ذكرها ، وهي من جملة بلاده ، فأقام بها شهورا ، وجهز المراكب وأتى الجزيرة ، فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه ، وعاد الى قلهات ، وفعل ذلك مرارا ، فلم تكن له حيلة الا أن راسل بعض نساء أخيه فسمته ومات . وأتى هو الى الجزيرة فدخلها ، وفر ابنا أخيه بالخزائن والأموال والعساكر الى جزيرة قيس ، حيث مغاص الجوهر ، وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ، ويغيرون على بلاده البحرية حتى تخرب معظمها .

ثم سافرنا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال . فلما جزنا البحر أكترينا دواب من التركان ، وهم سكان تلك البلاد ، ولا يسافر فيها الا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق .

وفيها صحراء مسيرة أربع ، يقطع بها الطريق لصوص الأعراب .

وتهب فيها ريح السموم في شهري تموز وحزيران ، فمن صادفته فيها قتلته . ولقد ذكر لي أن الرجل اذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الأعضاء . وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح .

وكنا نسافر فيها بالليل ، فاذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الأشجار من أم غيلان ، ونرحل بعد العصر الى طلوع الشمس .

وفي هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريق بها جمال اللك الشهير الاسم هنالك .

حكاية فقراء مدينة لار

كان جمال اللك من أهل سجستان أعجمي الأصل . و «اللك» (بضم اللام) معناه الأقطع ، وكانت يده قطعت في بعض حروبه ، وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الأعراب والأعاجم يقطع بهم الطرق . وكان يبني الزوايا ويطعم الوارد والصادر من الأموال التي يسلبها من الناس . ويقال أنه كان يدعو ألا يسلط الا على من لا يزكي ماله . وأقام على ذلك دهرا .

وكان يغير هو وفرسانه ويسلكون براري لا يعرفها سواهم ، ويدفنون بها قرب الماء وروايا ، فاذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ، ويرجع العسكر عنهم خوفا من الهلاك . وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ، ثم تاب وتعبد حتى مات . وقبره يزار ببلده .

وسلكنا هذه الصحراء الى أن وصلنا الى كوراستان ، وهو بلد صغير فيه الأنهار والبساتين ، وهو شديد الحر .

ثم سرنا منه ثلاثة أيام في صحراء مثل التي تقدمت ووصلنا الى مدينة

لار ، مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ، ولها أسواق حسان .

ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبي دلف محمد ، وهو الذي قصدنا زيارته بخنج بال . وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ومعه جماعة من الفقراء .

ومن عاداتهم أنهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كل يوم ، ثم يطوفون على دور المدينة فيعطون من كل دار الرغيف والرغيفين ، فيطعمون منها الوارد والصادر .

وأهل الدور قد ألفوا ذلك ، فهم يجعلونه في جملة قوتهم ، ويعدونه لهم اعانة على اطعام الطعام .

وفي كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصلحاؤها ، ويأتي كل منهم بما تيسر له من الدراهم ، فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ، ويبيتون في عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة ، وينصرفون بعد صلاة الصبح .

ذكر سلطان لار

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين ، تركماني الأصل ، بعث الينا بضيافة ، ولم نجتمع به ولا رأيناه .

مدينة خنج بال

ثم سافرنا الى مدينة خنج بال ، وبها سكنى الشيخ أبي دلف الذي قصدنا زيارته ، وبزاويته نزلنا . ولما دخلت الزاوية رأيته قاعدا بناحية منها على التراب ، وعليه جبة صوف خضراء بالية ، وعلى رأسه عمامة صوف سوداء . فسلمت عليه فأحسن الرد ، وسألني عن مقدمي وبلادي

وأنزلني ، وكان يبعث الي الطعام والفاكهة مع ولد لـه من الصـالحين كثير الخشوع والتواضع ، صائم الدهر كثير الصلاة .

ولهذا الشيخ أبي دلف شأن عجيب وأمر غريب ، فان نفقتـه في هـذه الزاوية عظيمـة ، وهو يعطي العطـاء الجزيل ، ويكسو النـاس ويركبهم الخيل ، ويحسن الى كل وارد وصـادر ، ولم أر في تلـك البـلاد مثلـه ، ولا يعلم له جهـة الا مـا يصلـه من الاخوان والأصحـاب ، حتى زعم كثير من الناس أنه ينفق من الكون .

وفي زاويته المـذكورة قبر الشيخ الولي الصـالح القطب دانيـال ، ولـه اسم بتلـك البلاد شهير ، وشـأن في الولايـة كبير ، وعلى قبره قبـة عظيمـة بناها السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه .

وأقمت عند الشيخ أبي دلف يوما واحـدا لاستعجـال الرفقـة التي كنت في صحبتها .

وسمعت أن بالمدينة(خنج بال المذكورة) زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبـدين ، فرحت اليهـا بـالعشى ، وسلمت على شيخهم وعليهم ، ورأيت جمـاعـة مبـاركـة ، قـد أثرت فيهم العبـادة ، فهم صفر الألـوان ، نحـاف الجسوم ، كثيرو البكاء ، غزيرو الدموع .

وعند وصولي اليهم أتوا بالطعام فقال كبيرهم : ادع لي ولـدي محمـدا ، وكان معتزلا في بعض نواحي الزاوية ، فجاء الينـا الولـد وهو كأنمـا خرج من قبر ، مما نهكته العبادة ، فسلم وقعد ، فقال لـه أبوه : يـابني ، شـارك هؤلاء الواردين في الأكل تنل من بركاتهم . وكان صائما فأفطر معنـا . وهم شافعية المذهب . فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا .

مدينـــة قيـــس

ثم سافرنا منهـا الى مـدينـة قيس ، وتسمى أيضـا بسيراف ، وهي على

ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس ، مدينة لها انفساح وسعة ، طيبة البقعة ، في دورها بساتين عجيبة ، فيها الرياحين والأشجار الناضرة ، وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها .

وهم عجم من الفرس أشراف ، وفيهم طائفة من عرب بني سفاف ، وهم الذين يغوصون على الجوهر .

ذكر مغاص الجوهر

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين ، في خور راكد مثل الوادي العظيم . فاذا كان شهر أبريل وشهر مايو تأتي إليه القوارب الكثيرة ، فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ، ويجعل الغواص على وجهه ـ مهما أراد أن يغوص ـ شيئا يكسوه من عظم الغيلم : وهي السلحفاة ، ويصنع من هذا العظم أيضا شكلا شبه المقراض يشده على أنفه ، ثم يربط حبلا في وسطه ويغوص .

ويتفاوتون في الصبر في الماء : فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك . فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتا في الرمل ، فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك ، ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه . فاذا ضاق نفسه حرك الحبل ، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل ، فيرفعه الى القارب ، فتؤخذ منه المخلاة .

ويفتح الصدف ، فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة ، فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر ، فيجمع جميعها من صغير وكبير ، فيأخذ السلطان خمسه ، والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب ، وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين ، فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه .

مدينــة البحريـن

ثم سافرنا من سيراف الى مدينة البحرين ، وهي مدينة كبيرة حسنة ، ذات بساتين وأشجار وأنهار ، وماؤها قريب المؤنة . يحفر عليه بالأيدي فيوجد . وبها حدائق النخل والرمان والأترج ، ويزرع بها القطن .

وهي شديدة الحر ، كثيرة الرمال ، وربما غلب الرمل على بعض منازلها .

وكان فيا بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع ، فلا يوصل من عمان اليها الا في البحر .

وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بكسير وهو في غربيها ، ويسمى الآخر بعوير وهو في شرقيها ، وبها ضرب المثل فقيل ، كسير وعوير ، وكل غير خير .

ثم سافرنا الى مدينة القطيف ، وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير ، يسكنها طوائف العرب ، وهم رافضية غلاة ، يظهرون الرفض جهارا ، لا يتقون أحدا ، ويقول مؤذنهم في أذانه بعد الشهادتين : أشهد أن عليا ولي الله ، ويزيد بعد الحيعلتين ÷ حي على خير العمل . ويزيد بعد التكبير الأخير : محمد وعلي خير البشر ، من خالفهما فقد كفر .

مدينــة هجــر

ثم سافرنا منها الى مدينة هجر ، وتسمى الآن بالحسا ، وهي التي يضرب المثل بها فيقال : كجالب التمر الى هجر . وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ، ومنه يعلفون دوابهم . وأهلها عرب ، وأكثرهم من قبيلة عبد القيس ابن أفصى .

مدينة اليمامة (حجر)

ثم سافرنا منها الى مدينة اليمامة ، وتسمى أيضا بحجر . وهي مدينة حسنة خصبة ، ذات أنهار وأشجار يسكنها طوائف من العرب ، أكثرهم من بني حنيفة ، وهي بلدهم قديما ، وأميرهم طفيل بن غانم .

ثم سافرت منها في صحبة هذا الأمير برسم الحج ، وذلك في سنة ثنتين وثلاثين .

العودة الى الحجاز

فوصلت الى مكة ، شرفها الله تعالى .

وحج في تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر ، رحمه الله ، وجملة من أمرائه ، وهي آخر حجة حجها ، وأجزل الاحسان لأهل الحرمين الشرفين وللمجاورين .

وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذي يذكر أنه ولده ، وقتل أيضا كبير أمرائه بكتمور الساقي .

حكاية مقتل أمير احمد

ذكر أن الملك الناصر وهب لبكتمور الساقي جارية ، فلما أراد الدنو منها قالت له : اني حامل من الملك الناصر ، فاعتزلها .

وولدت ولدا سماه بأمير أحمد ، ونشأ في حجره ، فظهرت نجابته ، واشتهر بابن الملك الناصر .

فلما كان في هذه الحجة تعاهدا على الفتك بالملك الناصر ، وأن يتولى أمير أحمد الملك ، وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والأموال .

فنما الخبر الى الملك الناصر ، فبعث الى أمير أحمد في يوم شديد الحر ،

فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب ، فشرب الملك الناصر قدحا ، وناول أمير أحمد قدحا ثانيا فيه السم ، فشربه . وأمر بالرحيل في تلك الساعة ليشغل الوقت . فرحل الناس .

ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد ، فاكترث بكتمور لموته ، وقطع أثوابه ، وامتنع من الطعام والشراب . وبلغ خبره الى الملك الناصر فأتاه بنفسه ولاطفه وسلاه ، وأخذ قدحا فيه سم فناوله اياه وقال له : بحياتي عليك ، الا شربت فبردت نار قلبك !

فشربه ومات من حينه .

ووجد عنده خلع السلطنة والأموال ، فتحقق ما نسب اليه من الفتك بالملك الناصر .

ولما انقضى الحج توجهت الى جدة ، برسم ركوب البحر الى اليمن والهند ، فلم يقض لي ذلك ، ولا تأتى لي رفيق .

وأقمت بجدة نحو أربعين يوما ، وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسي ، يروم السفر الى القصير من عمالة قوص ، فصعدت اليه لأنظر حاله ، فلم يرضني ولا طابت نفسي بالسفر فيه . وكان ذلك لطفا من الله تعالى ، فانه سافر ، فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له رأس أبي محمد ، فخرج صاحبه وبعض التجار في العشاري بعد جهد عظيم ، وأشرفوا على الهلاك ، وهلك بعضهم ، وغرق سائر الناس ، وكان فيه نحو سبعين من الحجاج .

ثم ركبت البحر بعد ذلك في «صنبوق» برسم عيذاب ، فردتنا الريح الى مرسى يعرف برأس دواير ، وسافرنا منه في البر مع البجاة ، فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان ، فيها عرب جهينة وبني كاهل ، وطاعتهم للبجاة .

ووردنا ماء يعرف بمفروز ، وماء يعرف بالجديد . ونفد زادنا

فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناما ، وتزودنا لحومها .

ورأيت بهذه الفلاة صبيا من العرب كلمني باللسان العربي ، وأخبرني أن البجاة أسروه ، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاما ، انما يقتات بلبن الابل .

ونفد منا بعد ذلك اللحم الذي اشتريناه ، ولم يبق لنا زاد ، وكان عندي نحو حمل من التمر الصيحاني والبرني برسم الهدية لأصحابي ، ففرقته على الرفقة ، وتزودناه ثلاثا .

وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير ، وصلنا الى عيذاب ، وكان قد تقدم اليها بعض الرفقة ، فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما ، واكترينا الجمال ، وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ، ووردنا ماء يعرف بالجنيب (ولعله الخبيب) وحللنا بحميثرا ، حيث قبر ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي .

وزرناه ثانية ، وبتنا في جواره .

العودة الى صعيد مصر

ثم وصلنا الى قرية العطواني ، وهي على ضفة النيل مقابلة لمدينة ادفو من الصعيد الأعلى .

واجتزنا النيل الى مدينة اسنا ، ثم الى مدينة أرمنت ، ثم الى الأقصر ، وزرنا الشيخ أبا الحجاج الأقصري ثانية . ثم الى مدينة قوص ، ثم الى مدينة قنا ، وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوي ثانية ، ثم الى مدينة هو ، ثم الى مدينة أخميم ، ثم الى مدينة أسيوط ، ثم الى مدينة منفلوط ، ثم الى مدينة منلوى ، ثم الى مدينة الأشمونين ، ثم الى مدينة منية ابن الخصيب ، ثم الى مدينة البهنسة ، ثم الى مدينة بوش ، ثم الى مدينة منية القائد ـ وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد ـ ثم الى مصر ، وأقمت بها أياما .

وسافرت على طريق بلبيس الى الشام ، ورافقني الحاج عبد الله بن أبي بكر بن الفرحان التوزري ، ولم يزل في صحبتي سنين الى أن خرجنا من بلاد الهند ، فتوفي بسندابور ، وسنذكر ذلك .

ووصلنا الى مدينة غزة ، ثم الى مدينة الخليل عليه السلام ، وتكررت لنا زيارته ، ثم الى بيت المقدس ، ثم الى مدينة الرملة ، ثم الى مدينة عكا ، ثم الى مدينة طرابلس ، ثم الى مدينة جبلة ، وزرنا ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه ثانية ، ثم الى مدينة اللاذقية . وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد كلها .

السفر الى بر الترك

ومن اللاذقية ركبنا البحر في قرقورة كبيرة ، وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم . وانما نسبت الى الروم لأنها كانت بلادهم في القديم ، ومنها الروم الأقدمون واليونانية ، ثم استفتحها المسلمون . وبها الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التركمان .

وسرنا في البحر عشرا بريح طيبة ، وأكرمنا النصراني ، ولم يأخذ منا نولا .

مدينة العلايا

وفي العاشر وصلنا الى مدينة العلايا ، وهي أول بلاد الروم .

وهذا الاقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا ، وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن في البلاد : فأهله أجمل الناس صورا ، وأنظفهم ملابس ، وأطيبهم مطاعم ، وأكثر خلق الله شفقة ، ولذلك يقال : البركة في الشام والشفقة في الروم ، وإنما عني به أهل هذه البلاد .

وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو دارا ، يتفقد أحوالنا جيراننا من

الرجال والنساء وهن لا يحتجبن ، فاذا سافرنا عنهم ودعونا ، كأنهم أقاربنا وأهلنا ، وترى النساء باكيات لفراقنا متأسفات .

ومن عادتهم بتلك البلاد أن يخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة ، يعدون فيه ما يقوتهم سائرها ، فكان رجالهم يأتون الينا بالخبز الحار في يوم خبزه ومعه الادام الطيب ، اطرافها لنا بذلك ، ويقولون لنا : ان النساء بعثن هذا اليكم ، وهن يطلبن منكم الدعاء .

وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه ، مقيمون على السنة ، لا قدري فيهم ولا رافضي ، ولا معتزلي ولا خارجي ، ولا مبتدع . وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها ، الا أنهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك .

ومدينة العلايا التي ذكرناها كبيرة ، على ساحل البحر ، يسكنها التركمان ، وينزلها تجار مصر واسكندرية والشام . وهي كثيرة الخشب ، ومنها يحمل الى اسكندرية ودمياط ويحمل منها الى سائر بلاد مصر ، ولها قلعة بأعلاها ، عجيبة منيعة ، بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومي .

ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الأرزنجاني ، وصعد معي الى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها ، وأضافني وأكرمني .

وأضافني أيضا بها شمس الدين بن الرجيحاني ، الذي توفي أبوه علاء الدين بـ «مالي» من بلاد السودان .

ذكر سلطان العلايا

وفي يوم السبت ركب معي القاضي جلال الدين ، وتوجهنا الى لقاء ملك العلايا ، وهو يوسف بك (ومعنى بك : الملك) ، ابن قرمان ، ومسكنه على عشرة أميال من المدينة . فوجدناه قاعدا على الساحل وحده

فوق رابية هنالك ، والأمراء والوزراء أسفل منه ، والأجناد عن يمينه ويساره ، وهو مخضوب الشعر بالسواد ، فسلمت عليه . وسألني عن مقدمي ، فأخبرته عما سأل ، وانصرفت عنه ، وبعث الي احسانا .

مدينة أنطالية

وسافرت من هنالك الى مدينة أنطالية ، وأما التي بالشام فهي أنطاكية على وزنها ، الا أن الكاف عوض عن اللام . وهي من أحسن المدن ، متناهية في اتساع الساحة والضخامة ، أجمل ما يرى من البلاد ، وأكثره عمارة ، وأحسنه ترتيبا .

وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الأخرى : فتجار النصارى ماكثون منها بالموضع المعروف بالميناء ، وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلا ، وعند صلاة الجمعة .

والروم الذين كانوا أهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به ، وعليهم أيضا سور .

واليهود في موضع آخر وعليهم سور .

والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضا سور يحيط بها ، ويفرق بينها وبين ما ذكرناه من الفرق .

وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى ، وبها مسجد جامع ، ومدرسة وحمامات كثيرة ، وأسواق ضخمة ، مرتبة بأبدع ترتيب ، وعليها سور عظيم يحيط بها ، وبجميع المواضع التي ذكرناها .

وفيها البساتين الكثيرة ، والفواكه الطيبة ، والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين ، وفي نواته لوز حلو . وهو ييبس ، ويحمل الى ديار مصر ، وهو بها مستظرف .

وفيها عيون الماء الطيب العذب ، الشديد البرودة في أيام الصيف .

نزلنا من هذه المدينة بمدرستها ، وشيخها شهاب الدين الحموى .

ومن عاداتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالأصوات الحسان بعد العصر من كل يوم في المسجد الجامع ، وفي المدرسة أيضا ، سورة الفتح ، وسورة الملك ، وسورة عم .

ذكر الأخية الفتيان

واحد الأخية «أخي» على لفظ الأخ اذا أضافه المتكلم الى نفسه . وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، في كل بلد ومدينة وقرية . ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس ، وأسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة ، وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر .

و «الأخي» عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه عل أنفسهم .... وتلك هي الفتوة أيضا . ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معايشهم ، ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام ، الى غير ذلك مما ينفق في الزاوية .

فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم ، فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم .

ويسمون بالفتيان ، ويسمى مقدمهم ، كما ذكرنا ، «الأخى» ، ولم أر في الدنيا أجمل أفعالا منهم .

ويشبههم في أفعالهم أهل شيراز وأصفهان ، الا أن هؤلاء أحب في

الوارد والصادر ، وأعظم اكراما له ، وشفقة عليه .

وفي الثاني من يوم وصولنا الى هذه المدينة ، أتى أحد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموى ، وتكلم معه باللسان التركي ، ولم أكن يومئذ أفهمه . وكان عليه أثواب خلقة ، وعلى رأسه قلنسوة لبد ، فقال لي الشيخ : أتعلم ما يقول هذا الرجل ؟

فقلت : لا أعلم ما قال .

فقال لي : انه يدعوك الى ضيافته أنت وأصحابك .

فعجبت منه ، وقلت له : نعم .

فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ، ولا نريد أن نكلفه .

فضحك الشيخ وقال لي : هذا أحد شيوخ الفتيان (الأخية) ، وهو من الخرازين ، وفيه كرم نفس ، وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل .

وصف الضيافة

فلما صليت المغرب عاد الينا ذلك الرجل ، وذهبنا معه الى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة ، مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقي ، وفي المجلس خمسة من «البياسيس» ، والبيسوس ، شبه المنارة من النحاس ، وله أرجل ثلاث ، وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس ، وفي وسطه أنبوب للفتيلة ، ويملأ من الشحم المذاب ، والى جانبه آنية نحاس ملأى بالشحم ، وفيها مقراض لاصلاح الفتيلة ، وأحدهم موكل بها ، ويسمى عندهم الجراجي (الجراغجي) .

وقد أصطف في المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم الأقبية وفي

أرجلهم الأخفاف ، وكل واحد منهم متحزم ، وعلى وسطه سكين في طول ذراعين ، وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض أصبعين .

فاذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني وسواه ، حسنة المنظر . وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين .

ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير ، والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا في الغناء والرقص . فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم . وانصرفنا عنهم آخر الليل ، وتركناهم بزاويتهم .

ذكر سلطان أنطالية

وسلطانها خضر بك بن يونس بك . وجدناه عند وصولنا اليها عليلا ، فدخلنا عليه بداره ، وهو في فراش المرض ، فكلمنا بألطف كلام وأحسنه ، وودعناه ، وبعث الينا باحسان .

وسافرنا الى بلدة بردور ، وهي بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار ، ولها قلعة في رأس جبل شاهق ، نزلنا بدار خطيبها .

واجتمعت «الأخية» وأرادوا نزولنا عندهم فأبى عليهم الخطيب ، فصنعوا لنا ضيافة في بستان لأحدهم ، وذهبوا بنا اليها . فكان من العجائب اظهارهم السرور بنا ، والاستبشار والفرح ، وهم لا يعرفون لساننا ، ونحن لا نعرف لسانهم ولا ترجمان فيما بيننا .

وأقمنا عندهم يوما وانصرفنا .

مدينة سبرتا

ثم سافرنا من هذه البلدة الى بلدة سبرتا ، وهي بلدة حسنة العمارة

والأسواق ، كثيرة البساتين والأنهار ، لها قلعة في جبل شامخ ، وصلنا اليها بالعشي ، ونزلنا عند قاضيها .

مدينة أكريدور

وسافرنا منها الى مدينة أكريدور ، مدينة عظيمة كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، ذات أنهار وأشجار وبساتين ، ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها يومين الى أقشهر، وبقشهر، وغيرهما من البلاد والقرى.

ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الأعظم ، بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين . قرأ بالديار المصرية والشام ، وسكن بالعراق . وهو فصيح اللسان ، حسن البيان ، أطروفة من طرف الزمان . أكرمنا غاية الاكرام ، وقام بحقنا أحسن قيام .

ذكر سلطان أكريدور

وسلطانها أبو اسحاق بك بن الدندار بك ، من كبار سلاطين تلك البلاد . سكن ديار مصر أيام أبيه ، وحج ، وله سير حسنة .

ومن عادته أنه يأتي كل يوم الى صلاة العصر بالمسجد الجامع ، فاذا قضيت صلاة العصر استند الى جدار القبلة ، وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية ، فقرأوا سورة «الفتح والملك والنبأ» بأصوات حسان ، فعالة في النفوس ، تخشع لها القلوب ، وتقشعر الجلود ، وتدمع العيون ، ثم ينصرف الى داره .

وأظلنا عنده شهر رمضان ، فكان يقعد في كل ليلة منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير ، ويستند الى مخدة كبيرة ، ويجلس الفقيه مصلح الدين الى جانبه ، وأجلس الى جانب الفقيه ، ويلينا أرباب دولته ، وأمراء حضرته .

ثم يـؤتى بـالطعـام ، فيكـون أول مـا يفطر عليـه ثريـد في صحفـة صغيرة ، عليه العدس ، مسقي بالسمن والسكر . ويقدمون الثريـد تبركا ، ويقولون : ان النبي ﷺ فضله على سائر الطعام ، فنحن نبدأ به لتفضيل النبي له .

ثم يؤتى بسائر الأطعمة ، وهكذا فعلهم في جميع ليالي رمضان .

وتـوفي في بعض تلـك الأيـام ولـد السلطـان ، فلم يـزيـدوا على بكاء الرحمة كما يفعله أهل مصر والشام ، خلافا لما قـدمنـاه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم .

فلمـا دفن أقـام السلطـان والطلبـة ثلاثـة أيـام يخرجون الى قبره بعـد صلاة الصبح .

وفي ثاني يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآني السلطان مـاشيـا على رجلي ، فبعث لي بفرس واعتـذر . فلمـا وصلت المـدرسـة بعثت الفرس فرده ، وقال : انما أعطيته عطية لا عارية . وبعث الي بكسوة ودارهم .

مدينـة قـل حصـار

فانصرفنـا الى مـدينـة قل حصـار ، مـدينـة صغيرة بهـا الميـاه من كل جانب ، قد نبت فيهـا القصب ، فلا طريق لهـا الا طريق كالجسر مهيء ما بين القصب والمياه ، لا يسع الا فارسا واحدا .

والمـدينـة على تل في وسـط الميـاه ، منيعـة لا يقـدر عليهـا . ونزلنـا بزاوية أحد الفتيان (الأخية) بها .

ذكر سلطان قل حصار

وسلطانها محمد جلبي (وجلبي تفسيره بلسـان الروم : سيدي) ، وهو أخو السلطان أبي اسحاق ملك أكريدور . ولما وصلنا الى مـدينتـه كان غـائبـا

عنها ، فأقمنا بها أياما ، ثم قدم فأكرمنا وأركبنا وزودنا .

وانصرفنا على طريق قرا أغاج (وقرا تفسيره أسود ، وأغاج تفسيره الخشب) ، وهي صحراء خضرة يسكنها التركمان .

وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا مدينة لاذق ، بسبب أن هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجرميان ، يذكر أنهم من ذرية يزيد بن معاوية ، ولهم مدينة يقال لها كوتاهية ، فعصمنا الله منهم .

مدينـــة لاذق

ووصلنا الى مدينة لاذق ، وتسمى أيضا «دون غزلة» ، وتفسيره بلد الخنازير . وهي من أبدع المدن وأضخمها ، وفيها سبعة من المساجد لاقامة الجمعة . ولها البساتين الرائقة ، والأنهار المطردة ، والعيون النابعة ، وأسواقها حسان . وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثل لها ، تطول أعمارها لصحة قطنها ، وقوة غزلها ، وهذه الثياب معروفة بالنسبة اليها .

وأكثر الصناع بها نساء الروم ، وبها من الروم كثير تحت الذمة ، وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها . وعلامة الروم بها القلانس الطوال ، منها الحمر والبيض . ونساء الروم لهن عمائم كبار .

وأهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر، بل كذلك أهل هذا الاقليم كله.

وهم يشترون الجواري الروميات الحسان ، ويتركونهن للفساد ، وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه اليه .

وسمعت هنالك أن الجواري يدخلن الحمام مع الرجال ، فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه . وذكر لي أن القاضي بها له جوار على هذه الصورة .

وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها ، فنزل الينا رجال من حوانيتهم وأخذوا بأعنة خيلنا ، ونازعهم في ذلك رجال آخرون . وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ، ونحن لا نعلم ما يقولون . فخفنا منهم ، وظننا أنهم الجرميان الذين يقطعون الطرق ، وأن تلك مدينتهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا .

ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العربي ، فسألته عن مرادهم منا ، فقال : إنهم من الفتيان ، وان الذين سبقوا الينا أولا هم أصحاب الفتى (أخى) سنان ، والآخرون أصحاب الفتى (أخى) طومان . وكل طائفة ترغب في أن يكون نزولكم عندهم ، فعجبنا من كرم نفوسهم .

ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة : فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا ، فوقعت قرعة «أخى» سنان وبلغه ذلك . فأتى الينا في جماعة من أصحابه فسلموا علينا ، ونزلنا بزاوية له ، وأتى بأنواع الطعام ، ثم ذهب بنا الى الحمام ودخل معنا ، وتولى خدمتي بنفسه ، وتولى أصحابه خدمة أصحابي ، يخدم الثلاثة والأربعة الواحد منهم .

ثم خرجنا من الحمام فأتوا بطعام عظيم ، وحلواء وفاكهة كثيرة .

وبعد الفراغ من الأكل قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ، ثم أخذوا في السماع والرقص .

وأعلموا السلطان بخبرنا . فلما كان من الغد ، بعث في طلبنا بالعشي ، فتوجهنا اليه وإلى ولده كما نذكره .

ثم عدنا الى الزاوية ، فألفينا «الأخى» طومان وأصحابه في انتظارنا ، فذهبوا بنا الى زاويتهم ، ففعلوا في الطعام والحمام مثل أصحابهم ، وزادوا عليهم أن صبوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام . ثم مضوا بنا الى الزاوية ، ففعلوا أيضا من الاحتفال في الأطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الأكل ، ثم السماع والرقص ، كمثل ما فعله

أصحابهم أو أحسن . وأقمنا عندهم بالزاوية أياما .

ذكر سلطان لاذق

وهو السلطان ينتج بك ، وهو من كبار سلاطين بلاد الروم .

ولما نزلنا بزاوية «أخى» سنان كما قدمناه ، بعث الينا الواعظ المذكر العالم علاء الدين القصطموني ، واستصحب معه خيلا بعددنا ، وذلك في شهر رمضان ، فتوجهنا اليه وسلمنا عليه .

ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ، ولين الكلام ، وقلة العطاء . فصلينا معه المغرب ، وحضر طعامه فأفطرنا عنده وانصرفنا ، وبعث الينا بدراهم . ثم بعث الينا ولده مراد بك ، وكان ساكنا في بستان خارج المدينة ، وذلك في ابان الفاكهة ، وبعث أيضا خيلا على عددنا كما فعله أبوه ، فأتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة . وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه . ثم انصرفنا غدوة .

وأظلنا عيد الفطر بهذه البلدة فخرجنا الى المصلى ، وخرج السلطان في عساكره والفتيان (الأخية) ، كلهم بالأسلحة .

ولأهل كل صناعة الأعلام والبوقات والطبول والأنفار . وبعضهم يفاخر بعضا ويباهيه في حسن الهيئة ، وكمال الشكة . ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز ، فيذبحون البهائم بالمقابر ، ويتصدقون بها وبالخبز . ويكون خروجهم أولا الى المقابر ، ومنها الى المصلى .

ولما صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان الى منزله ، وحضر الطعام ، فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سماط على حدة ، وجعل للفقراء والمساكين سماط على حدة ، ولا يرد على بابه في ذلك اليوم فقير ولا غني .

وأقمنا بهذه البلدة مدة ، بسبب مخاوف الطريق . ثم تهيأت رفقة فسافرنا معهم يوما وبعض ليلة ، ووصلنا الى حصن طواس ، وهو حصن كبير . ويذكر أن صهيبا صاحب رسول الله ﷺ ورضي الله عنه ، من أهل هذا الحصن . وكان مبيتنا بخارجه .

ووصلنا بالغد الى بابه ، فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا ، فأخبرناهم ، وحينئذ خرج أمير الحصن الياس بك في عسكره ، ليختبر نواحي الحصن والطريق ، خوفا من اغارة السراق على الماشية ، فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم . وهكذا فعلهم أبدا .

ونزلنا من هذا الحصن بربضة في زاوية رجل فقير ، وبعث الينا أمير الحصن بضيافة وزاد .

وسافرنا منه الى مغلة ، ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها ، وكان من الكرماء الفضلاء ، يكثر الدخول علينا بزاويته ، ولا يدخل الا بطعام أو بفاكهة أو حلواء .

ولقينا بهذه البلدة ابراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس ، وسنذكره ، فأكرمنا وكسانا .

مدينة ميلاس

ثم سافرنا الى مدينة ميلاس ، وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها ، كثيرة الفواكه والبساتين والمياه ، نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان (الأخية) ، ففعل أضعاف ما فعله من قبله من الكرامة والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الأفعال ، وجميل الأعمال .

ولقينا بمدينة ميلاس رجلا صالحا معمرا يسمى بأبي الشتري ، ذكروا أن عمره يزيد على مائة وخمسين سنة ، وله قوة وحركة ، وعقله ثابت ، وذهنه جيد ، دعا لنا وحصلت لنا بركته .

ذكر سلطان ميلاس

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أرخان بك ابن المنتشا ، وهو من خيار الملوك ، حسن الصورة والسيرة ، جلساؤه الفقهاء ، وهم معظمون لديه ، وببابه منهم جماعة ، منهم الفقيه الخوارزمي ، عارف بالفنون فاضل .

وكان السلطان في أيام لقائي له واجدا عليه بسبب رحلته الى مدينة أياسلوق ووصوله الى سلطانها ، وقبول لما أعطاه . فسألني هذا الفقيه ان أتكلم عند الملك في شأنه بما يذهب ما في خاطره ، فأثنيت عليه عند السلطان ، وذكرت ما علمته من علمه وفضله ، ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه . وأحسن الينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا .

وسكناه في مدينة برجين ، وهي قريبة من ميلاس ، بينهما ميلان . وهي جديدة على تل هنالك ، بها العمارات الحسان والمساجد ، وكان قد بني بها مسجدا جامعا لم يتم بناؤه بعد . وبهذه البلدة لقيناه ، ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) علي .

مدينة قونية

ثم انصرفنا بعد ما أحسن الينا ، كما قدمناه ، الى مدينة قونية .... مدينة عظيمة حسنة العمارة ، كثيرة الماء والأنهار والبساتين والفواكه ، وبها المشمش المسمى بقمر الدين ، وقدم تقدم ذكره ، ويحمل منه أيضا الى ديار مصر والشام .

وشوارعها متسعة جدا وأسواقها بديعة الترتيب ، وأهل كل صناعة على حدة . ويقال أن هذه المدينة من بناء الاسكندر . وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان ، وسنذكره . وقد تغلب عليها صاحب العراق في بعض الأوقات لقربها من بلاده التي بهذا الإقليم .

نزلنا منها بزاوية قاضيها ، ويرف بابن قلم شاه ، وهو من الفتيان ، وزاويته من أعظم الزوايا ، وله طائفة كبيرة من التلاميذ ، ولهم في الفتوة سند يتصل الى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام . ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة .

وكان صنيع هذا القاضي في اكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله وأجمل ، وبعث ولده عوضا عنه لدخول الحمام معنا .

وبهذه المدينة تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا ، وكان كبير القدر ، وبأرض الروم طائفة ينتمون اليه ويعرفون باسمه ، فيقال لهم الجلالية ، كما تعرف الأحمدية بالعراق ، والحيدرية بخراسان ، وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارده والصادر .

حكاية الشيخ الشاعر

يذكر أنه كان في ابتداء أمره فقيها مدرسا ، يجتمع اليه الطلبة بمدرسته بقونية . فدخل يوما الى المدرسة رجل يبيع الحلواء ، وعلى رأسه طبق منها ، وهي مقطعة قطعا ، يبيع القطعة منها بفلس . فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ : هات طبقك . فأخذ الحلواني قطعة منه وأعطاها الشيخ ، فأخذها بيده وأكلها ، فخرج الحلواني ولم يطعم أحدا سوى الشيخ . فخرج الشيخ في اتباعه وترك التدريس .

فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم اياه ، فخرجوا في طلبه فلم يعرفوا له مستقرا .

ثم انه عاد اليهم بعد أعوام ، وصار لا ينطق الا بالشعر الفارسي المتعلق الذي لا يفهم . فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر ، وألفوا منه كتابا سموه «المثنوي» .

وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ، ويعتبرون كلامه ،

ويعلمونه ، ويقرأونه بزواياهم في ليالي الجمعات .

وفي هذه المدينة أيضا قبر الفقيه أحمد الذي يذكر أنه كان معلم جلال الدين المذكور.

مدينة اللارندة

ثم سافرنا الى مدينة اللارندة . وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين .

ذكر سلطان اللارندة

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان ، وكانت قبله لشقيقه موسى ، فنزل عنها للملك الناصر ، وعوضه عنها بعوض ، وبعث اليها أميرا وعسكرا .

ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين ، وبنى بها دار مملكته ، واستقام أمره بها . ولقيت هذا السلطان خارج المدينة وهو عائد من تصيده ، فنزلت له عن دابتي ، فنزل هو عن دابته ، وسلمت عليه ، وأقبل علي .

ومن عادة ملوك هذه البلاد أنه اذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله ، وزادوا في اكرامه . وان سلم عليهم راكبا ساءهم ذلك ولم يرضهم ، ويكون سببا لحرمان الوارد . وقد جرى لي ذلك مع بعضهم ، وسأذكره .

ولما سلمت عليه وركب وركبت سألني عن حالي وعن مقدمي ، ودخلت معه المدينة ، فأمر بانزالي أحسن منزل . وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلواء في طيافير الفضة ، والشمع ، وكسا وأركب وأحسن . ولم يطل مقامنا عنده .

مدينــة أقصـرا

وانصرفنـا الى مـدينـة أقصرا ، وهي من أحسن بـلاد الروم وأتقنهـا ، تحف بها العيون الجارية ، والبساتين من كل ناحية . ويشق المدينة ثلاثـة أنهار ، ويجري الماء بدورها ، وفيهـا الأشجـار ودوالي العنب ، ويـداخلهـا بساتين كثيرة .

وتصنع بها البسط المنسوبة اليها من صوف الغنم ، لا مثيل لها في بلـد من البلاد ، ومنهـا تحمـل الى الشـام ومصر والعراق والهنـد والصين وبـلاد الأتراك .

وهذه المدينة في طاعـة ملـك العراق . ونزلنـا منهـا بزاويـة الشريف حسين النائب بها عن الأمير أرتنا ، وأرتنا : هو النـائب عن ملـك العراق فيا تغلب عليه من بلاد الروم .

وهـذا الشريف من الفتيـان ، ولـه طـائفـة كثيرة ، وأكرمنـا اكرامـا متناهيا ، وفعل أفعال من تقدمه .

مدينــة نكــدة

ثم رحلنا الى مدينة نكـدة ، وهي من بلاد ملـك العراق .... مـدينـة كبيرة ، كثيرة العمارة ، قد تخرب بعضهـا . ويشقهـا النهر المعروف بـالنهر الأسود ، وهو من كبـار الأنهـار ، عليـه ثلاث قنـاطر ، احـداهـا بـداخل المدينة وثنتان بخارجها ، وعليه النواعير بالـداخل والخـارج ، منهـا تسقى البساتين ، والفواكه بها كثيرة .

ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) جاروق ، وهو الأمير بهـا ، فـأكرمنـا على عادة الفتيان ، وأقمنا بها ثلاثا .

وسرنا منها بعد ذلك الى مـدينـة قيسـاريـة ، وهي من بلاد صـاحب العراق ، وهي احدى المدن العظام بهذا الإقليم ، بهـا عسكر أهل العراق ،

واحدى خواتين الأمير علاء الدين أرتنا . وهي من أكرم الخواتين وأفضلهن ، ولها نسبة من ملك العراق ، وتدعى أغا ، ومعنى أغا الكبير ، وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك ، واسمها طغى خاتون .

دخلنا اليها فقامت لنا ، وأحسنت السلام والكلام ، وأمرت باحضار الطعام ، فأكلنا .

ولما انصرفنا بعثت لنا بفرس مسرج ملجم ، وخلعة ودراهم مع أحد غلمانها ، واعتذرت .

ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى (الأخى) أمير علي ، وهو أمير كبير من كبار «الأخية» بهذه البلاد ، وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها .

وزاويته من أحسن الزوايا فرشا وقناديل ، وطعاما كثيرا واتقانا . والكبراء ، من أصحابه وغيرهم ، يجتمعون كل ليلة عنده ، ويفعلون في اكرام الوارد أضعاف ما يفعله سواهم .

ومن عادات هذه البلاد أنه ما كان منها ليس به سلطان «فالأخى» هو الحاكم به ، وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن اليه على قدره . وترتيبه في أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك .

مدينة سيواس

ثم سافرنا الى مدينة سيواس ، وهي من بلاد ملك العراق ، وأعظم ما له بهذا الإقليم من البلاد ، وبها منزل أمرائه وعماله .... مدينة حسنة العمارة ، واسعة الشوارع ، أسواقها غاصة بالناس ، وبها دار مثل المدرسة ، تسمى دار السيادة ، لا ينزلها الا الشرفاء ، ونقيبهم ساكن بها . وتجرى لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره ، ويزودون اذا انصرفوا .

ولما قدمنا الى هذه المدينة خرج الى لقائنا أصحاب الفتى (أخى) أحمد بجقجي ، وبجق بالتركية : السكين ، (وهذا منسوب اليه ، والجيمان منه معقودان بينهما قاف ، وباؤه مكسورة) . وكانوا جماعة منهم الركبان والمشاة .

ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى (أخى) جلبي ، وهو من كبار «الأخية» ، وطبقته أعلى من طبقة «أخى» بجقجي ، فطلبوا أن ننزل عندهم ، فلم يمكن ذلك لسبق الأولين .

ودخلنا المدينة معهم جميعا وهم يتفاخرون . والذين سبقوا الينا قد فرحوا أشد الفرح بنزولنا عندهم . ثم كان من صنيعهم في الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم .

وأقمنا عندهم ثلاثا في أحسن ضيافة . ثم أتانا القاضي وجماعة من الطلبة ، ومعهم خيل الأمير علاء الدين أرتنا ، نائب ملك العراق ببلاد الروم، فركبنا اليه، واستقبلنا الأمير الى دهليز داره، فسلم علينا ورحب.

وكان فصيح اللسان بالعربية . وسألني عن العراقين وأصبهان وشيراز وكرمان ، وعن السلطان أتابك ، وبلاد الشام ومصر ، وسلاطين التركمان . وكان مراده أن أشكر الكريم منهم وأذم البخيل ، فلم أفعل ذلك ، بل شكرت الجميع ، فسر بذلك مني وشكرني عليه .

ثم أحضر الطعام فأكلنا . وقال : تكونون في ضيافتي . فقال له الفتى (أخى) جلبي : انهم لم ينزلوا بعد بزاويتي ، فليكونوا عندي وضيافتك تصلهم .

فقال : افعل .

فانتقلنا الى زاويته ، وأقمنا بها ستا في ضيافته ، وفي ضيافة الأمير .

ثم بعث الأمير بفرس وكسوة ودراهم ، وكتب لنوابه بالبلاد أن يضيفونا ويكرمونا ويزودونا .

وسافرنا الى مدينة أماصية .... مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار ، وفواكه كثيرة ، وعلى أنهارها النواعير تسقى جنانها ودورها . وهي فسيحة الشوارع والأسواق ، وملكها صاحب العراق .

ويقرب منها بلدة سونسا ، وهي لصاحب العراق أيضا . وبها سكنى أولاد ولي الله تعالى أبي العباس أحمد الرفاعي ، منهم الشيخ عز الدين ، وهوالآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعي ، واخوته الشيخ علي والشيخ ابراهيم والشيخ يحيي ، أولاد الشيخ أحمد كوجك (ومعناه الصغير) ، ابن تاج الدين الرفاعي . ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم .

ثم سافرنا الى مدينة كمش ، وهي من بلاد ملك العراق ، مدينة كبيرة عامرة ، يأتيها التجار من العراق والشام ، وبها معادن الفضة . وعلى مسيرة يومين منها جبال شاهخة وعرة لم أصل اليها .

ونزلنا منها بزاوية «الأخي» مجد الدين ، وأقمنا بها ثلاثا في ضيافته ، وفعل أفعال من قبله . وجاء الينا نائب الأمير أرتنا ، وبعث بضيافة وزاد .

وانصرفنا عن تلك البلاد فوصلنا الى ارزنجان ، وهي من بلاد صاحب العراق ... مدينة كبيرة عامرة ، وأكثر سكانها الأرمن . والمسلمون يتكلمون بها بالتركية . ولها أسواق حسنة الترتيب ، ويصنع بها ثياب حسان تنسب اليها . وفيها معادن النحاس ، ويصنع منها الأواني والبياسيس التي ذكرناها .

ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخي) نظام الدين ، وهي من أحسن الزوايا ، وهو أيضا من خيار الفتيان وكبارهم ، أضافنا أحسن ضيافة .

وانصرفنا الى مدينة أرز الروم ، وهي من بلاد ملك العراق ، كبيرة الساحة . خرب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها .

ويشقها ثلاثة أنهار ، وفي أكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدوالي .

ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) طومان ، وهو كبير السن يقال أنه أناف على مائة وثلاثين سنة . ورأيته متوكئا على عصا ، ثابت الذهن ، مواظبا على الصلاة في أوقاتها ، لم ينكر من نفسه شيئا ، الا أنه لا يستطيع الصوم . وخدمنا بنفسه في الطعام ، وخدمنا أولاده في الحمام ، وأردنا الانصراف عنه ثاني يوم نزولنا ، فشق عليه ذلك وأبى ، وقال : ان فعلتم نقصتم حرمتي ، وان أقل الضيافة ثلاث ، فأقمنا لديه ثلاثا .

مدينة بركى

ثم انصرفنا الى مدينة بركى ، ووصلنا اليها بعد العصر ، فلقينا رجلا من أهلها فسألناه عن زاوية «الأخى» بها ، فقال : أنا أدلكم عليها . فاتبعناه فذهب بنا الى منزل نفسه في بستان له ، فأنزلنا بأعلى سطح بيته ، والأشجار مظللة ، وذلك أوان الحر الشديد ، وأتى الينا بأنواع الفاكهة ، وأحسن في ضيافته ، وعلف دوابنا ، وبتنا عنده تلك الليلة .

وكنا قد علمنا أن بهذه المدينة مدرسا فاضلا يسمى محي الدين ، فأتى بنا ذلك الرجل الذي بتنا عنده (وكان من الطلبة) الى المدرسة ، واذا بالمدرس قد أقبل راكبا على بغلة فارهة ، ومماليكه وخدامه عن جانبيه والطلبة بين يديه ، وعليه ثياب مفرجة حسان مطرزة بالذهب . فسلمنا عليه ، فرحب بنا ، وأحسن السلام والكلام ، وأمسك بيدي وأجلسني الى جانبه .

ثم جاء القاضي عز الدين فرشتي ، (ومعنى فرشتي : الملك) ، لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله ، فقعد عن يمين المدرس ، وأخذ في تدريس العلوم الأصلية والفرعية .

ثم لما فرغ من ذلك أتى دويرة بالمدرسة ، فأمر بفرشها وأنزلني فيها ، وبعث ضيافة حافلة .

ثم وجه الينا بعد المغرب ، فمضيت اليه ، فوجدته في مجلس ببستان له ، وهنالك صهريج ماء ينحدر اليه الماء من خصة رخام أبيض ، يدور بها القاشاني ، وبين يديه جملة من الطلبة ، ومماليكه وخدامه وقوف عن جانبيه ، وهو قاعد على مرتبة . فخلته لما شاهدته ملكا من الملوك . فقام الي واستقبلني ، وأخذ بيدي وأجلسني الى جانبه على مرتبته ، وأتى بالطعام فأكلنا ، وانصرفنا الى المدرسة .

وذكر لي بعض الطلبة أن جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس ، فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة .

وكتب هذا المدرس الى السلطان بخبرنا وأثنى علي في كتابه . والسلطان في جبل هناك يصيف فيه لأجل شدة الحر ، وذلك الجبل بارد ، وعادته أن يصيف فيه .

ذكر سلطان بركى

وهو السلطان محمد بن آيدين ، من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم . ولما بعث اليه المدرس يعلمه بخبري وجه نائبه الى لآتيه ،فأشار علي المدرس أن أقيم حتى يبعث الي ثانية .

وكان المدرس اذ ذاك قد خرجت برجله قرحة لا يستطيع الركوب بسببها ، وانقطع عن المدرسة .

ثم ان السلطان بعث في طلبي ثانية ، فشق ذلك على المدرس فقال : أنا لا أستطيع الركوب ، ومن غرضي التوجه معك لأقرر لدى السلطان ما يجب لك .

ثم انه تحامل ولف على رجله خرقا وركب ، ولم يضع رجله في

الركاب . وركبت أنا وأصحابي ، وصعدنا الى الجبل في طريق قد نحتت وسويت ، فوصلنا الى موضع السلطان عند الزوال ، فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز .

وصادفنا السلطان في قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الأصغر سليمان عنه ، الى صهره السلطان أرخان بك . فلما بلغه خبر وصولنا بعث الينا ولديه خضر بك وعمر بك ، فسلما على الفقيه ، وأمرهما بالسلام عليَّ ففعلا ذلك ، وسألاني عن حالي ومقدمي ، وانصرفا .

وبعث الي ببيت يسمى عندهم الخرقة (خركاه) وهو عصى من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل عليها اللبود ، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادهنج ، ويسد متى احتيج الى سده . وأتوا بالفرش ففرشوه ، وقعد الفقيه وقعدت معه ، وأصحابه وأصحابي خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز . وذلك الموضع شديد البرد ، ومات لي تلك الليلة فرس من شدة البرد .

ولما كان من الغد ركب المدرس الى السلطان وتكلم في شأني بما اقتضته فضائله ، ثم عاد الي وأعلمني بذلك .

وبعد ساعة وجه السلطان في طلبنا معا ، فجئنا الى منزله ووجدناه قائما فسلمنا عليه ، وقعد الفقيه عن يمينه وأنا مما يلي الفقيه . فسألني عن حالي ومقدمي ، وسألني عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقين ، وبلاد الأعاجم . ثم حضر الطعام ، فأكلنا وانصرفنا .

وبعث الأرز والدقيق والسمن في كروش الأغنام ، وكذلك فعل الترك .

وأقمنا على تلك الحال أياما ، يبعث الينا في كل يوم فنحضر طعامه . وأتى يوما الينا بعد الظهر ، وقعد الفقيه في صدر المجلس ، وأنا عن يساره ، وقعد السلطان عن يمين الفقيه ، وذلك لعزة الفقهاء عند الترك ،

وطلب مني أن أكتب له احاديث من حديث رسول الله ﷺ . فكتبتها له ، وعرضها الفقيه عليه في تلك الساعة ، فأمره أن يكتب له شرحها باللسان التركي .

ثم قام فخرج ، ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير أبزار ولا خضر ، فأمر بعقاب صاحب خزانته ، وبعث بالأبزار والسمن .

وطالت اقامتنا بذلك الجبل ، فأدركني الملل وأردت الانصراف ، وكان الفقيه أيضا قد مل من المقام هنالك ، فبعث الى السلطان يخبره أني أريد السفر .

فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية ، ولم أكن اذ ذاك أفهمها ، فأجابه عن كلامه وانصرف ، فقال لي المدرس : أتدري ماذا قال ؟

قلت : لا أعرف ما قال .

قال : ان السلطان بعث الي ليسألني : ماذا يعطيك ؟ فقلت له : عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد ، فليعطه ما أحب من ذلك . .

فذهب الى السلطان ثم عاد الينا فقال : ان السلطان يأمر أن تقيما هنا اليوم ، وتنزلا معه غدا الى داره بالمدينة .

فلما كان من الغد بعث فرسا جيدا من مراكبه ، ونزل ونحن معه الى المدينة ، فخرج الناس لاستقباله ، وفيهم القاضي المذكور آنفا وسواه ، ودخل السلطان ونحن معه .

فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس الى ناحية المدرسة ، فدعا بنا وأمرنا بالدخول معه الى داره . فلما وصلنا الى دهليز الدار ، وجدنا من خدامه نحو عشرين ، صورهم فائقة الحسن ، وعليهم ثياب الحرير ، وشعورهم مفروقة مرسلة ، وألوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة .

فقلت للفقيه : ما هذه الصور الحسان ؟

فقال : هؤلاء فتيان روميون .

وصعدنا مع السلطان درجا كثيرة الى أن انتهينا الى مجلس حسن في وسطه صهريج ماء ، وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع من نحاس يمج ماء من فيه ، وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة ، وفوق احداها مرتبة السلطان .

فلما انتهينا اليها نحى السلطان مرتبته بيده ، وقعد معنا على الاقطاع ، وقعد الفقيه عن يمينه والقاضي مما يلي الفقيه ، وأنا مما يلي القاضي ، وقعد القراء بأسفل المصطبة ، والقراء لا يفارقونه حيث كان من مجالسه . ثم جاءوا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب المحلول ، قد عصر فيه ماء الليمون ، وجعل فيه كعكات صغار مقسومة ، وفيها ملاعق ذهب وفضة ، وجاءوا معها بصحاف صينية فيها مثل ذلك ، وفيها ملاعق خشب ، فمن تورع استعمل صحاف الصيني وملاعق الخشب .

وتكلمت بشكر السلطان ، وأثنيت على الفقيه ، وبالغت في ذلك ، فأعجب ذلك السلطان وسره .

حكاية الطبيب اليهودي

وفي أثناء قعودنا مع السلطان ، أتى شيخ على رأس عمامة لها ذؤابة ، فسلم عليه وقام له القاضي والفقيه وقعد أمام السلطان فوق المصطبة والقراء أسفل منه . فقلت للفقيه : من هذا الشيخ ؟

فضحك وسكت . ثم أعدت السؤال ، فقال لي : هذا يهودي طبيب ، وكلنا محتاج اليه ، فلأجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له .

فأخذني ما حدث وقدم من الامتعاض ، فقلت لليهودي : يا ملعون

يـا ابن الملعـون ، كيف تجلس فـوق قراء القرآن وأنت يهـودي ؟ وشتمتـه ورفعت صوتي .

فعجب السلطان وسأل عن معنى كلامي ، فأخبره الفقيه به . وغضب اليهودي فخرج عن الملجس في أسوأ حال .

ولمـا انصرفنـا قـال لي الفقيـه : أحسنت بـارك الله فيـك ، ان أحـدا سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك ، ولقد عرفته بنفسه .

حكاية أخرى الحجر النازل من السماء

وسألني السلطان في هذا المجلس فقـال لي : هل رأيت قـط حجر نزل من السماء ؟

فقلت : ما رأيت ذلك ولا سمعت به .

فقال لي : انه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء .

ثم دعا رجالا وأمرهم أن يأتوا بالحجر ، فـأتوا بحجر أسود أصم شـديد الصلابة له بريق ، قدرت أن زنته تبلغ قنطار . وأمر السلطان بـاحضـار القطاعين فحضر أربعـة منهم ، فـأمرهم أن يضربوه . فضربوا عليـه ضربـة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد ، فلم يؤثروا فيـه شيئـا . فعجبت من أمره ! وأمر برده الى حيث كان .

وفي ثـالث يوم من دخولنـا الى المـدينـة مع السلطـان ، صنع صنيعـا عظيـا ، ودعـا الفقهـاء والمشـايخ وأعيـان العسكر ووجوه أهل المـدينـة ، فطعِمـوا ، وقرأ القرّاء القرآن بـالأصـوات الحسـان ، وعـدنـا الى منزلنـا بالمدرسة .

وكان يوجه الطعـام والفـاكهـة والحلواء والشمع في كل ليلـة . ثم بعث إليّ مائة مثقال ذهبا وألف درهم وكسوة كاملة ، وفرسا ومملوكا روميـا يسمى ميخـائيـل ، وبعث لكل من أصحـابي كسـوة ودراهم ، كل هـذا بمشـاركـة

المدرس محي الدين ، جزاه الله تعالى خيرا ، وودعنا وانصرفنا . وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة ، أربعة عشر يوما .

مدينة تيرة

ثم قصدنا مدينة تيرة ، وهي من بلاد هذا السلطان ، مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين وفواكه . ونزلنا منها بزاوية الفتى محمد ، وهو من كبار الصالحين، صائم الدهر، وله أصحاب على طريقته، فأضافنا ودعا لنا.

مدينة أياسُلُوق

وسرنا الى مدينة أياسُلُوق ، مدينة كبيرة قديمة معظّمة عند الروم ، وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ، ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فما دونها ، منحوتة أبدع نحت .

والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا ، لا نظير له في الحسن ، وكان كنيسة لروم معظمة عندهم يقصدونها من شتّى البلاد ، فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا جامعا . وحيطانه من الرخام الملون ، وفرشه الرخام الأبيض ، وهو مسقوف بالرصاص ، وفيه احدى عشرة قبّة منّوعة ، في وسط كل قبة صهريج ماء . والنهر يشقه ، وعن جانبي النهر الأشجار المختلفة الأجناس ، ودوالي العنب ومعرشات الياسمين ، وله خمسة عشر بابا .

وأمير هذه المدينة خضر بك ابن السلطان محمد بن آيدين. وقد كنت رأيته عند أبيه ببركي ، ثم لقيته بهذه المدينة خارجها ، فسلّمت عليه وأنا راكب ، فكَرِهَ ذلك مني ، وكان سبب حرماني لديه ... فان عادتهم اذا نزل لهم الوارد نزلوا له وأعجبهم ذلك ، ولم يبعث الي الا ثوبا واحدا من الحرير المذهب يسمونه النَّخّ .

واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرا بأربعين دينارا ذهبا .

مدينــة يَزْمِيــر

ثم سرنا الى مدينة يَزْمِير ، مدينة كبيرة على ساحل البحر ، معظمها خراب ، ولها قلعة متصلة بأعلاها . نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب ، وهو من الأحمديّة ، صالح فاضل .

ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن أحمد الرفاعي ، ومعه زاده الأخلاطي من كبار المشايخ ، ومعه مائة فقير من المولّهين ، وقد ضرب لهم الأمير الأخبية ، وصنع لهم الشيخ يعقوب ضيافة ، وحضرتُها واجتمعت بهم .

وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفا . وسكناه بقلعتها .

وكان حين قدومنا عليها عند أبيه ، ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها ، فكان من مكارمه أن أتى اليّ بالزاوية ، فسلم عليّ واعتذر ، وبعث ضيافة عظيمة . وأعطاني بعد ذلك مملوكا روميا مُاسيا اسمه نقولة وثوبين من الكمخا ، وهي ثياب حرير تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين . وذكر لي الفقيه الذي يؤمّ به ، أن الأمير لم يبق له مملوك سوى ذلك المملوك الذي أعطاني بسبب كرمه رحمه الله .

وأعطى أيضا الشيخ عز الدين ثلاثة أفراس مجهزة وآنية فضية كبيرة تسمى عندهم المشربة ، مملوءة دراهم وثيابا من الملف والمرعز القدسي والكمخا ، وجواري وغلمانا .

وكان هذا الأمير كريما صالحا كثير الجهاد ، له أجفان غَزَوية يضرب بها على نواحي القسطنطينية العظمى ، فيسبي ويغنم ، ويُفني ذلك كرما وجودا . ثم يعود الى الجهاد الى أن اشتدت على الروم وطأته فرفعوا أمرهم

الى البابا ، فأمر نصارى جنوة وافرانسة بغزْوِه فَغَزَوْه . وجهز جيشا من رومة ، وطوقوا مدينته ليلا في عدد كبير من الأجفان ، وملكوا المرسى والمدينة . ونزل اليهم الأمير عمر من القلعة فقاتلهم فاستشهد هو وجماعة من ناسه . واستقر النصارى بالبلد ولم يقدروا على القلعة لمنعتها .

ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدنية مغنيسية ، ونزلنا بها عشي يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان ، وهي مدينة كبيرة حيسنه في سفح جبل ، وبسيطها كثير الأنهار والعيون والبساتين والفواكه .

ذكر سلطان مغنيسية

وسلطانها يسمى صاروخان . ولما وصلنا الى هذه البلدة وجدناه بتربة ولده ، وكان قد توفي منذ أشهر ، فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بتربته .

والولد قد صُبّر وجُعِل في تابوت خشب مُغَشّى بالحديد المقصدر ، وعلق في قبة لا سقف لها حتى تذهب رائحته ، وحينئذ ، تسقف القبة ، ويجعل تابوته ظاهرا على وجه الأرض ، وتجعل ثيابه عليه . وهكذا رأيت غيره أيضا من الملوك فعل .

وسلمنا عليه بذلك الموضع ، وصلينا معه صلاة العيد ، وعدنا الى الزراوية . فأخذ الغلام الذي كان لي أفراسنا ، وتوجه مع غلام لبعض الأصحاب ، لسقيها ، فأبطأ . ثم لما كان العشي ، لم يظهر لها أثر .

وكان بهذه المدينة الفقيه المدرّس الفاضل مصلح الدين ، فركب معي الى السلطان ، وأعلمناه بذلك ، فبعث في طلبهما فلم يوجدا ، واشتغل الناس في عيدهم .

وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمى فُوجة ، على مسيرة يوم من مغنيسية . وهؤلاء الكفار في بلد حصين ، وهم يبعثون هدية في

كل سنة الى سلطان مغنيسية ، فيقنع منهم بها ، لحصانة بلدهم .

فلما كان بعد الظهر أتى بها بعض الأتراك والأفراس ، وذكروا أنها اجتازا بهم عشية النهار ، فأنكروا أمرهما ، واشتدوا عليهما حتى أقرّا بما عزما عليه من الفرار .

ثم سافرنا من مغنيسية ، وبتنا ليلة عند قوم من التركمان ، قد نزلوا في مرعى لهم ، ولم نجد عندهم ما نعلف به دوابنًا تلك الليلة . وبات أصحابنا يحترسون مداولة بينهم خوف السرقة . فأتت نوبة الفقيه عفيف الدين التوزري ، فسمعتُه يقرأ سورة البقرة ، فقلت له : اذا أردتَ النوم فأعلمني لأنظر من يحرس ، ثم نمت فما أيقظني الا الصباح ، وقد ذهب السرّاق بفرس لي كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه ، وكان من جياد الخيل ، اشتريته بأياسَلُوق .

مدينة بَرْغَمة

ثم رحلنا من الغد فوصلنا الى مدينة برغمة ، مدينة خربة ، لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل ويقال : إن أفلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة ، وداره تشتهر باسمه الى الآن . ونزلنا منها بزاوية فقير من الأحمدية ، ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا الى داره وأكرمنا اكراما كثيرا .

ذكر سلطان برغمة

وسلطانها يسمى يَخْشِي خان (والخان عندهم هو السلطان ، ويخشي معناه جيد) ، صادفناه في مصيف له ، فأعلم بقدومنا ، فبعث بضيافة وثوب قدسي .

مدينة بَلي كَسْري

ثم اكترينا من يدلنا على الطريق ، وسرنا في جبال شامخة وعرة ، الى أن وصلنا الى مدينة بلي كسري ، مدينة حسنة ، كثيرة العمارات ، مليحة الأسواق ، ولا جامع لها يجمع فيه . وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها ، فبنوا حيطانه ، ولم يجعلوا له سقفا ، وصاروا يصلون به ويجتمعون تحت ظِلال الأشجار .

ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى (أخي) سنان ، وهو من أفاضلهم ، وأتى الينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى .

ذكر سلطان بَلي كسري

ويسمى دمور خان ، ولا خير فيه . وأبوه هو الذي بنى هذه المدينة ، وكثرت عمارتها بمن لا خير فيه في مدة ابنه هذا ، والناس على دين الملك ورايته . وبعث الي ثوبَ حرير .

واشتريت بهذه المدينة جارية رومية تسمى مَرْغَلِيطة .

مدينة بُرْصا

ثم سرنا الى مدينة بُرْصَا ، مدينة كبيرة عظيمة ، حسنة الأسواق ، فسيحة الشوارع ، تحف بها البساتين من جميع جهاتها ، والعيون الجارية . وبخارجها نهر شديد الحرارة ، يصب في بركة عظيمة ، وقد بُني عليها بيتان أحدهما للرجال ، والآخر للنساء . والمرضى يستشفون بهذه الحمة ويأتون اليها من أقاصي البلاد .

وهنالك زاوية للواردين ينزلون بها ، ويُطْعَمون مدة مقامهم ، وهي ثلاثة أيام . وعمر هذه الزاوية أحد ملوك التركان .

ونزلنا في هذه المدينة بزاوية الفتى (أخي) شمس الدين ، من كبار

الفتيان . ووافقنا عنده يوم عاشوراء فصنع طعاما كثيرا ، ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلا ، وأفطروا عنده ، وقرأ القراء بالأصوات الحسنة . وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوي ، ووعظ وذكّر وأحسن .

ثم أخذوا في السماع والمرقص ، وكانت ليلة عظيمة الشأن .

وهذا الواعظ من الصالحين ، يصوم الدهر ، ولا يفطر الا في كل ثلاثة أيام ، ولا يأكل الا من كد يمينه . ويقال انه لم يأكل طعام أحد قط ، ولا منزل له ولا متاع الا ما يستتر به ، ولا ينام الا في المقبرة . ويعظ في المجالس ويذكر ، فيتوب على يديه في كل مجلس الجماعة من الناس . وطلبته بعد هذه الليلة فلم أجده ، وأتيت الجبانة فلم أجده ، ويقال انه يأتيها بعد هجوع الناس .

حكاية الفقير الذي مات

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزاوية شمس الدين وعظ بها مجد الدين من آخر الليل . فصاح أحد الفقراء صيحة غشي عليه منها ، فصبوا عليه ما الورد فلم يفق ، فأعادوا عليه ذلك فلم يفق . واختلفت الناس فيه : فمن قائل انه ميت ، ومن قائل انه مغشي عليه .

وأتم الواعظ كلامه ، وقرأ القراء ، وصلينا الصبح ، وطلعت الشمس . فاختبروا حال الرجل ، فوجدوه فارق الدنيا رحمه الله . فاشتغلوا بغسله وتكفينه ، وكنت فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه .

وكان هذا الفقير يسمى الصياح . وذكروا أنه كان يتعبد بغار هنالك في جبل ، فمتى علم أن الواعظ مجد الدين يعظ قصده وحضر وعظه ، ولم يأكل طعام أحد . فاذا وعظ مجد الدين يصيح ويغشى عليه . ثم يفيق فيتوضأ ويصلي ركعتين . ثم اذا سمع الواعظ صاح ...

يفعل ذلك مرارا في الليلة ، وسمي الصياح لأجل ذلك .

وكان أعذر اليد والرجل ، لا قدرة له على الخدمة . وكانت له والدة تقوته من غزلها ، فلما توفيت اقتات من نبات الأرض .

ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصري السائح ، وهو من الصالحين ، جال الأرض الا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان ، وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم .

ذكر سلطان بُرْصا

وسلطانها اختيار الدين أُرخان بك ، وأرخان ابن السلطان عثمان جُوق . وهذا السطان أكبر ملوك التركان ، وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا ، له من الحصون ما يقارب مائة حصن . وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ، ويقيم بكل حصن منها أياما ، لاصلاح شئونه وتفقد حاله .

ويقال انه لم يقم قط شهرا كاملا ببلده ، ويقاتل الكفار ويحاصرهم . ووالده هو الذي استفتح مدينة برصا من أيدي الروم ، وقبره بمسجدها . وكان مسجدها كنيسة للنصارى .

ويذكر أنه حاصر مدينة بزنيك نحو عشرين سنة ، ومات قبل فتحها . فحاصرها ولده هذا الذي ذكرناه نحو اثنتي عشرة سنة وافتتحها ، وبها كان لقائي له . وبعث الي بدراهم كثيرة .

ثم سافرنا الى مدينة بزنيك ، وبتنا قبل الوصول اليها بقرية تدعى كَرْله ، بزاوية فتى من «الأخية» .

ثم سرنا من هذه القرية يوما كاملا في أنهار ماء ، على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض . ثم وصلنا الى بحيرة ماء تنبت القصب ، على

ثمانية أميال من يزنيك ، لا يستطاع دخولها الا على طريق واحدة مثل الجسر ، لا يسلك عليها الا فارس واحد ، وبذلك امتنعت هذه المدينة . والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات . وهي خاوية على عروشها ، لا يسكن بها الا أناس قليلون من خدام السلطان . وبها زوجته بيون خاتون ، وهي الحاكمة عليهم ، امرأة صالحة فاضلة .

وعلى المدينة أسوار أربعة ، بين كل سورين خندق ، وفيه الماء .

وَيدخل اليها على جسور خشب ، متى أرادوا رفعها رفعوها .

وبداخل المدينة البساتين والدور والأرض والمزارع فلكل انسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة . وشربها من آبار قريبة . وبها من جميع أصناف الفواكه والجوز . والقسطل عندهم كثير جدا ، رخيص الثمن . ويسمون القسطل قَسْطنة (بالنون) ، والجوز القَوْز (بالقاف) . وبها العنب العذاري ، لم أر مثله في سواها متناهي الحلاوة ، عظيم الجرم ، صافي اللون ، رقيق القشر ، وللحبة منه نواة واحدة .

أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الامام الحاج المجاور ، علاء الدين السلطانيوكي . وهو من الفضلاء الكرماء ، ما جئت قط لزيارته الا أحضر الطعام . وصورته حسنة ، وسيرته أحسن ، وتوجه معي الى الخاتون المذكورة ، فأكرمت ، واضافت ، وأحسنت .

وبعد قدومنا بأيام ، وصل الى هذه المدينة السلطان أرخان بك الذي ذكرناه ، وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوما ، بسبب مرض فرس لي ، فلما طال على المكث تركته وانصرفت ، ومعي ثلاثة من أصحابي وجارية وغلامان ، وليس معنا من يحسن اللسان التركي ويترجم عنا ، وكان لنا ترجمان فارقنا بهذه المدينة .

ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقال لها مَكَجَا ، بتنا عند فقيه بها أكرمنا وأضافنا .

وسافرنا من عنده ، وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خادم لها ، وهي قاصدة مدينة ينجا ، ونحن في اتّباع أثرها . فوصلت الى واد كبير يقال له سَقَرى ، كأنه نسب الى سقر ، أعاذنا الله منها ، فذهبت تجوز الوادي . فلما توسطته كادت الدابة تغرق بها ، ورمتها عن ظهرها ، وأراد الخادم الذي كان معها أستخلاصها ، فذهب الوادي بهما معا .

وكان في عدوة الوادي قوم رموا بأنفسهم في أثرهما سباحة ، فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رمق ، ووجدوا الرجل قد قضى نحبه ، رحمه الله .

وأخبرنا أولئك الناس أن المعدية اسفل من ذلك الموضع ، فتوجهنا اليها وهي أربع خشبات مربوطة بالحبال ، يجعلون عليها سروج الدواب والمتاع ، ويجذبها الرجال من العدوة الاخرى ، ويركب عليها الناس ، وتجوز الدواب سباحة ، وكذلك فعلنا .

ووصلنا تلك الليلة الى كاوية ، واسمها على مثال فاعلة ، من الكي ، نزلنا منها بزاوية أحد «الأخية» ، فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا ، وكلمناه بالتركية فلم نفهم عنه ، فقال : اطلبوا الفقيه فانه يعرف العربية ، فأتى الفقيه ، فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمها منا .

وبتنا تلك الليلة بالزاوية ، وبعث معنا دليلا الى ينجا ، بلدة كبيرة حسنة ، بحثنا بها عن زاوية «الأخي» فوجدنا بها أحد الفقراء المولّهين ، فقلت له : هذه زاوية «الأخي» ؟ فقال لي : نعم .

فسررت عند ذلك اذ وجدت من يفهم اللسان العربي ، فلما اختبرته أبرز الغيب أنه لا يعرف من اللسان العربي الا كلمة نعم خاصة .

ونزلنا بالزاوية ، وجاء الينا أحد الطلبة بطعام ، ولم يكن «الأخي» حاضرا ، وحصل الأنس بهذا الطالب ، ولم يكن يعرف اللسان العربي . لكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة ، فأعطاني فارسا من أصحابه ، وتوجه معنا الى كبنوك ، وهي بلدة صغيرة ، يسكنها كفار الروم تحت

ذمة المسلمين ، وليس بها غير بيت واحد من المسلمين ، وهم الحكام عليهم . وهي من بلاد السلطان أرخان بك .

فنزلنا بدار عجوز كافرة ، وذلك ابان الثلج والشتاء ، فأحسنا اليها وبتنا عندها تلك الليلة .

وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالي للعنب ، ولا يزرع بها الا الزعفران . وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير ، وظنت أننا تجار نشتريه منها .

ولما كان الصباح ركبنا وأتانا الفارس الذي بعثه الفتى معنا من كاوية ، فبعث معنا فارسا غيره ليوصلنا الى مدينة مُطَرني .

وقد وقع في تلك الليلة ثلج كثير عفّى الطرق ، فتقدمنا ذلك الفارس ، فاتبعنا أثره ، الى أن وصلنا في نصف النهار الى قرية للتركمان ، فأتوا بطعام ، فأكلنا منه . وكلمهم ذلك الفارس ، فركب معنا أحدهم ، وسلك بنا أوعارا وجبالا ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة .

فلما خلصنا من ذلك ، قال لنا ذلك الفارس : أعطوني شيئا من الدراهم .

فقلنا له : اذا وصلنا الى المدينة نعطيك ونرضيك . فلم يرض ذلك منا ، أو لم يفهم عنا ، فأخذ قوسا لبعض أصحابي ومضى غير بعيد . ثم رجع فرد الينا القوس . فأعطيته شيئا من الدراهم فأخذها وهرب عنا ، وتركنا لا نعرف أين نقصد ، ولا طريق يظهر لنا .

فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه ، الى أن بلغنا عند غروب الشمس جبلا لم يظهر الطريق به لكثرة الحجارة ، فخفت الهلاك على نفسي ومن معي ، وتوقعت نزول الثلج ليلا ، ولا عمارة هنالك : فان نزلنا عن الدواب هلكنا ، وان سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه .

وكان لي فرس من الجياد : فعملت على الخلاص ، وقلت في نفسي : اذا سلمت لعلي احتال في سلامة أصحابي ، فكان كذلك . واستودعتهم الله تعالى ، وسرت .

وأهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتا من الخشب يظن رائيها أنها عمارة فيجدها قبوار ، فظهر لي منها كثير . فلما كان بعد العشاء وصلت الى بيوت فقلت : اللهم أجعلها عامرة ، فوجدتها عامرة . ووفقني الله تعالى الى باب دار ، فرأيت عليها شيخا فكلمته بالعربي فكلمني بالتركي وأشار الي بالدخول ، فأخبرته بشأن أصحابي فلم يفهم عني .

وكان من لطف الله أن تلك الدار زاوية للفقراء ، والواقف بالباب شيخها . فلما سمع الفقراء ، الذين بداخل الزاوية كلامي مع الشيخ حرج بعضهم ، وكانت بيني وبينه معرفة ، فسلم علي ، وأخبرته خبر أصحابي ، وأشرت اليه بأن يمضي مع الفقراء لاستخلاص الأصحاب . ففعلوا ذلك وتوجهوا معي الى أصحابي ، وجئنا جميعا الى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة .

وكانت ليلة جمعة ، فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله ، وأتى كل منهم بما تيسر له من الطعام ، وارتفعت المشقة .

مدينة مُطُرني

ورحلنا عند الصباح ، فوصلنا الى مدينة مطرني عند صلاة الجمعة ، فنزلنا بزاوية أحد الفتيان (الأخية) وبها جماعة من المسافرين . ولم نجد مربطا للدواب ، فصلينا الجمعة ونحن في قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المربط .

فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا ، وكان يعرف اللسان العربي ، فسررت برؤيته ، وطلبت منه أن يدلنا على مرابط للدواب

بالكراء ، فقال : أما ربطها في منزل فلا يتأتى ، لأن أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل منها الدواب ، ولكنني أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرين دوابهم والذين يأتون لحضور السوق . فدلنا عليها ، وربطنا بها دوابنا ، ونزل أحد الأصحاب بحانوت خال ازاءها ليحرس الدواب .

حكايـــة الحاج السارق

وكان من غريب ما اتفق لنا ، أني بعثت أحد الخدام ليشتري التبن للدواب ، وبعثت أحدهم يشتري السمن ، فأتى أحدهما بالتبن والآخر دون شيء ، وهو يضحك .

فسألناه عن سبب ضحكه ، فقال : انا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا به السمن ، فأشار الينا بالوقوف وكلم ولدا له ، فدفعنا له الدراهم ، فأبطأ ساعة وأتى بالتبن . فأخذناه منه وقلنا له : انا نريد السمن ، فقال هذا السمن .

وأبرز الغيب أنهم يقولون للتبن سمن ، بلسان الترك ، وأما السمن فيسمى عندهم رباغ .

ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذي يعرف اللسان العربي رغبنا منه أن يسافر معنا الى قصطونية ، وبينها وبين هذه البلدة مسيرة عشر . وكسوته ثوبا مصريا من ثيابي ، وأعطيته نفقة تركها لعياله ، وعينت له دابة لركوبه ، ووعدته الخير .

وسافر معنا فظهر لنا من حاله أنه صاحب مال كثير ، وله ديون على الناس . غير أنه ساقط الهمة ، خسيس الطبع ، سيء الأفعال . وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا ، فيأخذ ما يفضل من الخبز ، ويشتري به الأبزار والخضر والملح ، ويمسك ثمن ذلك لنفسه . وذكر لي أنه

كـان يسـرق مـن دراهـم النفقـة دون ذلـك .

وكنا نحتمله لما كنا نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك ، وانتهت حاله الى أن فضحناه وكنا نقول له في آخر النهار : يا حاج ، كم صرفت اليوم من النفقة ؟ فيقول : كذا . فنضحك منه ، ونرضى بذلك .

ومن أفعاله الخسيسة أنه مات لنا فرس في بعض المنازل ، فتولى سلخ جلده بيده وباعه .

ومنها أنّا نزلنا ليلة عند أخت لـه في بعض القرى ، فجاءت بطعام وفاكهة من الاجاص والتفاح والمشمش والخوخ ، كلها ميبسة ، وتجعل في الماء حتى ترطب ، فتؤكل ويشرب ماؤها ، فأردنا أن نحسن اليها ، فعلم بذلك فقال : لا تعطوها شيئا ، وأعطوني ذلك . فأعطيناه أرضاء لـه ، وأعطيناها احسانا في خفية بحيث لم يعلم بذلك .

مدينـة بُولـي

ثم وصلنا الي مدينة بولي . ولما انتهينا الى قريب منها ، وجدنا واديا يظهر في رأي العين صغيرا . فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شديد الجرية والانزعاج ، فجازوه جميعا ، وبقيت جارية صغيرة خافوا اجازتها .

وكان فرسي خيرا من أفراسهم فأردفتها وأخذت في جواز الوادي . فلما توسطته وقع بي الفرس ، ووقعت الجارية ، فأخرجها أصحابي وبها رمق ، وخلصت أنا .

ودخلنا المدينة ، فقصدنا زاوية أحد الفتيان (الأخية) . ومن عاداتهم أنه لا تزال النار موقدة في زواياهم أيام الشتاء أبدا ، يجعلون في كل ركن من أركان الزاوية موقدا للنار ، ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ، ولا يؤذي الزاوية ، ويسمونها البخاري واحدها بُخَيْرَى .

قال ابن جُزَي : وقد أحسن صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلى في قوله في التورية ،.وتذكرته بذكر البخيري :

ان البخيرى منذ فارقتموه غدا يحشو الرماد على كانونه الترب
لو شمتو أنه يسمى أبا لهب جاءت بغالكم حمالة الحطب

قال : فلما دخلنا الزاوية ، وجدنا النار موقدة ، فنزعت ثيابي ، ولبست ثيابا سواها ، واصطليت بالنار . وأتى «الأخى» بالطعام والفاكهة ، وأكثر من ذلك . فلله درهم من طائفة ، ما أكرم نفوسهم ، وأسد ايثارهم ، وأعظم شفقتهم على الغريب ، وألطفهم بالوارد ، وأحبهم فيه ، وأجملهم احتفالا بأمره . فليس قدوم الانسان الغريب عليهم الا كقدومه على أحب اهله اليه .

مدينة كردي بولي

وبتنا تلك الليلة بحال مرضية . ثم رحلنا بالغداة ، فوصلنا الى مدينة كردي بولي وهي مدينة كبيرة في بسيط من الأرض ، حسنة متسعة الشوارع والأسواق ، من أشد البلاد بردا . وهي محلات مفترقة ، كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم .

ذكر سلطانها

وهو السلطان شاه بك ، من متوسطي سلاطين هذه البلاد ، حسن الصورة والسيرة ، جميل الخلق ، قليل العطاء . صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ، ونزلنا بزاوية منها .

ولقيت بها الخطيب الفقيه شمس الدين الدمشقي الحنبلي ، وهو من مستوطنيها منذ سنين ، وله بها أولاد . وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ، ومسموع الكلام عنده .

ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية ، فأعلمنا أن السلطان قد جاء لزيارتنا ، فشكرته على فعله .

واستقبلت السلطان فسلمت عليه ، وجلس فسألني عن حالي وعن مقدمي ، وعمن لقيته من السلاطين . فأخبرته بذلك كله ، وأقام ساعة ثم انصرف ، وبعث بدابة مسرجة وكسوة .

مدينة بُرْلُو

وانصرفنا الى مدينة بُرْلُو ، وهي مدنية صغيرة ، على تل تحتها خندق ، ولها قلعة بأعلى شاهق . ونزلنا منها بمدرسة فيها حسنة ، وكان الحاج الذي سافر معنا يعرف مدرستها وطلبتها ، ويحضر معهم الدرس . وهو على علاته من الطلبة ، حنفي المذهب .

ودعانا أمير هذه البلدة ـ وهو علي بك ابن السلطان المكرم سليمان بادشاه ، ملك قصطمونية ، وسنذكره ـ فصعدنا اليه القلعة فسلمنا عليه ، فرحب بنا وأكرمنا . وسألني عن أسفاري وحالي فأجبته عن ذلك . وأجلسني الى جانبه ، وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد ، وهو من كبار الكتاب . وحضر الطعام فأكلنا ، ثم قرأ القراء بأصوات مبكية ، وألحان عجيبة ، وانصرفنا .

السفر إلى قصطمونية

وسافرنا بالغد الى قصطمونية ، وهي من أعظم المدن وأحسنها ، كثيرة الخيرات ، رخيصة الأسعار ، نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالأُطروش لثقل سمعه . ورأيت منه عجبا : وهو أن أحد الطلبة كان يكتب له في الهواء ، وتارة في الأرض ، بأصبعه فيفهم عنه ويجيبه ، ويحكي له بذلك الحكايات فيفهمها .

وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما ، فكنا نشتري طابق اللحم الغنمي السمين بدرهمين ، ونشتري خبزا بدرهمين فيكفينا ليومنا ، ونحن عشرة . ونشتري حلواء العسل بدرهمين ، فتكفينا أجمعين ، ونشتري جوزا بدرهم ، وقسطلا بمثله ، فنأكل منها أجمعون ، ويفضل باقيها ونشتري حمل الحطب بدرهم واحد ، وذلك أوان البرد الشديد . ولم أر في البلاد مدينة أرخص أسعارا منها .

ولقيت بها الشيخ الإمام العالم المفتي المدرس تاج الدين السلطانيوكي ، من كبار العلماء ، قرأ بالعراقين وتبريز ، واستوطنها مدة ، وقرأ بدمشق ، وجاور بالحرمين قديما .

ولقيت بها العالم المدرس صدر الدين سليمان الفنيكي ، من أهل فنيكة من بلاد الروم ، وأضافني بمدرسته التي بسوق الخيل .

ولقيت بها الشيخ المعمر الصالح دادا أمير علي . دخلت عليه بزاويته بقربة من سوق الخيل ، فوجدته ملقي على ظهره ، فأجلسه بعض خدامه ، ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحها ، وكلمني بالعربي الفصيح ، وقال : قدمت خير مقدم .

وسألته عن عمره ، فقال : كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله ، وتوفي وأنا ابن ثلاثين سنة ، وعمري الآن مائة وثلاث وستون سنة .

فطلبت منه الدعاء ، فدعا لي وانصرفت .

ذكر سلطان قصطمونية

وهو السلطان المكرم سليمان بادشاه ، وهو كبير السن ، ينيف على سبعين سنة ، حسن الوجه ، طويل اللحية ، صاحب وقار وهيبة ، يجالسه الفقهاء والصلحاء .

دخلت عليه بمجلسه فأجلسني الى جانبه ، وسألني عن حالي

ومقدمي ، وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام ، فأجبته .

وأمر بانزالي على قرب منه ، وأعطاني ذلك اليوم فرسا عتيقا قرطاسي اللون ، وكسوة ، وعين لي نفقة وعلفا ، وأمر لي بعد ذلك بقمح وشعير .

ومن عادة هذا السلطان أن يجلس كل يوم بمجلسه بعد صلاة العصر ، ويؤتى بالطعام فتفتح الأبواب ، ولا يمنع أحد من حضري أو بدوي أو غريب أو مسافر من الأكل . ويجلس في أول النهار جلوسا خاصا ، ويأتي ابنه فَيقَبّل يديه وينصرف الى مجلس له ، ويأتي أرباب الدولة ويأكلون عنده وينصرفون .

ومن عادته في يوم الجمعة أن يركب الى المسجد وهو بعيد عن داره .

والمسجد المذكور ثلاث طبقات من الخشب ، فيصلي السلطان وارباب دولته والقاضي والفقهاء ووجوه الأجناد في الطبقة السفلى ، ويصلي الأفندي ـ وهو أخو السلطان ـ وأصحابه وخدامه وبعض أهل المدينة في الطبقة الوسطى ، ويصلي ابن السلطان وولي عهده ـ وهو اصغر أولاده ويسمى الجواد ـ وأصحابه ومماليكه وخدامه وسائر الناس في الطبقة العليا .

ويجتمع القراء فيقعدون حلقة أمام المحراب ،ويقعد معهم الخطيب والقاضي ، ويكون السلطان بازاء المحراب . ويقرأون سورة الكهف بأصوات حسان ، ويكررون الآيات بترتيبعجيب ، فإذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر ، فخطب ثم صلى . فاذا فرغوا من الصلاة تنفّلوا وقرأ القاريء بين يدي السلطان عشرا ، وانصرف السلطان ومن معه .

ثم يقرأ القاريء بين يدي أخي السلطان ، فاذا أتم قراءته انصرف هو ومن معه .

ثم يقرأ القاريء بين يدي ابن السلطان ، فاذا فرغ من قراءته قام

المعَرف ـ وهو المذكر ـ فيمدح السلطان بشعر تركي ، ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف .

ويأتي ابن الملك الى دار أبيه بعد أن يَقْبل يد عمه في طريقه ، وعمه واقف في انتظاره ، ثم يدخلان الى السلطان ، يتقدم أخوه ويقبل يده ، ويجلس بين يديه . ثم يأتي ابنه فيقبل يده وينصرف الى مجلسه ، فيقعد به مع ناسه .

فاذا حانت صلاة العصر صلوها جميعا ، وقبل أخو السلطان يده وانصرف عنه ، فلا يعود اليه الا في الجمعة الأخرى . وأما الولد فانه يأتي كل يوم غدوة كما ذكرناه .

ثم سافرنا من هذه المدينة ونزلنا بزاوية عظيمة باحدى القرى ، من أحسن الزوايا التي رأيتها في تلك البلاد ، بناها أمير كبير تاب الى الله تعالى يسمى فخر الدين ، وجعل النظر فيها لولده ، والاشراف لمن أقام بالزاوية من الفقراء ، وفوائد القرية وقف عليها .

وبنى بازاء الزاوية حماما للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شيء يلزمه . وبنى سوقا بالقرية ، ووقفه على المسجد الجامع ، وعين من أوقاف هذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسواها كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه ، وثلاثمائة درهم يوم سفره ، والنفقة أيام مقامه (وهي الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء) ، ولكل فقير من بلاد الروم عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام .

ثم انصرفنا وبتنا ليلة ثانية بزاوية في جبل شامخ لا عمارة فيه ، عمرها بعض الفتيان (الأخية) ، ويعرف بنظام الدين من أهل قصطمونية ، ووقف عليها قرية ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية .

مدينــة صنــوب

ثم سافرنا من هذه الزاوية الى مدينـة صنوب . وهي مـدينـة حـافلـة جمعت بين التحصين والتحسين ، يحيـط بهـا البحر من جميع جهـاتها ، الا واحدة ، وهي جهة الشرق ، ولها هنالـك بـاب واحـد . لا يـدخل اليهـا أحد الا باذن أميرها .

وأميرها ابراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذي ذكرناه .

ولما استؤذن لنا عليه ، دخلنا البلـد ونزلنـا بزاويـة عز الـدين (أخي) جلبي ، وهي خارج بـاب البحر . ومن هنـاك يصعـد الى جبل داخل في البحر كمينـاء سبتـة ، فيـه البسـاتين والمزارع والميـاه ، وأكثر فواكـه التين والعنب .

وهو جبل مانع لا يستطاع الصعود اليه . وفيه احـدى عشرة قريـة ، يسكنهـا كفـار الروم تحت ذمـة المسلمين . وبـأعلاه رابطـة تنسب للخضر والياس عليهما السلام ، لا تخلو من متعبد ، وعندهـا عين مـاء ، والـدعـاء فيها مستجاب .

وبسفح هذا الجبل قبر الوالي الصـالح الصحـابي بلال الحبشي ، وعليـه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر .

والمسجد الجامع بمدينة صنوب من أحسن المساجد . وفي وسطـه بركـة ماء عليها قبة تقلّها أربع أرجل ، ومع كل رجل سـاريتـان من الرخـام ، وفـوقهـا مجلس يصعـد لـه على درج خشب . وذلـك من عمـارة السلطـان بروانة ابن السلطان علاء الدين الرومي ، وكان يصلي الجمعـة بـأعلى تلـك القبة .

وملـك بعـده ابنـه غـازي جلبي ، فلمـا مـات تغلّب عليهـا السلطـان سليمان . وكان غازي جلبي شجـاعـا مقـدامـا ، ووهب الله لـه الصبر تحت الماء ، وقوة السباحة . وكان يسـافر في «الأجفـان» الحربيـة لحرب الروم ،

فاذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتـال ، غـاص تحت المـاء وبيـده آلـة حديد يخرق بها «أجفـان» العـدو ، فلا يشعرون بمـا حل بهم حتى يـدهمهم الغرق .

وطرقت مرسى بلده مرة «أجفان» العدو فخرقها وأسر من كان فيها .

وكانت فيه كفاية لا كفـاء لهـا ، إلاّ أنهم يـذكرون أنـه كان يكثر من أكل الحشيش ، وبسببه مات ... .

خرج يوما للصيد وكان مولعا به ، فاتبع غزالـة دخلت بين أشجـار ، وزاد في ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدخته فمات .

وتغلب السلطان سليمان على البلد ، وجعل بـه ابنـه ابراهيم . ويقـال انه أيضا يأكل ما كان يأكله صاحبه .

على أن أهل بلاد الروم كلهـا لا ينكرون أكلـه . ولقـد مررت يـومـا على باب الجامع بصنوب ، وبخارجه دكاكين يقعد النـاس عليهـا ، فرأيت نفرا من كبار الأجناد ، وبين أيديهم خادم لهم ، بيـده شكارة مملوءة بشيء يشبه الحناء ، وأحدهم يأخذ منها بلعقة ويأكل ، وأنا أنظر اليـه ، ولا علم لي بما في الشكارة . فسألت من كان معي ، فأخبرني أنه الحشيش .

وأضافنا بهذه المدينة قـاضيهـا ، ونـائب الأمير بهـا ومعلمـه ، ويعرف بابن عبد الرزاق .

حكاية الروافض وأكل الارنب

لما دخلنا هـذه المـدينـة رآنـا أهلهـا ونحن نصلي مُسْبِلي أيـدينـا ، وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك ، ولا كيفية صلاته . والمختار من مـذهبـه هو إسبال اليدين . وكان بعضهم يرى الروافض بالحجـاز والعراق يصلّون مسبلي أيديهم ، فاتهمونا بمذهبهم وسألونـا عن ذلـك ، فـأخبرنـاهم أننـا على مذهب مالك ، فلم يقنعوا بذلك منا .

واستقرت التهمـة في نفـوسهم ، حتى بعث الينـا نـائب السلطـان بأرنب ، وأوصى بعض خدامه أن يلازمنا حتى يرى ما نفعل به . فذبحناه وطبخناه وأكلناه ، وانصرف الخادم اليه وأعلمه بذلك ، فحينئذ زالت عنا التهمة ، وبعثوا لنا بالضيافة ... والروافض لا يأكلون الأرنب .

وبعـد أربعـة أيـام من وصولنـا الى صنوب ، تـوفيت أم الأمير ابراهيم بها ، فخرجت في جنـازتهـا ، وخرج ابنهـا على قـدميـه كاشفـا شعره ، وكـذلـك الأمراء والمماليـك ، وثيـابهم مقلـوبـة ، وأمـا القـاضي والخطيب والفقهاء فـانهم قلبـوا ثيـابهم ، ولم يكشفـوا رؤوسهم ، بـل جعلـوا عليهـا مناديل من الصوف الأسود ، عوضا عن العمائم . وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوما ، وهي مدة العزاء عندهم .

وكانت اقامتنا بهذه المدينـة نحو أربعين يومـا ، ننتظر تيسير السفر في البحر الى مدينة القرم . فاكترينا مركبـا للروم ، وأقمنـا أحـد عشر يومـا ننتظر مساعدة الريح . ثم ركبنا البحر ، فلما توسطنـاه بعـد ثلاث هـاج علينا واشتد بنا الأمر ، ورأينا الهلاك عيانا .

وكنت بالطّارمة ومعي رجل من أهل المغرب يسمى أبا بكر ، فأمرته أن يصعـد الى أعلى المركب لينظر كيف البحر ، ففعـل ذلـك وأتـاني بالطارمة ، فقال لي : أستودعكم الله .

ودهمنا من الهول ما لم يعهد مثله . ثم تغيرت الريح وردتنا الى مقربة من مـدينـة صنـوب التي خرجنـا منهـا . وأراد بعض التجـار النزول الى مرساها ، فمنعت صاحب المركب من انزاله .

ثم استقامت الريح وسافرنا ، فلما توسطنا البحر هاج علينـا ، وجرى لنا مثل المرة الأولى ثم ساعدت الريح .

ورأينا جبال البر ، وقصدنـا مرسى يسمى الكرش ، فـأردنـا دخولـه ، فأشار الينا أناس كانوا بالجبل ألا ندخلوا . فخفنا على أنفسنا ، وظننـا أن

هنالك «أجفانا» للعدو ، فرجعنا مع البر . فلما قربنا منه ، قلت لصاحب المركب ، أريد أن أنزل هاهنا ، فأنزلني بالساحل .

ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بها راهبا ، ورأيت في أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي عليه عمامة ، متقلدا سيفا وبيده رمح ، وبين يديه سراج موقد . فقلت للراهب : ما هذه الصورة ؟

فقال : هذه صورة النبي علي !

فعجبت من قوله ، وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجا فلم نستطع أكلها ، اذ كانت مما استصحبناه في المركب ، ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه .

وهذا الموضع الذي نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدَشْتَ قَفْجَق بلسان الترك . وهذه الصحراء خضرة نضرة ، لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب ، وانما يوقدون الأرواث ، ويسمونها «التزك» ، فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها في أطراف ثيابهم . ولا يسافر في هذه الصحراء الا في العجل ، وهي مسيرة ستة أشهر : ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد أوزبك ، وثلاثة في بلاد غيره .

مدينة الكفا

ولما كان الغد من يوم وصولنا الى هذا المرسى ، توجه بعض التجار من أصحابنا الى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق ، وهم على دين النصرانية ، فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس ، فركبناها ووصلنا الى مدينة الكفا . وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر ، يسكنها النصارى ، وأكثرهم الجنويون ، ولهم أمير يعرف بالدمدير . ونزلنا منها بمسجد المسلمين .

حكاية أصوات النواقيس

ولما نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة ، ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ، ولم أكن سمعتها قط ، فهالني ذلك . وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ، ويقرأوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك . فاذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح ، فسلم علينا . واستفهمناه عن شأنه ، فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك ، وقال : لما سمعت القراءة والأذان خفت عليكم فجئت كما ترون . ثم انصرف عنا وما رأينا الا خيرا .

ولما كان من الغد جاء الينا الأمير وصنع طعاما فأكلنا عنده . وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق ، وكلهم كفار . ونزلنا الى مرساها ، فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري ، صغير وكبير ، وهو من مراسي الدنيا الشهيرة .

مدينة القرم

ثم أكترينا عجلة وسافرنا الى مدينة القرم ، وهي مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزيك خان ، وعليها أمير من قبله اسمه تلكتمور .

وكان أحد خدام هذا الأمير قد صحبنا في طريقنا فعرفه بقدومنا فبعث الي مع امامه سعد الدين بفرس .

ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراساني ، فأكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا ، وأحسن الينا ، وهو معظم عندهم ، ورأيت الناس يأتون للسلام إليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم .

وأخبرني هذا الشيخ زاده أن بخارج هذه المدينة راهبا من النصاري في دير يتعبد به ويكثر الصوم ، وأنه انتهى الى أن يواصل أربعين يوما ثم

يفطر على حبة فول ، وأنه يكاشف بالأمور . ورغب مني أن أصحبه في التوجه اليه فأبيت ، ثم ندمت بعد ذلك على أن لم أكن رايته وعرفت حقيقة أمره .

ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائلي ، قاضي الحنفية . ولقيت بها قاضي الشافعية وهو يسمى بخضر ، والفقيه المدرس علاء الدين الأصي ، وخطيب الشافعية أبا بكر ، وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة ، والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين ، وكان من الروم فأسلم وحسن اسلامه ، والشيخ الصالح العابد مظهر الدين ، وهو من الفقهاء المعظمين .

وكان الأمير تلكتمور مريضا ، فدخلنا عليه فأكرمنا وأحسن الينا ، وكان علي التوجه الى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك ، فعملت على السير في صحبته ، واشتريت العجلات لذلك .

ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد

وهم يسمون العجلة عربة ، وهي عجلات تكون الواحدة منهن أربع بكرات كبار . ومنها ما يجره فرسان ، ومنها ما يجره أكثر من ذلك . وتجرها أيضا البقر والجمال ، على حال العربة في ثقلها أو خفتها .

والذي يخدم العربة يركب احدى الأفراس التي تجرها ، ويكون عليها سرج وفي يده سوط ، يحركها للمشي ، وعود كبير يصوبها به اذا عاجت عن القصد .

ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب ، مربوط بعضها الى بعض بسيور جلد رقيق ، وهي خفيفة الحمل ، وتكسى باللبد أو بالملف . ويكون فيها طيقان مشبكة ، ويرى الذي بداخلها الناس ولا

يرونه ، ويتقلّب فيها كما يحب ، وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره .

والتي تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا ، وعليها قفل .

وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبي مغشاة باللبد ، ومعي بها جارية لي ، وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري ، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرها ثلاثة من الجمال ، يركب أحدها خادم العربة .

وسرنا في صحبة الأمير تلكتمور وأخيه عيسى وولديه : قطلودمور ، وصارر بك . وسافر أيضا معه في هذه الوجهة أمامه سعد الدين ، والخطيب أبو بكر ، والقاضي شمس الدين ، والفقيه شرف الدين موسى ، والمعرف علاء الدين .

وخطة هذا المعرف أن يكون بين يدي الأمير في مجلسه ، فاذا أتى القاضي يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال : باسم الله ، سيدنا ومولانا قاضي القضاة والحكام ، مبين الفتاوي والأحكام ، باسم الله .

واذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار اليه قال : باسم الله ، سيدنا فلان الدين ، باسم الله ... فيتهيأ من كان حاضرا لدخول الداخل ، ويقوم اليه ويفسح له في المجلس .

وعادة الأتراك أن يسيروا في هذه الصحراء سيرا كسير الحجّاج في درب الحجاز : يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ، ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيّا . واذا نزلوا حلوا الخيل والابل والبقر عن العربات ، وسرّحوها للرعى ليلا ونهارا . ولا يعلف أحد دابة لا السلطان ولا غيره .

وخاصّية هذه الصحراء أن نباتها يقوم مقام الشعير للدواب . وليست لغيرها من البلاد هذه الخاصيّة ، ولذلك كثرت الدواب بها .

ودوابهم لا رعاة لها ولا حرّاس ، وذلك لشدة أحكامهم في السرقة . وحكمُهم فيها أنه من وُجِد عنده فرس مسروق ، كُلفَ أن يرده الى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله ، فان لم يقدر على ذلك أُخِذ أولاده في ذلك ، فان لم يكن له أولاد ذُبِح كما تُذْبح الشاة .

وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ ، وانما يصنعون طعاما من شيء عندهم يسمونه الدّوقي : يجعلون على النار الماء ، فاذا غلى صبوا عليه شيئا من الدوقي ، وان كان عندهم لحم قطّعوه قطعا صغارا وطبخوه معه ، ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحفة ، ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه ، ويشربون عليه لبن الخيل . وهم يسمونه القمزّ .

وهم أهل قوّة وشدة ، وحسن مزاجٍ . ويستعملون في بعض الأوقات طعاما يسمونه البُورخاني ، وهو عجين يقطّعونه قطيعات صغارا ، ويثقبون أوساطها ، ويجعلونها في قدر ، فاذا طُبِخت صبّوا عليها اللبن الرائب وشربوها ، ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقي الذي تقدم ذكره . وهم يرون أكل الحلواء عيبا .

ولقد حضرت يوما عند السلطان أوزبيك في رمضان ، فأُحْضِرت لحوم الخيل ـ وهي ما يأكلون من اللحم ـ ولحوم الأغنام . وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابي ، فقدمتها بين يديه . فجعل أصبعه عليها ، وجعله على فيه ، ولم يزد على ذلك .

وأخبرني الأمير تلكتمور أن أحد الكبار من مماليك هذا السلطان ، وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدا ، قال له السلطان يوما : كل الحلواء أعتقكم جميعا ، فأبى وقال : لو قتلتني ما أكلتها !

لما خرجنا من مدينة القرم ، نزلنا بزاوية الأمير تلكتمور في موضع يعرف بسجان ، فبعث إلى أن أحضر عنده ، فركبت اليه ـ وكان لي فرس

معد لركوبي ، يقوده خادم العربة ، فاذا أردت ركوبه ـ ركبته وأتيت الزاوية ، فوجدت الأمير قد صنع بها طعاما كثيرا فيه الخبز . ثم أتوا بماء أبيض في صحاف صغار ، فشرب القوم منه .

وكان الشيخ مظهر الدين يلي الأمير في مجلسه ، وأنا اليه ، فقلت له : ما هذا ؟

فقال : هذا ماء الدُّهن . فلم أفهم ما قال : فذقته فوجدت له حموضة فتركته .

فلما خرجت سألت عنه فقالوا : هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقى . وهم حنفية المذهب ، والنبيت عندهم حلال . ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقى : البوزة . وانما قال لي الشيخ مظفر الدين : ماء الدُّخن ، ولسانه فيه اللكنة الأعجمية ، فظننت أنه يقول ماء الدهن .

وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القرم ، وصلنا الى ماء كثير ، نخوضه يوما كاملا ، واذا كثر خوض الدواب والعربات في هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة ، فذهب الأمير الى راحلتي ، وقدمني أمامه مع بعض خدامه ، وكتب لي كتابا الى أمير أزاق ، يعلمه أني أريد القدوم على الملك ، ويحضه على اكرامي .

مدينة أزاق

وسرنا حتى انتهيت الى ماء آخر ، نخوضه نصف يوم . ثم سرنا بعده ثلاثا ، ووصلنا الى مدينة أزاق . وهي على ساحل البحر ، حسنة العمارة ، يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات . وبها من الفتيان «أخى بجقجى» ، وهو من العظماء ، يطعم الوارد والصادر .

ولما وصل كتاب الأمير تلكتمور الى أمير أزاق ، وهو محمد خواجه الخوارزمي ، خرج الى استقبالي ، ومعه القاضي والطلبة ، وأخرج

الطعام ، فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه .

ووصلنا الى المدينة ، ونزلنا بخارجها ، بقرية من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس عليهما السلام . وخرج شيخ من أهل أزاق يسمى برجب النهر ملكي ، نسبة الى قرية العراق ، فأضافنا بزاوية له ضيافة حسنة .

وبعد يومين من قدومنا قدم الأمير تلكتمور ، وخرج الأمير محمد للقائه ومعه القاضي والطلبة وأعدوا له الضيافة ، وضربوا ثلاث قباب متصلا بعضها ببعض ، احداها من الحرير الملون عجيبة ، واثنتان من الكتان .

ولما نزل الأمير بُسِطت بين يديه شقاق الحرير يمشي عليها ، فكان من مكارمه وفضله ، أن قدمني أمامه ، لِيُرِي ذلك الأمير منزلتي عنده .

ثم وصلنا الى الخباء الأول وهو المعد لجلوسه ، وفي صدره كرسي من الخشب لجلوسه كبير مرصع ، وعليه مرتبة حسنة . فقدمني الأمير أمامه ، وقدم الشيخ مظفّر الدين ، وصعد هو ، فجلس فيما بيننا ، ونحن جميعا على المرتبة . وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبتها ، عن يسار الكرسي ، على فرش فاخرة . ووقف ولدا الأمير تلكتمور وأخوه ، والأمير محمد وأولاده في الخدمة .

ثم أتوا بالأطعمة ، من لحوم الخيل وسواها ، وأتوا بألبان الخيل ، ثم أتوا بـ «البوزة» .

وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان ، ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين يديه ، وخطب خطبة بليغة ، ودعا للسلطان وللأمير وللحاضرين .... يقول ذلك بالعربي ، ثم يفسره لهم بالتركي . وفي أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب .

ثم أخذوا في الغناء ، يغنون بالعربي ، ويسمونه القول ، ثم بالفارسي

والتركي ويسمونه اللمع . ثم أتوا بطعام آخر ، ولم يزالوا على ذلك الى العشي وكلما أردت الخروج منعني الأمير .

ثم جاءوا بكسوة للأمير وكساوي لولديه وأخيه ، وللشيخ مظفر الدين ولي . وأتوا بعشر أفراس للأمير ولأخيه ، ولولديه بست أفراس ، ولكل كبير من أصحابه بفرس ولي بفرس .

والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا ، وثمنها نزر ، قيمة الجيد منها خمسون درهما أو ستون من دراهمهم ، وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه .

وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر بالأكاديش . ومنها معاشهم ، وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا ، بل أكثر : فيكون للتركي منهم آلاف منها .

ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد ، أصحاب الخيل ، أنهم يصنعون في العربات التي يركب فيها نساؤهم قطعة لبد في طول الشبر ، مربوطة الى عود رقيق في طول الذراع في ركن العربة .

ويجعل لكل ألف فرس قطعة ، ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ، ومن له دون ذلك .

وتحمل هذه الخيل الى بلاد الهند ، فيكون في الرفقة منها ستة آلاف ، وما فوقها وما دونها ، ولكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه .

ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم ، ويركب أحدها وبيده عصا طويلة فيها حبل ، فاذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ، ورمى الحبل في عنقه وجذبه ، فيركبه ويترك الآخر للرعى .

واذا وصلوا بها الى أرض السند أطعموها العلف ، لأن نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير ، ويموت لهم منها الكثير ويسرق .

ويغرمون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس ، بموضع

يقال له ششنقار ، ويغرمون عليها بلتان قاعدة بلاد السند . وكانوا فيا تقدم يغرمون ربع ما يجلبونه ، فرفع ملك الهند السلطان محمد ذلك ، وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ، ومن تجار الكفار العشر .

ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير ، لأنهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم ، وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون دينارا ، وربما باعوها بضعف ذلك ، وضعفه ، وضعفيه ، والجياد منها تساوي خمسمائة دينار أكثر من ذلك . -

وأهل الهند لا يبتاعونها للجري والسبق ، لأنهم يلبسون في الحرب الدروع ، ويدرعون الخيل ، وانما يبغون قوة الخيل واتساع خطاها . والخيل التي يبتغونها للسبق تجلب اليهم من اليمن وعمان وفارس ، ويباع الفرس منها بألف دينار الى أربعة آلاف .

مدينـة الماجـر

ولما سافر الأمير تلكتمور عن هذه المدينة أقمت بعده ثلاثة أيام ، حتى جهّز لي الأمير محمد خواجه آلات سفري . وسافرت الى مدينة الماجر ، وهي مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير ، وبها البساتين والفواكه الكثيرة .

ونزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي ، من بطائح العراق . وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه . وفي زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم ، منهم المتزوج والعزب . وعيشهم من الفتوح .

ولأهل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء ، وفي كل ليلة يأتون الى الزاوية بالخيل والبقر والغنم ، ويأتي السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبّرك به ، ويجزلون الإحسان ويعطون العطاء الكثير ، وخصوصا

النساء ، فانهن يكثرن الصدقة ، ويتحرين أفعال الخير .

وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة ، فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر ، وهو من فقهاء بخارى وفضلائها ، وله جماعة من الطلبة والقراء يقرأون بين يديه ، ووعظ وذكر ، وأمير المدينة حاضر وكبراؤها .

فقام الشيخ محمد البطائحي فقال : ان الفقيه الواعظ يريد السفر ، ونريد له زادا . ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه ، وقال : هذه مني اليه . فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ، ومن أعطى فرسا ، ومن أعطى دراهم ، واجتمع له كثير من ذلك كله .

ورأيت بـ «قيسارية» هذه المدينة يهوديا سلم علي وكلمني بالعربي ، فسألته عن بلاده فذكر أنه من بلاد الأندلس ، وأنه قدم منها في البر ولم يسلك بحرا ، وأتى على طريق القسطنطينية العظمى ، وبلاد الروم وبلاد الجركس . وذكر أن عهده بالأندلس منذ أربعة أشهر ، وأخبرني التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك ، بصحة مقاله .

ورأيت بهذه البلاد عجبا من تعظيم النساء عندهم ، وهن أعلى شأنا من الرجال . فأما نساء الأمراء ، فكانت أول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الأمير سلطية في عربة لها ، وكلها مجللة بالملف الأزرق الطيب ، وطيقان البيت مفتوحة وأبوابه ، وبين يديها أربع جوار فائقات الحسن ، بديعات اللباس ، وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها .

ولما قربت من منزل الأمير ، نزلت عن العربة الى الأرض ، ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري ، يرفعن أذيالها . ولأثوابها عرى تأخذ كل جارية ، بعروة ، ويرفعن الأذيال عن الأرض من كل جانب .

ومشت كذلك متبخترة ، فلما وصلت الى الأمير قام اليها وسلم عليها وأجلسها الى جانبه ودار بها جواريها .

وجاءوا بروايا القمز ، فصبت منه في قدح ، وجلست على ركبتيها قدام الأمير وناولته القدح فشرب ، ثم سقت أخاه وسقاها الأمير .

وحضر الطعام فأكلت معه ، وأعطاها كسوة وانصرفت ...

وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء ، وسنذكر نساء الملك فيما بعد .

وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن ، واحداهن تكون في العربة والخيل تجرها ، وبين يديها الثلاث والأربع من الجواري يرفعن أذيالها ، وعلى رأسها «البغطاق» ، وهو أقروف مرصع بالجواهر ، وفي أعلاه ريش الطواويس . وتكون طيقان البيت مفتوحة ، وهي بادية الوجه ، لأن نساء الأتراك لا يحتجبن .

وتأتي احداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن ، فتبيعه من الناس بالسلع العطرية .

وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه من يراه بعض خدامها ، ولا يكون عليه من الثياب الا فروة من جلد الغنم ، وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك !

وتجهزنا من مدينة الماجر ، نقصد معسكر السلطان ، وكان على أربعة أيام من الماجر ، بموضع يقال له بش دغ ، ومعنى «بش» عندهم خمسة ، ومعنى «دغ» الجبل . وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار ، يغتسل منها الأتراك ويزعمون أن من أغتسل منها لم تصبه عاهة مرض .

وارتحلنا الى موضع المحلة فوصلناه أول يوم من رمضان ، فوجدنا المحلة قد رحلت . فعدنا الى الموضع الذي رحلنا منه ، لأن المحلة تنزل بالقرب منه . فضربت بيتي على تل هنالك ، وركزت العلم أمام البيت ، وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك .

وأقبلت المحلة ، فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها ، فيها المساجد والأسواق ودخان المطبخ صاعد في الهواء . وهم يطبخون في حال

رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم . فاذا بلغوا المنزل ، أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض ، وهي خفيفة الحمل . كذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت .

واجتاز بنا خواتين السلطان ، كل واحدة بناسها على حدة . ولما اجتازت الرابعة منهن - وهي بنت الأمير عيسى بك ، وسنذكرها - رأت البيت بأعلى التل ، والعلم أمامه ، وهو علامة الوارد ، فبعثت الفتيان والجواري فسلموا علي ، وأبلغوني سلامها ، وهي واقفة تنتظرهم . فبعثت إليها هدية مع بعض أصحابي ، ومع معرف الأمير تلكتمور . فقبلتها تبركا ، وأمرت أن أنزل في جوارها ، وانصرفت . وأقبل السلطان فنزل في محلة على حدة .

ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان

واسمه محمد أوزبك ، ومعنى خان عندهم السلطان . وهذا السلطان عظيم المملكة ، شديد القوة ، كبير الشان ، رفيع المكان ، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى ، مجتهد في جهادهم . وبلاده متسعة ، ومدنه عظيمة ، منها الكفا والقرم ، والماجر ، وأزاق ، وسرداق (سوداق) ، وخوارزم ، وحضرته السرا .

وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها ، وهم : مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه ، امام الطائفة المنصورة ، الذين لا يزالون ظاهرين على الحق الى قيام الساعة ، أيد الله أمره ، وأعز نصره ، وسلطان مصر والشام ، وسلطان العراق ، والسلطان أرزبك هذا ، وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر ، وسلطان الهند ، وسلطان الصين .

ترتيب السلطان محمد أوزبك في سفره

ويكون هذا السلطان اذا سافر في محلة على حدة ، معه مماليكه وأرباب دولته ، وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها . فاذا أراد أن يكون عند واحدة منهن، بعث اليها يعلمها بذلك، فتتهيأ له.

وله في قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع .

ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة . وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفي وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة ، وقوائمه فضة خالصة ، ورؤوسها مرصعة بالجواهر .

ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلي ، وتليها الخاتون كبك ، وعلى يساره الخاتون بيلون ، وتليها الخاتون أردجى .

ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك ، وعن الشمال ولده الثاني جان بك ، وتجلس بين بديه ابنته ايت كججك . واذا أتت احداهن ، قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير .

وأما طيطغلي ، وهي الملكة وأحظاهن عنده ، فانه يستقبلها الى باب القبة ، فيسلم عليها ويأخذ بيدها . فاذا صعدت على السرير وجلست ، حينئذ يجلس السلطان .... وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب .

ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين وعن الشمال ، وكل انسان منهم اذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه .

ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمه ، واخوانه وأقاربه ، ويقف في مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار ، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال .

ثم يدخل الناس للسلام : الأمثل فالأمثل ، ثلاثة ثلاثة ، فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد .

فاذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ، ثم ينصرف سائرهن فيتبعنها الى محلتها ، فاذا دخلت اليها انصرفت كل واحدة الى محلتها راكبة عربتها ، ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل ، وأمام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة ، وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان ، وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركبانا ، ومثلهم مشاة ، بأيديهم القضبان ، والسيوف مشدودة على أوساطهم ، وهم بين الفرسان والفتيان ....

وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها ومجيئها .

وكان نزولي من المحلة في جوار ولد السلطان جان بك الذي نذكره فيما بعد .

وفي الغد من يوم وصولي دخلت الى السلطان بعد صلاة العصر ، وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء ، وقد صنع طعاما كثيرا وأفطرنا بحضره . وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضي حمزة في شأني بالخير ، وأشاروا على السلطان باكرامي .

وهؤلاء الأتراك لا يعرفون انزال الوارد ولا اجراء النفقة ، وانما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز ، وتلك كرامتهم .

وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان ، فلما أردت الانصراف أمرني بالقعود ، وجاءوا بالطعام ، ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل . وفي تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء ، فجعل أصبعه عليه وجعله على فيه ، ولم يزد على ذلك .

ذكر الخواتين وترتيبهن

وكل خاتون منهن تركب في عربة ، وللبيت الذي تكون فيه قبة من

الفضة المموهة بالذهب ، أو الخشب المرصع ، وتكون الخيل التي تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب ، وخادم العربة الذي يركب أحد الخيل فتى يدعى القشى .

والخاتون قاعدة في عربة ، وعن يمينها إمرأة من القواعد تسمى «أولو خاتون» ومعنى ذلك الوزيرة ، وعن شمالها امرأة من القواعد أيضا تسمى «كجك خاتون» ، ومعنى ذلك الحاجبة . وبين يديها ست من الجواري الصغار يقال لهن البنات ، فائقات الجمال متناهيات الكمال . ومن ورائها اثنتان منهن تستند اليهما . وعلى رأس الخاتون «البغطاق» ، وهو مثل التاج الصغير المكلل بالجواهر ، وبأعلاه ريش الطواويس ، وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر شبه «المنوت» التي يلبسها الروم .

وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير ، مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر ، وعلى رأس كل واحدة من البنات «الكلا» وهو شبه «الأقروف» ، وفي أعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجوهر ، وريش الطواويس من فوقها . وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب .

ويكون بين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين ، وقد لبسوا ثياب الحرير المذهبة المرصعة بالجواهر ، وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة ، أو يكون من عود ملبس بها ، وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة ، في كل عربة الثلاث والأربع من الجواري الكبار والصغار ، ثيابهن من الحرير ، وعلى رؤوسهن «الكلا»

وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر ، تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها . ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجواري اللاتي ذركنا . فان العادة عندهم أنه لا يدخل بين الجواري من الغلمان الا من كان له بينهن زوجة .

وكل خاتون على هذا الترتيب ، ولنذكرهن على الانفراد .

ذكر الخاتون الكبرى

والخاتون الكبرى هي الملكة والدة السلطان خان بك وتين بك ، وسنذكرهما . وليست أم ابنته ايت كججك ، وأمها كانت الملكة قبل هذه .

واسم هذه الخاتون طيطغلي ، وهي أحظى نساء هذا السلطان عنده ، وعندها يبيت أكثر لياليها . ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها ، والا فهي أبخل الخواتين .

وحدثني من أعتمده من العارفين بأخبار هذه الملكة ، أن السلطان يحبها للخاصية التي فيها ، وهي أنه يجدها كل ليلة كأنها بكر .

وذكر لي غيره أنها من سلالة المرأة التي يذكر أن الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها . ولما عاد اليه ملكه أمر أن توضع بصحراء لا عمارة فيها ، فوضعت بصحراء قفجق .

ولم أر في صحراء قفجق ولا في غيرها من أخبر أنه رأى امرأة على هذه الصورة ، ولا سمع بها ، الا هذه الخاتون .

اللهم الا أن بعض أهل الصين أخبرني أن بالصين صنفا من نسائها على هذه الصورة . ولم يقع بيدي ذلك ، ولا عرفت له حقيقة .

وفي غد اجتماعي بالسلطان ، دخلت هذه الخاتون ، وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد ، كأنهن خادمات لها ، وبين يديها نحو خمسين جارية صغيرة ، يسمين البنات ، وبين أيديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك وهي ينقينه . وبين يدي الخاتون صينية ذهب مملوءة منه ، وهي تنقيه ، فسلمنا عليها .

وكان في جملة أصحابي قارىء يقرأ القرآن على طريقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب ، فقرأ .

ثم أمرت أن يؤتى بـ «القمز» ، فأتى به في أقداح خشب لطاف

خفاف ، فأخذت القدح بيدها وناولتني أياه ، وتلك نهاية الكرامة عندهم . ولم أكن شربت القمز قبلها ، ولكن لم يمكنني الا قبوله . وذقته ولا خير فيه ، ودفعته لأحد أصحابي .

وسألتني عن كثير من حال سفرنا ، فأجبناها ، ثم انصرفنا عنها ، وكان ابتداؤنا بها لأجل عظمتها عند الملك .

ذكر الخاتون الثانية التي تلي الملكة

واسمها كبك خاتون ، ومعناه بالتركية النخالة ، وهي بنت الأمير نغطى . وأبوها حي مبتلى بعلة النقرس ، وقد رأيته . وفي غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون ، فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم ، وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ، ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا . وقرأ قارئنا فأستحسنته وأمرت بالقمز ، فأحضر ، وناولتني القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة ، وانصرفنا عنها .

ذكر الخاتون الثالثة

واسمها بيلون ، وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور ، ودخلنا على هذه الخاتون ، وهي قاعدة على سرير مرصع ، قوائمه فضة ، وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات ، منهن قائمات وقاعدات ، والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها ، من رجال الروم . فسألت عن حالنا ومقدمنا ، وبعد أوطاننا ، وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رقة منها وشفقة . وأمرت بالطعام فأحضر ، وأكلنا بين يديها وهي تنظر الينا .

ولما أردنا الانصراف قالت : لا تنقطعوا عنا ، وترددوا الينا ، وطالعونا بحاجاتكم . وأظهرت مكارم الأخلاق ، وبعثت في اثرنا بطعام

وخبز كثير ، وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة ، وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها .

ومع هذه الخاتون كان سفري الى القسطنطينية العظمى ، كما نذكره بعد .

ذكر الخاتون الرابعة

وأسمها أردوجا ، و «أردوجا» بلسانهم المحلة ، وسميت بذلك لولادتها في المحلة . وهي بنت الأمير الكبير عيسى بك أمير الألوس ، ومعناه أمير الأمراء . وأدركته حيا ، وهو متزوج بينت السلطان ايت كججك ، وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل ، وأشفقهن ، وهي التي بعثت الي لما رأت بيتي على التل ، عند جواز المحلة كما قدمناه .

دخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها ما لا مزيد عليه ، وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها ، ودعت بالقمز فشرب أصحابنا ، وسألت عن حالنا فأجبناها .

ودخلنا أيضا الى أختها ، زوجة الأمير على أبن أرزق .

ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك .

واسمها أيت كججك ، ومعنى اسمها الكلب الصغير ، فان ايت هو الكلب ، وكججك هو الصغير . وقد قدمنا أن الترك يسمون بالفأل ، كما تفعل العرب .

وتوجهنا الى هذه الخاتون بنت الملك وهي في محلة منفردة ، على نحو ستة أميال من محلة والدها ، فأمرت باحضار الفقهاء والقضاة ، والسيد الشريف ابن عبد الحميد ، وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء .

وحضر زوجها الأمير عيسى الذي بنته زوجة السلطان ، فقعد معها

على فراش واحــد ، وهـو معتـل بــالنقرس ، فـلا يستطيع التصرف على قدميه ، ولا ركوب الفرس ، وانما يركب العربـة ، واذا أراد الـدخول على السلطان أنزله خدامه وأدخلوه المجلس محمولا .

وعلى هـذه الصـورة رأيت أيضــا الأمير نغطى ، وهـو أبـو الخــاتـون الثانية . وهذه العلة فاشيه في هؤلاء الأتراك .

ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الأخلاق ما لم نره من سواها . وأجزلت الاحسان وأفضلت ، جزاها الله خيرا .

ذكر ولدي السلطان

وهـما شقيقـان ، وأمهما جميعـا الملكـة طيطغلي التي قـدمنـا ذكرهـا . والأكبر منهما أسمه تين بـك ، وبـك معنـاه الأمير . وتين معنـاه الجسـد ، فكأن اسمه أمير الجسد . واسم أخيه جان بك ، ومعنى جان الروح ، فكأن اسمه أمير الروح . وكل واحد منهما له محلة على حدة .

وكان تين بـك من أجمل خلق الله صورة . وعهـد لـه أبـوه بـالملـك ، وكانت له الحظوة والتشريف عنده . ولم يرد الله ذلك : فانه لما مات أبوه ولي يسيرا ، ثم قتل لأمور قبيحـة جرت لـه . وولي أخوه جـان بـك وهو خير منه وأفضل .

وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذي تولى تربية جان بـك ، وأشار علي هو والقاضي حمزة والامام بدر الـدين القوامي والامـام المقرىء حسام الدين البخاري وسواهم حين قدومي ، أن يكون نزولي بمحلة جـان بك لفضله ، ففعلت ذلك .

ذكر سفري الى مدينة بلغار

وكنت سمعت بمدينة بلغار ، فأردت التوجه اليها لأرى مـا ذكر عنهـا

من انتهاء قصر الليل بها ، وقصر النهار أيضا في عكس ذلك الفصل . وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر . فطلبت منه من يوصلني اليها ، فبعث معي من أوصلني اليها ، وردني اليه .

ووصلتها في رمضان ، فلما صلينا المغرب أفطرنا . وأذن بالعشاء في أثناء افطارنا فصليناها ، وصلينا التراويح والشفع والوتر ، وطلع الفجر اثر ذلك ! وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضا . وأقمت بها ثلاثا .

ذكر أرض الظلمة

وكنت أردت الدخول الى أرض الظلمة ، والدخول اليها من بلغار ، وبينها أربعون يوما ، ثم أضربت عن ذلك لعظم المئونة فيه وقلة الجدوى .

والسفر اليها لا يكون الا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار ، فان تلك المفازة فيها الجليد ، فلا تثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها . والكلاب لها الأظفار ، فتثبت أقدامها في الجليد .

ولا يدخلها الا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة ، أو نحوها ، موقرة بطعامه وشرابه وحطبه ، فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر .

والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مرارا كثيرة ، وتنتهي قيمته الى ألف دينار ونحوها . وتربط العربة الى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ، ويكون هو المقدم ، وتتبعه سائر الكلاب بالعربات ، فاذا وقف وقفت .

وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره ، واذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بني آدم، والا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف.

فاذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة ، نزلوا عند الظلمة . وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك ، وعادوا الى منزلهم المعتاد .

فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم ، فيجدون بازائه من السمور ، والسنجاب ، والقاقم . فان أرضى صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه أخذه ، وان لم يرضه تركه ، فيزيدونه . وربما رفعوا متاعهم أعني أهل الظلمة ، وتركوا متاع التجار . وهكذا بيعهم وشراؤهم .

ولا يعلم الذين يتوجهون الى هنالك من يبايعهم ويشاريهم ، أمن الجن هو أم من الانس ، ولا يرون أحدا .

والقاقم هو أحسن أنواع الفراء ، وتساوي الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار ، وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون . وهي شديدة البياض ، من جلد حيوان صغير في طول الشبر ، وذنبه طويل ، يتركونه في الفروة على حاله .

والسمور دون ذلك ، تساوي الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها ...

ومن خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل . وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفرواتهم عند العنق ، وكذلك تجار فارس والعراقين .

وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذي بعثه السلطان في صحبتي ، فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببش دغ ، وذلك في الثامن والعشرين من رمضان ، وحضرت معه صلاة العيد ، وصادف يوم العيد يوم الجمعة .

ذكر ترتيبهم في العيد

ولما كان صباح يوم العيد ، ركب السلطان في عساكره العظيمة ،

وركبت كل خاتون عربتها ، ومعها عساكرها ، وركبت بنت السلطان التاج على رأسها ، اذ هي الملكة على الحقيقة ، ورثت الملك عن أمها ، وركب أولاد السلطان ، كل واحد في عسكره .

وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين السايلي ، ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ ، فركبوا وركب القاضي حمزة ، والامام بدر الدين القوامي ، والشريف ابن عبد الحميد .

وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ، ولي عهد السلطان ، ومعهم الطبول والأعلام ، فصلى بهم القاضي شهاب الدين ، وخطب أحسن خطبة .

وركب السلطان ، وانتهى الى برج خشب يسمى عندهم الكشك ، فجلس فيه ومعه خواتينه ونصب برج ثان دونه ، فجلس فيه ولي عهده وابنته صاحبة التاج . ونصب برجان دونها ، عن يمينه وشماله ، فيهما أبناء السلطان وأقاربه .

ونصبت الكراسي للأمراء وأبناء الملوك عن يمين البرج وشماله ، فجلس كل واحد على كرسيه . ثم نصبت طبلات للرمي ، لكل أمير طومان طبلة خاصة به . وأمير طومان عندهم هو الذي يركب له عشرة آلاف ، فكان الحاضرون من أمراء طومان سبعة عشر ، يقودون مائة وسبعين ألفا ، وعسكره أكبر من ذلك . ونصب لكل أمير شبه منبر ، فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه ، فكانوا على ذلك ساعة .

ثم أتي بالخلع ، فخلعت على كل أمير خلعة ، وعندما يلبسها يأتي الى أسفل برج السلطان فيخدم . وخدمته أن يمس الأرض بركبته اليمنى ، ويمد رجله تحتها والأخرى قائمة .

ثم يؤتى بفرس مسرج ملجم ، فيرفع حافره ويقبل فيه الأمير ،

ويقوده بنفسه الى كرسيه . وهنالك يركبه ويقف مع عسكره .... وفعل هذا الفعل كل أمير منهم .

ثم ينزل السلطان عن البرج ويركب الفرس ، وعن يمينه ابنه ولي العهد ، وتليه بنته الملكة ايت كججك ، وعن يساره ابنه الثاني وبين يديه الخواتين الأربع في عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب ، والخيل التي تجرها مجلة بالحرير المذهب .

وينزل جميع الأمراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة ، فيمشون بين يدي السلطان على أقدامهم الى أن يصل الى الوطاق ، وقد نصبت هنالك باركة (باركاه) عظيمة . والباركة عندهم بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب ومكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب ، وفي أعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع . وتظهر هذه الباركة على البعد كأنها ثنية . ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان ، ويفرش ذلك كله بفرش الحرير .

وينصب في وسط الباركة السرير الأعظم ، وهم يسمونه التخت . وهو من خشب مرصع ، وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة ، وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة ، وفوقه فرش عظيم . وفي وسط هذا السرير الأعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى ، وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته ايت كججك ، ومعها الخاتون أردوجا ، وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ، ومعها الخاتون كبك .

ونصب عن يمين السرير كرسي قعد عليه تين بك ، ولد السلطان ، ونصب عن شماله كرسي قعد عليه جان بك ولده الثاني .

ونصبت كراسي عن اليمين والشمال ، جلس فوقها أبناء الملوك والأمراء الكبار ، ثم الأمراء الصغار مثل أمراء هزارة ، وهم الذين يقودون الفا...

ثم أتى بالطعام على موائد الذهب والفضة ، وكل مائدة يحملها أربعة رجال ، وأكثر من ذلك .

وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة . وتوضع بين يدي كل أمير مائدة . ويأتي «الباورجي» ، وهو مقطع اللحم ، وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير ، وفي حزامه جملة سكاكين في أغمادها .

ويكون لكل أمير باورجي ، فاذا قدمت المائدة قعد بين يدي أميره ، ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة ، فيها ملح محلول بالماء ، فيقطع الباورجي اللحم قطعا صغارا . ولهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطا بالعظم ، فانهم لا يأكلون منه الا ما اختلط بالعظم .

ثم يؤتى بأواني الذهب والفضة للشرب . وأكثر شربهم من نبيذ العسل ، فاذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت برجلها ، ثم ناولته القدح فشرب . ثم تأخذ قدحا آخر فتناوله الخاتون الكبرى ، فتشرب منه ، ثم تناول سائر الخواتين على ترتيبهن .

ثم يأخذ ولي العهد القدح ويخدم ، ويناوله أباه فيشرب ، ثم يناول الخواتين ثم أخته ، ويخدم لجميعهن .

ثم يقوم الولد الثاني فيأخذ القدح ويسقي أخاه ويخدم له .

ثم يقوم الأمراء الكبار ، فيسقي كل واحد منهم ولي العهد ويخدم له .

ثم يقوم أبناء الملوك فيسقي كل واحد منهم هذا الابن الثاني ويخدم له .

ثم يقوم الأمراء الصغار فيسقون أبناء الملوك ....

ويغنون في أثناء ذلك .

وكانت قد نصبت قبة كبيرة أيضا أزاء المسجد للقاضي والخطيب والشريف ، وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا معهم . فأتينا بموائد الذهب

والفضة ، يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك . ولا يتصرف في ذلك اليوم بين يدي السلطان الا الكبار ، فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد الى من أراد : فكان من الفقهاء من أكل ، ومنهم من تورع عن الأكل في موائد الفضة والذهب .

ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال عربات ، عليها روايا القمز ، فأمر السلطان بتفريقها على الناس ، فأتوا الي بعربة منها ، فأعطيتها جيراني من الأتراك .

ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة ، فأبطأ السلطان ، فمن قائل انه لا يأتي لأن السكر قد غلب عليه ، ومن قائل انه لا يترك الجمعة . فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل ، فسلم على السيد الشريف ، وتبسم له . وكان يخاطبه بـ «آطا» وهو الأب بلسان الترك .

ثم صلينا الجمعة ، وانصرف الناس الى منازلهم ، وانصرف السلطان الى الباركة ، فبقي على حاله الى صلاة العصر . ثم انصرف الناس أجمعون ، وبقي مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته .

مدينة الحاج ترخان

ثم كان رحلينا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد . فوصلنا الى مدينة الحاج ترخان ، ومعنى «ترخان» عندهم الموضع المحرر من المغارم ، والمنسوب اليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركي نزل بموضعها ، وحرر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية ، ثم عظمت وتمدينت .

وهي من أحسن المدن ، عظيمة الأسواق ، مبنية على نهر اتل ، وهو من أنهار الدنيا الكبار .

وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ، ويجمد هذا النهر ، وتجمد المياه المتصلة به . ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من أحمال

التبن ، فيجعلونها على الجليد المتعقد فوق النهر . والتبن هنالك لا تأكله الدواب ، لأنه يضرها ، وكذلك ببلاد الهند ، وانما أكلها الحشيش الأخضر ، لخصب البلاد .

ويسافرون بالعربات ، فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ، ثلاث مراحل . وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء ، فيغرقون ويهلكون .

ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ، ابنة ملك الروم ، من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود اليه ، فأذن لها . ورغبت منه أن يأذن لي في التوجه في صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى ، فمنعني خوفا علي . فلاطفته وقلت له : انما أدخلها في حرمتك ، وجوارك ، فلا أخاف أحدا ، فأذن لي وودعناه .

ووصلني بألف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة . وأعطتني كل خاتون منهن سبائك الفضة . وأعطت بنته أكثر منهن ، وكستني وأركبتني . واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة .

ذكر سفري الى القسطنطينية

وسافرنا في العاشر من شوال ، في صحبة الخاتون بيلون ، وتحت حرمتها . ورحل السلطان في تشييعها مرحلة ، ورجع هو والملكة وولي عهده . وسافرت سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية ، ثم رجعن . وسافر في صحبتها الأمير بيدرة في خمسة آلاف من عسكره .

وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس ، منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين ، والباقون من الترك . وكان معها من الجواري نحو مائتين ، وأكثرهن روميات . وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة ،

ونحو ألفي فرس لجرها وللركوب ، ونحو ثلاثمائة من البقر ، ومائتين من الجمال لجرها . وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ، ومن الهنديين مثلهم . وقائدهم الأكبر يسمى بسنبل الهندي ، وقائد الروميين يسمى بميخائيل ، ويقول له الأتراك : لؤلؤ ، وهو من الشجعان الكبار . وتركت أكثر جواريها وأثقالها بمحلة السلطان ، اذا كانت قد توجهت للزيارة ووضع الحمل .

مدينة أكك

وتوجهنا الى مدينة أكك ، وهي مدينة متوسطة ، حسنة العمارة ، كثيرة الخيرات ، شديدة البرد ، وبينها وبين السرا حضرة السلطان ، مسيرة عشر . وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة ، جبال الروس ، وهي نصارى شقر الشعور ، زرق العيون ، قباح الصور ، أهل غدر . وعندهم معادن الفضة . ومن بلادهم يؤتى بالصوم ، وهي سبائك الفضة التي بها يباع ويشترى بهذه البلاد . ووزن الصومة منها خمس أواق .

مدينة سردق

ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة الى مدينة سردق ، وهي من مدن دشت قفجق ، على ساحل البحر ، ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها ، وبخارجها البساتين والمياه .

وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصناعات ، وأكثر بيوتها خشب . .

وكانت هذه المدينة كبيرة ، فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك ، وكانت الغلبة للروم ، فانتصر للترك أصحابهم ، وقتلوا الروم شر قتلة ، ونفوا أكثرهم وبقي بعضهم تحت الذمة الى الآن .

وكانت الضيافة تحمل الى الخاتون في كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر ، والدوقى والقمز وألبان البقر والغنم . وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره الى آخر حد بلاده ، تعظيما لها لا خوفا عليها ، لأن تلك البلاد آمنة .

مدينة بابا سلطوق

ثم وصلنا الى البلدة المعروفة باسم بابا سلطوق . وهذه البلدة آخر بلاد الترك ، بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما ، في برية غير معمورة ، منها ثمانية أيام لا ماء بها ، يتزود لها الماء ويحمل في الروايا والقرب على العربات .

وكان دخولنا اليها في أيام البرد ، فلم نحتج الى كثير من الماء . والأتراك يرفعون الألبان في القرب ، ويخلطونها بالدوقى المطبوخ ، ويشربونها فلا يعطشون .

وأخذنا من هذه البلدة في الاستعداد للبرية . واحتجت الى زيادة أفراس ، فأتيت الخاتون فأعلمتها بذلك ، وكنت أسلم عليها صباحا ومساء . ومتى أتتها ضيافة تبعث اليّ بالفرسين والثلاثة وبالغنم . فكنت أترك الخيل لأذبحها . وكان من معي من الغلمان والخدام يأكلون مع أصحابنا الأتراك ، فاجتمع لي نحو خمسين فرسا . وأمرت لي الخاتون بخمسة عشر فرسا ، وأمرت وكيلها «ساروجة الرومي» أن يختارها سمانا من خيل المطبخ ، وقالت : لا تخف ، فان احتجت الى غيرها زدناك .

ودخلنا البرية في منتصف ذى القعدة ، فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان الى أول البرية تسعة عشر يوما ، واقامتنا خمسة . ورحلنا في هذه البرية ثمانية عشر يوما ، وما رأينا الا خيرا والحمد لله .

ثم وصلنا بعد ذلك الى حصن مهتولى ، وهو أول عمالة الروم . وكانت

الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها ، فوصلها الى هذا الحصن كفالي نقولة الرومي في عسكر عظيم وضيافة عظيمة . وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينية .

وبين مهتولي والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما ، منها ستة عشر يوما الى الخليج وستة منه الى القسطنطينية . ولا يسافر من هذا الحصن الا بالخيل والبغال ، وتترك العربات به لأجل الوعر والجبال .

وجاء كفالي ببغال كثيرة . وبعث الى الخاتون بستة منها ، وأوصيت أمير الحصن بمن تركته من أصحابي وغلماني مع العربات والأثقال ، فأمر لهم بدار . ورجع الأمير بيدرة بعساكره . ولم يسافر مع الخاتون الا ناسها .

وتركت مسجدها بهذا الحصن ، وارتفع حكم الأذان . وكان يؤتى اليها بالخمور في الضيافة فتشربها ، وبالخنازير ، وأخبرني بعض خواصها أنها أكلتها . ولم يبق معها من يصلي الا بعض الأتراك ، كان يصلي معنا .

وتغيرت البواطن لدخولنا في بلاد الكفر ، ولكن الخاتون أوصت الأمير كفالي باكرامي . ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا .

ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك ، وهو بسفح جبل على نهر زخار ، يقال له أصطفيلي . ولم يبق من هذا الحصن الا آثاره . وبخارجه قرية كبيرة .

ثم سرنا يومين ووصلنا الى الخليج ، وعلى ساحله قرية كبيرة ، فوجدنا فيها المد ، فأقمنا حتى كان الجزر وخضناه ، وعرضه نحو ميلين . ومشينا أربعة أميال في رمال ، ووصلنا الخليج الثاني فخضناه ، وعرضه نحو ثلاثة أميال . ثم مشينا نحو ميلين في حجارة ورمل ، ووصلنا الخليج الثالث وعرضه ميل واحد ... فعرض الخليج كله مائية ويابسه أثنا عشر

ميلا . وتصير ماء كلها في أيام المطر فلا تخاض الا في القوارب .

مدينـة الفنيكـة

وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة ، وهي صغيرة لكنها حسنة مانعة ، وكنائسها وديارها حسان والأنهار تخرقها ، والبساتين تحف بها . ويدخر بها العنب والاجاص ، والتفاح والسفرجل ، من السنة الى الأخرى .

وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا ، والخاتون في قصر لأبيها هنالك . ثم قدم أخوها شقيقها واسمه كفالي قراس في خمسة آلاف فارس ، شاكين في السلاح . .

ولما أرادوا لقاء الخاتون ، ركب أخوها فرسا أشهب ، ولبس ثيابا بيضاء ، وجعل على رأسه مظلّة مكللة بالجواهر ، وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك ، وعن يساره مثلهم ، لابسين البياض أيضا ، وعليهم مظلات مزركشة بالذهب .

وجعل بين يديه مائة من الماشين ، ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم ، وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا ، عليه شكة فارس ، من البيضة المجوهرة ، والدروع والتركش ، والقوس والسيف ، وبيده رمح في طرف رأسه راية . وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة . وتلك الخيل المقودة هي مراكب ابن السلطان .

وقسم فرسانه على أفواج ، كل فوج فيه مائتا فارس ، ولهم أمير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين في السلاح . وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشر من العلامات ملونة ، بأيدي عشرة من الفرسان ، وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ، ومعهم ستة يضربون الأبواق والأنفار والصرنايات . .

وركبت الخاتون في مماليكها ، وجواريها وفتيانها وخدامها ، وهم نحو خمسمائة ، عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة . وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ، ويقال لها أيضا النسيج ، مرصعة بالجوهر ، وعلى رأسها تاج مرصع . وفرسها مجلل بجل حرير مزركش بالذهب ، وفي يديه ورجليه خلاخيل الذهب ، وفي عنقه قلائد مرصعة ، وعظم السرج مكسو ذهبا ، مكلل جوهرا .

وكان التقاؤهما في بسيط من الأرض على نحو ميل من البلد . وترجل لها أخوها لأنه أصغر سنا منها ، وقبل ركابها ، وقبلت رأسه . وترجل الأمراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعا ركابها ، وانصرفت مع أخيها .

وفي غد ذلك اليوم وصلنا الى مدينة كبرة على ساحل البحر (لا أثبت الآن اسمها) ذات أنهار وأشجار ، نزلنا بخارجها . ووصل أخو الخاتون ولي العهد في ترتيب عظيم ، وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع ، وعلى رأسه تاج ، وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك ، وعن يساره مثلهم . وقد رتب فرسانهُ على ترتيب أخيه سواء ، الا أن الحفل أعظم والجمع أكثر . ولاقته أخته في مثل زيها الأول . وترجلا جميعا ، وأتي بخباء حرير فدخلا فيه ، فلا أعلم كيفية سلامهما .

ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية . فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ، ركبانا ومشاة في أحسن زي وأجمل لباس . وضربت عند الصبح الطبول والأبواق والأنقار ، وركبت العساكر .

وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون ، وأرباب الدولة والخواص ، وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ، ورجال بأيديهم عصي طوال ، في أعلى كل عصا شبه كرة من الجلد ، يرفعون بها الرواق ، وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى .

ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر ، وكثر العجاج ، ولم أقدر على الدخول فيما بينهم ، فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها ، خوفا على نفسي . وذكر لي أنها لما قربت من أبويها ترجلت وقبلت الأرض بين أيديهما ، ثم قبلت حافري فرسيهما ، وفعل كبار أصحابها مثل فعلها في ذلك .

وكان دخولنا عند الزوال أو بعده الى القسطنطينية العظمى ، وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها . ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك ، وجدنا به مائة رجل ، معهم قائد لهم فوق دكان . وسمعتهم يقولون : سراكنو ، سراكنو ، ومعناه المسلمون ، ومنعونا من الدخول .

فقال لهم أصحاب الخاتون : انهم من جهتنا فقالوا : لا يدخلون الا باذن .

فأقمنا بالباب . وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك ، وهي بين يدي والدها ، فذكرت له شأننا ، فأمر بدخولنا ، وعين لنا دارا بمقربة من دار الخاتون . وكتب لنا أمرا بالا نعترض حيث نذهب من المدينة ، ونودي بذلك في الأسواق .

وأقمنا بالدار ثلاثا ، تبعث الينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش . وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان .

ذكر سلطان القسطنطينية

واسمه تكفور ابن السلطان جرجيس ، وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة لكنه تزهد وترهب ، وانقطع للعبادة في الكنائس ، وترك الملك لولده ، وسنذكره .

وفي اليوم الرابع من وصولنا الى القسطنطينية ، بعثت الينا الخاتون

الفتى سنبلا الهندي ، فأخذ بيدي وأدخلني الى القصر . فجزنا أربعة أبواب في كل باب سقائف ، بها رجال وأسلحتهم ، وقائدهم على دكان مفروش . فلما وصلنا الى الباب الخامس ، تركني الفتى سنبل ودخل . ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ، ففتشوني لئلا يكون معي سكين .

وقال لي القائد : تلك عادة لهم ، لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام ، غريب أو بلدي .

وكذلك الفعل بأرض الهند . ثم لمّا فتشوني قام الموكل بالباب فأخذ بيدي وفتح الباب . وأحاط بي أربعة من الرجال ، أمسك اثنان بكمي ، واثنان من ورائي ، فدخلوا بي الى مشور كبير ، حيطانه بالفسفساء ، قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد ، وفي وسطه ساقية ماء ، ومن جهتيها الأشجار ، والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا ، لا يتكلم أحد منهم .

وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقوف أسلمني أولئك الأربعة اليهم ، فأمسكوا بثيابي ، كما فعل الآخرون . وأشار اليهم رجل فتقدموا بي ، وكان أحدهم يهوديا ، فقال لي بالعربي : لا تخف فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد ، وأنا الترجمان ، وأصلي من بلاد الشام . فسألته : كيف أسلم ؟

فقال : قل السلام عليكم !

ثم وصلت الى قبة عظيمة والسلطان على سريره ، وزوجته - أم هذه الخاتون - بين يديه ، وأسفل السرير الخاتون واخواتها ، وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة ، وكلهم بالسلاح .

فأشار اليّ قبل السلام والوصول اليه بالجلوس هنيهة ، ليسكن روعي ، ففعلت ذلك . ثم وصلت اليه ، فسلمت عليه ، وأشار اليّ أن أجلس ، فلم أفعل .

وسألني عن بيت المقدس ، وعن الصخرة المقدسة ، وعن القمامة وعن

مهد عيسى وعن بيت لحم ، وعن مدينة الخليل عليه السلام ، ثم عن دمشق ومصر والعراق ، وبلاد الروم . فأجبته عن ذلك كله ، واليهودي يترجم بيني وبينه . فأعجبه كلامي ، وقال لأولاده : أكرموا هذا الرجل وأمنوه .

ثم خلع عليّ خلعة ، وأمر لي بفرس مسرج ملجم ، ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه ، وهي علامة الأمان . وطلبت منه أن يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم ، حتى أشاهد عجائبها وغرائبها ، وأذكرها في بلادي ، فعين لي ذلك .

ومن العادات عندهم أن الذي يلبس خلعة الملك ، ويركب فرسه ، يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والأنقار والطبول ، ليراه الناس . وأكثر ما يفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذوا ...

فطافوا بي في الأسواق .

وصف المدينة

وهي متناهية في الكبر ، منقسمة قسمين ، بينهما نهر عظيم المد والجزر ، على شكل وادي سلا من بلاد المغرب ، وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت ، وهو الآن يعبر في القوارب ، واسم هذا النهر أبسمي .

وأحد القسمين يسمى اصطنبول ، وهو بالعدوة الشرقية من النهر ، وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته ، وسائر الناس . وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة . وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم . وعلى كل سوق أبواب ، تسد عليه بالليل . وأكثر الصناع والباعة بها النساء .

والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال ، وعرضه مثل ذلك أو أكثر . وفي أعلاه قلعة صغيرة ، وقصر السلطان . والسور يحيط بهذا الجبل ، وهو مانع لا سبيل لأحد اليه من جهة البحر . وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة . والكنيسة العظمى في وسط هذا القسم من المدينة . .

وأما القسم الثاني منها فيسمى الغلطة ، وهو بالعدوة الغربية من النهر ، شبيه برباط الفتح في قربه من النهر .

وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه . وهم أصناف : فمنهم الجنويون ، والبنادقة ، وأهل رومية ، وأهل افرانسة . وحكمهم الى ملك القسطنطينية ، يقدم عليهم منهم من يرتضونه ، ويسمونه «القمص» ، وعليهم وظيفة في كل عام لملك القسطنطينية . وربما استعصوا عليه ، فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا . وجميعهم أهل تجارة .

ومرساهم من أعظم المراسي ، رأيت به نحو مائة جفن من القراقر ، وسواها من الكبار ، وأما الصغار فلا تحصى كثرة . وأسواق هذا القسم حسنة ، الا أن الأقذار غالبة عليها ، ويشقها نهر صغير قذر نجس .

ذكر الكنيسة العظمى

وانما نذكر خارجها ، وأما داخلها فلم أشاهده . وهي تسمى عندهم أيا صوفيا ويذكر أنها من بناء آصف بن برخيا ، وهو ابن خالة سليمان عليه السلام ، وهي من أعظم كنائس الروم ، عليها سور يطيف بها ، فكأنها مدينة . وأبوابها ثلاثة عشر بابا .

ولها حرم نحو ميل ، عليه باب كبير ، ولا يمنع أحد من دخوله . وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره ، وهو شبه مشور مسطح بالرخام ، وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة ، لها حائطان مرتفعان نحو

ذراع ، مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة . والأشجار منتظمة على جهتي الساقية . ومن باب الكنيسة الى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع ، عليه دوالي العنب ، وفي أسفله الياسمين والرياحين .

وفي خارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب ، يجلس عليها خدام ذلك الباب . وعن يمين القبة مصاطب وحوانيت ، أكثرها من الخشب ، يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم . وفي وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد اليها على درج خشب ، وفيها كرسي كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيهم ، وسنذكره . وعن يسار القبة التي على باب هذا المشور سوق العطارين .

والساقية التي ذكرناها ، تنقسم قسمين : أحدهما يمر بسوق العطارين ، والآخر يمر بالسوق ، حيث القضاة والكتاب .

وعلى باب الكنيسة سقائف ، يجلس بها خدامها الذين يقمون طرقها ، ويوقدون سرجها ، ويغلقون أبوابها . ولا يدعون أحدا يدخلها حتى يسجد للصّليب الأعظم عندهم . وهو على باب الكنيسة ، مجعول في جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع ، قد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليبا .

وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب، وحلقتاه من الذهب الخالص.

وذكر لي أن عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسّيسين ينتهي الى آلاف ، وأن بعضهم من ذرية الحواريين ، وأن بداخلها كنيسة مختصة بالنساء ، فيها من الأبكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف ، وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله .

ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس ، أن يأتوا كل يوم صباحا الى زيارة هذه الكنيسة .

ويأتي اليها البابا مرة في السنة . واذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك الى لقائه ويترجل له ، وعند دخول المدينة يمشي بين يديه على قدميه . ويأتيه صباحاً ومساء للسلام عليه طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف .

ذكر المانستارات بالقسطنطينية

والمانستار على مثل لفظ المارستان ، الا أن نونه متقدمة وراءه متأخرة . وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين . وهذه الماستارات بها كثيرة . فمنها مانستار عمره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية وسنذكره ، وهو بخارج اسطنبول مقابل الغلطة .

ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل اليها ، وهما في داخل بستان يشقهما نهر ماء ، وأحدهما للرجال والآخر للنساء ، وفي كل واحد منهما كنيسة ، ويدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبّدات ، وقد حبس على كل واحد منهما أحباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم ... بناهما أحد الملوك .

ومنها مانستاوان عن يسار الداخل الى الكنيسة العظمى ، على مثل هذين الآخرين . ويطيف بها بيوت . وأحدهما يسكنه العميان ، والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطعون الخدمة ، من بلغ الستين أو نحوها . ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك .

وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه ، وأكثر هؤلاء الملوك اذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستارا ، ولبس المسوح (وهي ثياب الشعر) ، وقلد ولده الملك ، واشتغل بالعبادة حتى يموت . وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء . وهي كثيرة بهذه المدينة .

ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي الى مانستار يشقه نهر ، وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر ، عليهن المسوح ، ورؤوسهن محلوقة ، فيها قلانيس اللبد ، ولهن جمال فائق ، وعليهن أثر العبادة ، وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الانجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه ، وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم . فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر .

وقال لي الرومي : أن هؤلاء البنات من بنات الملوك وهبن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة ، وكذلك الصبيان القراء . ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة .

ودخلت معه أيضا الى كنيسة في بستان ، فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد ، وصبي يقرأ لهن على منبر ، وجماعة صبيان معه على منابر مثل الأولين .

فقال لي الرومي : هؤلاء بنات الوزراء والأمراء ، يتعبدن بهذه الكنيسة .

ودخلت معه الى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد ، والى كنائس من العجائز والقواعد من النساء ، والى كنائس فيها الرهبان ، يكون في الكنيسة منها مائة رجل وأكثر وأقل .

وأكثر أهل هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسّيسون ، وكنائسها لا تحصى كثرة وأهل المدينة من جندي وغيره ، صغير وكبير ، يجعلون على رؤوسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا ، والنساء لهن عمائم كبار .

صدر في سلسلة الأنيس

زينب : محمد حسين هيكل

البخلاء : الجاحظ

حياتي : أحمد أمين

الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية : محمد عبده

المدينة الفاضلة ومختارات من كتاب الملة : أبو نصر الفارابي

ماهي النهضة ومختارات أخرى : سلامة موسى

رحلة ابن جبير : ابن جبير

العبرات : المنفلوطي

سيرة بني هلال (جزءان)

كليلة ودمنة : ابن المقفع

تحرير المرأة : قاسم أمين

ألف ليلة وليلة (4 أجزاء)

النظرات (3 أجزاء) : المنفلوطي

مقامات الهمذاني : بديع الزمان الهمذاني

طبائع الاستبداد : عبد الرحمان الكواكبي

الإسلام وأصول الحكم : علي عبد الرزاق

وثائق ثورة يوليو : جمال عبد الناصر

طوق الحمامة : ابن حزم الاندلسي

روح الاجتماع : غوستاف لوبون

سيرة الملك الظاهر

الامامة والسياسة (جزءان) : ابن قتيبة

مقامات الحريري (جزءان) : الحريري

غادة ام القرى : رضا حوحو

الفضيلة : المنفلوطي

حي بن يقظان : ابن طفيل

الامتاع والمؤانسة (3 أجزاء) : التوحيدي

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية ، الجزائر – 1989

عاصمة الثقافة العربية

رحلة إبن بطوطة

وهكذا تمتاز رحلة إبن بطوطة بالتنوع والإثارة والإمتاع، فهي ليست قصة طويلة مملة وليس مجرد وصف جغرافي للبلدان والطبيعة، وليست تاريخا جاف يعتمد على سرد الحوادث...، وإنما هي ثروة «اثنوجرافية» تضع أمام المهتم بثقافة وعادات شعوب ذلك العصر، مادة اثنوجرافية هائلة، إستمر جمعها إبن بطوطة حوالي ثلاثين سنة، يشاهد ويلاحظ ويعايش ويسمع.

محمد السويدي





ISBN 978-9961-62-561-3
9 789961 625613



Designer : Med ZOUAOUI